

الحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله

محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني

الطبعة ١٩٩١ هـ

قدس سره

منشورات

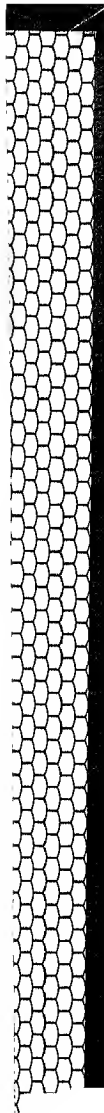
مؤسسة الأعلیٰ للطباعة والنشر

بمسيرة - لهستان









المَحَجَّةُ الْبَيْضَاءُ



فِي هَذَا نِيْلُ الْجَيَاءِ

Copyright Organization of the Alexandria Library (GOAL)
And the Library of Alexandria

لمحقق اعظم والمحدث الكبير حكيم المتأله محمد بن المرقى المدعو

بالمولاي محسن الكاشاني

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه على ابراهيم غفاري

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف
رقم التسجيل	٤١-١٢

الجزء الثامن

منشورات
مؤسسة الأعلی للطبوعات
بيروت - لبنان
ص ١٢٠ : ٧١٢٠

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناسر
١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس

وهو الكتاب السادس من ربيع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نزّه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا ونضرتة ،
وصفى سرائرهم عن ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزّته ،
ثم تجلّى لها بأسمائه وصفاته حتّى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم كشف لها عن سبحات
وجهه حتّى احترقت بنار محبّته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتّى تاهت في بيداء
كبريائه وعظمته ، فكلّما اهتزّت لملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدّھش ما أغبر في
وجه العقل وبصيرته ، وكلّما همّت بالانصراف عنه آيسة نوديت من سرادقات الجمال
صبراً أيّتها الآئس عن نيل الحقّ بجھله وعجلته ، فبقيت بين الرّدّ والقبول والصدّ
والوصول غرقى في بحر معرفته ، محترقة بنار محبّته ، والصلاة على محمّد خاتم الأنبياء
بكمال نبوّته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمّته ، وقادة الحقّ وأزعمته وسلّم
كثيراً .

أمّا بعد فإنّ المحبّة لله عزّ وجلّ هي الغاية القصوى من المقامات والذّروة
العليا من الدّرجات فما بعد إدراك المحبّة مقام إلّا وهو ثمرة من ثمراتها وتابع
من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبّة مقام إلّا وهو
مقدّمة من مقدّماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات وإن عزّ وجودها
فلم تخل القلوب عن الإيمان بامكانها ، فأما محبّة الله عزّ وجلّ فقد عزّ الإيمان
بها حتّى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلّا المواظبة على طاعة الله
عزّ وجلّ ، وأما حقيقة المحبّة فمحال إلّا مع الجنس والمثال ، ولما أنكروا

المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لامستحق للمحبة إلا الله عز وجل ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذّة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب لله ، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله عز وجل ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله عز وجل للعبد ، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثم القول في معنى الرضا ببيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدّعاء وكره المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ، ثم بيان حكايات المحبين وكلمات للمحبين متفرقة .

❖ (بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى) ❖

إعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله عز وجل ولرسوله فرض ولن يفترض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد أن يتقدّم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب فمن شواهد الشرع في حب الله عز وجل قوله : « يحبّهم ويحبّونه »^(١) وقوله تعالى : « والذين آمنوا أشدّ حباً لله »^(٢) وهو دليل على إثبات الحب لله وإثبات التفاوت فيه ، وقد جعل النبي ﷺ الحب لله من شروط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك ممّا سواهما »^(٣) وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما »^(٤) وفي حديث آخر « لا يؤمن

(١) المائدة : ٥٩ . (٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج ٤ ص ١١ في حديث .

(٤) أخرجه بمضمونه النسائي ج ٨ ص ٩٤ ، وأحمد في مسنده ج ٣ ص ١٢٢ ، والطبراني

العبد حتى أكون أحبَّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين ، ^(١) وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - إلى قوله - أحبُّ إليكم من الله ورسوله - الآية » ^(٢) .

وإنما ذلك جرى في معرض التهديد والإنكار وقد أمر ﷺ بالمحبة فقال : « أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبُّوني لحبِّ الله إليَّ » ^(٣) .

وقد يروى أن رجلاً قال : « يا رسول الله إنِّي أُحبُّك ، فقال : استعدَّ للفقير ، فقال : إنِّي أُحبُّ الله ، فقال : استعدَّ للبلاء » ^(٤) .

وعن عمر قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ^(٥) فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حبُّ الله وحبُّ رسوله إلى ما ترون » ^(٦) .

وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خديلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه هل رأيت محبباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض » ^(٧) وهذه لا يجدها إلا عبدٌ يحبُّ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا ﷺ في دعائه : « اللهم أرزقني حبَّك وحبَّ

(١) أخرجه البخاري ج ١ ص ١٢ من حديث أنس وأيضاً مسلم ج ١ ص ٤٩ بنحوه .

(٢) التوبة : ٢٤ .

(٣) أخرجه الترمذي ، والحاكم في المستدرک ج ٣ ص ١٥٠ من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة وفيه « استعد

للفاقة » دون آخر الحديث كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٧٤ . (٥) أي شد وسطه به .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية بسند حسن كما في المغني .

(٧) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

من يحببك وحب ما يقر بني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد^(١).
وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : «يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما أعددت
لها ؟ فقال : ما أعددت لها كثير صلاة و صيام إلا أنني أحب الله و رسوله فقال له :
النبي ﷺ : المرء مع من أحب » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد
الإسلام فرحهم بذلك^(٢).

و قال بعض الصحابة : من ذاق من خالص محبة الله عز وجل شغله ذلك عن
طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال آخر : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف
الدنيا زهد فيها و أبغضها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن .
وقال أبو سليمان الداراني : إن من خلق الله تعالى خلقاً ما يشغلهم الجنان وما
فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا .

و يروى أن عيسى ﷺ مر بثلاثة نفر قد نحلّت أبدانهم و تغيرت ألوانهم
فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله
أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى فإذا هم أشد نحولاً و تغيراً فقال :
ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ؟ قال : حق على الله أن يعطيكم
ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى فإذا هم أشد نحولاً و تغيراً كأن على
وجوههم المرايا من النور فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب الله عز وجل
فقال : أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون .

و قال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج فقلت له : أما تجد
البرد ؟ فقال : من شغله حب الله لم يجد البرد ، عن سري السقطي أنه قال : تدعى
الأمم يوم القيامة بأنبيائها فيقال : يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين
لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه و تعالى فتكاد قلوبهم
تنخلع فرحاً .

(١) تقدم عن الترمذي من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي بسند حسن كفاي الجامع الصغير.

(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٤٢ ، والطبراني والبزار كفاي مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨٠.

وقال هرم بن حيّان : المؤمن إذا عرف ربّه عزّ وجلّ أحبّه وإذا أحبّه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الرغبة وهو بجسده في الدنيا وروحه في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ، ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ، وحبه يدهش العقول فكيف ودّه ، ودّه ينسي ما دونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب : عبدني أنا وحقّك لك محبّ فبحقّي عليك كن لي محبّاً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحبّ أحبّ إلى الله من عبادة سبعين سنة بلا حبّ . وقال أيضاً : إلهي إنني مقيم بفنائك ، مشغول بفنائك صغيراً أخذتني إليك و سربلتني بقربك ، و شرّفتني بهر فنتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، و قلبتني في الأعمال سترأ و توبة وزهداً و شوقاً و رضا و حبّاً فسقيتني من حياضك ونعمتني في رياضك ملازماً لا مترك ومشغولاً بقولك ولما طرّ شاربي ولاح طائلي^(١) فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً و قد اعتدت هذا منك صغيراً فلي ما بقيت حولك زمزمة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنني أحبّك وكلّ حبيب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « حبّ الله إذا أضأ على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل وكلّ ذكر سوى الله ، والمحبّ أخلص الناس سرّاً لله وأصدقهم قولاً وأوفاهم عهداً وأزكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً وأعبدهم نفساً يتباهى به الملائكة عند مناجاته وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله تعالى بلاده وبكرامته يكرم الله عبادة ، يعطيهم إذا سألوه بحقّه ، ويدفع عنهم البالايأ برحمته ، فلو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقرّ بوا إلى الله إلّا بتراب قدميه . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « حبّ الله نارٌ لا يمرّ على شيء إلّا احترق ، و نور الله لا يطلع على شيء إلّا أضأ ، و سماء الله ما ظهر من تحته من شيء إلّا غطّاه ، و ريح الله ما تهبّ في شيء إلّا أحرّ كته و ماء الله يحيي به كلّ شيء ، وأرض الله ينبت منها كلّ شيء ، فمن أحبّ الله أعطاه كلّ شيء من الملك و الملك . قال النبي ﷺ : « إذا أحبّ الله عبداً من أمتي قذف في قلوب أصفياؤه وأرواح ملائكته وسكّان عرشه محبّته ليجبّوه فذلك المحبّ حقّاً ، (١) طرابلس : بيست ومنه طرشارب الغلام . والطائل الفضل والقدرة و الغنى .

طوبى له ثم طوبى له وله عند الله شفاعة يوم القيامة ، ^(١) إلى هنا كلام الصادق عليه السلام .
قال أبو حامد : وقد ورد في حب الله من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر
حاصر وذلك أمر ظاهر وإنما الغموض في تحقيق معناه فلم نستغل به .

✽ (بيان حقيقة المحبة واسبابها) ✽

✽ (وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى) ✽

إعلم أن المطلوب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها
ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله عز وجل ،
فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا
يجب إلا إنسان من لا يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب بجماد بل هو من
خاصية الحي المدرك ثم المدركات في أنفسها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه
ويلذّه وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه وإلى ما لا يؤثر فيه بايلا م وإذاذ فكل ما في
إدراكه لذّة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند
المدرك ، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذّة فلا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً ،
فإن كل لذيد محبوب عند المتلذذ به ، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه
ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه ، فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء
الملذذ فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمّي عشقاً ، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن
المؤلم المتعب فإذا قوي سمّي مقتاً فهذا أصل في معنى حقيقة الحب لا بد من معرفته .
الأصل الثاني أن الحب لما كان تابعاً للمعرفة والإدراك انقسم لا محالة
بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل
واحدة منها لذّة في بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذّة ميل إليها فكانت
محبوبات عند الطبع السليم فلذّة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور
المليحة الحسنة ، ولذّة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة ، ولذّة الشم في الروائح
الطيبة ، ولذّة الذوق في الطعوم ، ولذّة اللمس في اللين والنعومة ، ولما كانت هذه

المدركات بالحواس ملذّة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتّى قال :
 « حَبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ الطَّيِّبِ وَالنِّسَاءِ وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » (١)
 فسمّى الطيب محبوباً ومعلوم أن لاحظاً للمعين والسمع فيه بل للشّم فقط وسمّى
 النساء محبوبات ولاحظ فيهنّ إلّا للبصر واللمس دون الشّم والدّوق والسمع و
 سمّى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنّه ليس تحظى بها الحواس
 الخمس بل حسّ سادس مطيئته القلوب لا يدركه إلّا من كان له قلب ولذات الحواس
 الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحب مقصوداً على مدركات الحواس
 الخمس حتّى يقال : إنّ الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يمثل في الخيال فلا يحب
 فإن قد بطلت خاصيّة الإنسان وماتميّز به من الحسّ السادس الذي يعبر عنه إمّا بالعقل
 أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيها وهيئات فالبصيرة الباطنة
 أقوى من البصر الظاهر والقلب أشدّ إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل
 أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذّة القلوب بما تدركه من
 الأمور الشريفة الإلهيّة التي تجلّ عن أن تدركها الحواس أتمّ وأبلغ فيكون ميل
 الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلّا الميل إلى ما في إدراكه
 لذّة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر إذن حبّ الله تعالى إلّا من قعده القصور في درجة
 البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً .

الأصل الثالث أن الإنسان لا يخفى أنّه يحبّ نفسه ولا يخفى أنّه قد يحبّ
 غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحبّ غيره لذاته لأجل نفسه هذا ممّا قد يشكّل
 على الضعفاء حتّى يظنّون أنّه لا يتصور أن يحبّ الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع
 منه حظّ إلى المحبّ سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلنبيّن
 أقسام المحبة وأسبابها .

و بيانه أن المحبوب الأوّل عند كلّ حيّ نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن
 في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأنّ المحبوب بالطبع هو

الملائم للمحبِّ وأي شيء، أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء، أعظم مضادة و منافرة له من عدمه و هلاكه ، فلذلك يحبُّ الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت و القتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت و لا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم و تعب و أميت من غير ثواب و لا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك ولا يحبُّ الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة و مهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحبُّ العدم لم يحبِّه لأنَّه عدم بل لأنَّ فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت و دوام الوجود محبوبٌ وكما أنَّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوبٌ لأنَّ الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود ، و هو هلاك بالنسبة إليه و الهلاك و العدم ممقوت في الصفات و كمال الوجود كما أنَّه ممقوت في أصل الذات و وجود صفات الكمال محبوبٌ كما أنَّ دوام أصل الوجود محبوبٌ وهذه غريزه في الطباع بحكم سنة الله تعالى : «ولن تجد لسنة الله تبديلاً» ^(١) فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله و ولده و عشيرته وأصدقائه ، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأنَّ كمال الوجود و دوام الوجود موقوف عليها ، والمال محبوبٌ لأنَّه أيضاً آلة في دوام الوجود و كماله و كذا سائر الأسباب ، فالإنسان يحبُّ هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود و كماله بها حتَّى أنَّه ليحبُّ ولده وإن كان لا يناله منه حظٌ بل يتحمَّل المشاقَّ لأجله لأنَّه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له فلنفرط حبه لبقاء نفسه يحبُّ بقاء من هو قائم مقامه ، وكأنَّه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً نعم لو خير بين قتله و قتل ولده و كان طبعه باقياً على اعتداله أثر بقاء نفسه على بقاء ولده لأنَّ بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فإنَّه يرى نفسه كثيراً بهم قوياً بسببهم متجماً بكما لهم ، فإنَّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجنح المكمل للإنسان ، و كمال الوجود و دوامه محبوب بالطبع لاهماله فاذن المحبوب

الأوّل عند كلّ حيّ ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كلّهُ والمكروه عنده ضدّ ذلك فهذا هو الأوّل الأسباب .

السبب الثاني الإحسان وإنّ الإنسان عبد الإحسان وقد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله ﷺ : « اللّهم لا تجعل لفاجر عليّ يدأ فيحبّه قلبي »^(١) أشار إلى أنّ حبّ القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلة و فطرة لاسبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحبّ الإنسان الأجنبيّ الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة ، وهذا إذا حقّق رجع إلى السبب الأوّل فإنّ المحسن من أمد بالمال والمعونة و سائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها ينتهيّ الوجود إلّا أنّ الفرق أنّ أعضاء الإنسان محبوبة لأنّ بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحّة الأعضاء ففرق بين حبّ الصحّة وبين حبّ الطبيب الذي هو سبب الصحّة إذ الصحّة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوبٌ لا لذاته بل لأنّه سببٌ للصحّة ، وكذلك العلم محبوبٌ والأستاذ محبوبٌ ولكنّ العلم محبوبٌ لذاته والأستاذ محبوبٌ لكونه سبب العلم المحبوب ، وكذلك الطعام والشراب محبوبٌ والدّنانير محبوبةٌ لكنّ الطعام محبوبٌ لذاته والدّنانير محبوبةٌ لأنّها وسيلة إلى الطعام فإنّ يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة وإلا فكلّ واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه فكلّ من أحبّ المحسن لا حسانه فما أحبّ ذاته تحقيقاً بل أحبّ إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال ذلك زال الحبّ مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو نقص نقص الحبّ ولو زاد زاد و يتطرّق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحبّ الشيء لذاته لا لحظّ ينال منه وراء ذاته ، بل يكون ذاته عين حفظه وهذا هو الحبّ الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحبّ الجمال والحسن فإنّ كلّ جمال فهو محبوبٌ عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وقد تقدم .

لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة، ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيق فيجوز أن يكون محبوباً لذاته و كيف ينكر ذلك ، والخضرة و الماء الجاري محبوبان لاليشرب الماء أو تؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجاري (١) و الطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار (٢) و الأزهار و الأطياف المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى أن الإنسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر ، فهذه الأسباب ملذة و كل لذيق محبوب و كل حسن و جمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع فإن ثبت أن الله تعالى جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله و جلاله كما قال رسول الله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال » (٣).

السبب الرابع في بيان معنى الحسن والجمال : إعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات و المحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن و الجمال إلا تناسب الخلقة و الشكل و حسن اللون و كون البياض مشوباً بالحمرة و امتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حس البصائر و أكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوئاً منقداً فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً ، وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ، و

(١) رواه أبو نعيم في كتاب طب النبي صلى الله عليه وآله من حديث ابن عباس بسند ضعيف كما في المغنى .

(٢) جمع النور بالفتح مصدر واحدتها نورة و نور النبات زهرتها و بهجتها و غضايرتها .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف ، و

مسلم و الترمذي من حديث ابن مسعود ، والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة و ابن عساكر من حديث جابر و ابن عمر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

لا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإننا نقول هذا خطأ حسن وهذا صوت حسن بل نقول : هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأني معني لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن العين تستلذ النظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهي منقسمة إلى حسن وقبح فما معني الحسن الذي يشترك فيه هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا بحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق فنقول : كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وهي غاية الكمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كره وفر عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن إلا إنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء ، فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم يدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم والأرائيح فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسناتها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس ، فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخصال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية أن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم مع أنهم لم يشاهدوهم بل على حب أرباب المذاهب

حتى أن الرجل قد تجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرته مذهبه والذّب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق في نصرته أرباب المذاهب وليت شعري من يحب إمامه مثلاً فلم يحبّه ؟ ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربّما لم يستحسن صورته فاستحسنه الذي حمله على إفراطه في الحب إنّما سيرته الباطنة لا صورته الظاهرة فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً وإنّما يحبّه لصفاته الباطنة من الدّين والتقوى و غزارة العلم والاحاطة بمدارك الدّين و انتهاضه لافاضة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلّا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها . وتلك الصفات الباطنة ترجع بجلتها إلى العلم والقدرة إذ اعلم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعب عن هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحسّ ومحلّهما من جملة البدن جزء لا يتجزّء فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزّء صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله فإن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبّاً فالمحبوب مصدر السير الجميلة وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وترجع بجلتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرّك بالحواسّ حتى أن الصّبيّ المخلّى وطبعه إذا أردنا أن نحسّب إليه غائباً أو حاضراً حبّاً أو ميّساً لم يكن لنا سبيل إلّا بالاطّباب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبّه فهل غلب حبّ الصحابة وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلّا بالاطّباب في وصف المحاسن والمقابح التي لاتدرك بالحواسّ بل لما وصف الناس حاتمياً بالسخاء ووصفوا رجلاً بالشجاعة أحبّتهم القلوب حبّاً ضرورياً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظّ يناله المحبّ منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبّه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبّين لبعدها زار ونأي الدّيار ، فإن ليس حبّ الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه

بل المحسن في نفسه محبوبٌ وإن كان قد لا ينتهي قط إحسانه إلى المحبِّ لأنَّ كلَّ جمال وحسن فهو محبوبٌ والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرُّك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدرُّكها ولا يلتذُّ بها . ولا يحبُّها ولا يميل إليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواسِّ الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحبُّ نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحبُّ ندياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحبِّ والمحبوب إذ ربَّ شخصين يتأدَّد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظٍّ ولكنَّ بمجرد تناسب الأرواح كما قال وَاللَّهُ يَخْتَارُ «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١) وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحبِّ في الله تعالى فليطلب منه لأنّه أيضاً من عجائب أسباب الحبِّ فإن رجع أقسام الحبِّ إلى خمسة أقسام وهو حبُّ الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقاءه و دفع المهلكات عنه ، وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه وحبه لكلِّ ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن ، فلو اجتمعت هذه الأسباب كلّها في شخص واحد تضاعف الحبُّ لامحالة كما لو كان للإنسان ولدٌ جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوباً لامحالة غاية الحبِّ وتكون قوّة الحبِّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحبُّ لامحالة في أعلى الدرجات ، فلنبيّن الآن أن هذه الأسباب كلّها لا يتصور كمالاتها واجتماعها إلّا في حقِّ الله فلا يستحقُّ المحبة في الحقيقة إلّا الله سبحانه وتعالى .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٨ ص ٤١ وقد تقدم .

❖ (بيان ان المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده) ❖

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحب الرسول محمود لأنه عين حب الله وكذا حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب وحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يجاوزه إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله ولا مستحق للمحبة سواء وإيضاحه بأن يرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا توجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً وبأن أن التحقيق يقتضي أن لا يحب أحد غير الله تعالى .

أما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقائه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي ولا يتصور أن ينفك عنها حي وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالابجاد وهو هالك عقيب وجوده لو لا فضل الله عليه بالابقاء وهو ناقص بعد الوجود لو لا فضل الله عليه بتكميل خلقته ، وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الدائم الذي هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره فإن كان لا يحبّه فهو لجهله بنفسه وربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوي بقوتها ولذلك قيل : من عرف ربه أحبه ومن عرف النار

بعد عنها و من عرف الدنيا زهد فيها فكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالاضافة إلى قدرة الله عز وجل هو كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته و وجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ، و وجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثل صحيح بالاضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأيصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس و بين الأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب منها الحقائق فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أو لا ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره و أعراضه أيضاً ضروري إن عرف ذلك كذلك و من خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التمتع به والانتفاع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطاق أرضه إلا من يقرب في شكله من الملائكة فينظر فيه بقدر قربته في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وأما السبب الثاني : وهو حبه لمن أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتفض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده ، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأمّا أنواع إحسانه إلى كل عبدة فلست أعددّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (١)

و لقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا الآن نقتصر على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز فإِنما المحسن هو الله عز وجل ولنقرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع أمواله ومكثك منها لتتصرف فيها كيف تشاء، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك ولو لا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرر في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرب فيه اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو محسن بنفسه لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه وأما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنّة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة وكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصوده، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخر في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله ولو لا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة، فإنه هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين أحدهما أنه مضطرب بتسليط الله الدواعي عليه ولا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير

مضطراً إلى الطاعة و الامتثال لما يرسمه فلا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلمه فكذلك كل محسن لو خلاه الله عز وجل ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حفظه ديناً ودنياً في بذله فبذله لذلك ، والثاني أنه معتاض مما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب إليه مما بذله وكما لا يعد البايع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها أعواض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالإحسان بالجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى البازل وذلك محال من غير الله عز وجل فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولا جهم لا لحظ و غرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض والحظوظ فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المتفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله عز وجل إذ الإحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه فهذا موجود في الطباع فإذا بلغك خبر ملك عالم عابد عادل رفيق بالناس متلطّف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضاً بعيد عنك فإنك تجد في القلب تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأول وهو الحب ونفرة عن الثاني وهو البغض مع أنك آس من خير الأول وآمن من شر الثاني لا تقطاع طمعك عن الترحل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث أنه محسن في نفسه فقط لا من حيث أنه محسن إليك وهذا أيضاً يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً إلا من حيث يتعلق منه بسبب فإن الله تعالى هو المحسن إلى الكافة المتفضل على جميع أصناف

الخلق أولاً بما يجادهم وثانياً بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثاً بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعاً بتكميلهم بالزوايد والمزايا التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ، ومثال الضروري من الأعضاء الرأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ، ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو لم يكن لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ، ومثال الضروري من النعم الخارجة من بدن الإنسان الماء والغذاء ، ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذرة العرش إلى منتهى الثرى فإذن هو المحسن وكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فإنه خالق الخلق وخالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان فالحب بهذه العلة أيضاً لغيره جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بينا أن ذلك محبوب في الطباع فإن الجمال ينقسم إلى جمال الصور الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصور الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهايم فضلاً عن غيرهم والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب ، ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوي المكالم السنية والأخلاق الرضية فإن ذلك متصور مع تشويه الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك الحس آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب الرسول أو الإمام أو ولياً

من أولياء الله فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدراً لأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنّف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتهم الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة فكلما كان المعلوم أشرف وأتمّ جمالاً وجلالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل مرتبة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً، وأجل المعلومات هو الله فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله عز وجل وكذلك ما يقاربه فشرفه على قدر تعلّقه به فإذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً يرجع إلى ثلاثة أمور أحدها علمهم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وشرائع الأنبياء ، والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة ، والثالث تنزّههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى أمّا العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله الذي هو محيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال : « وما أوْتِيتُمْ من العلم إلا قليلاً » ^(١) ولو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلقة نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشيره ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، و القدرة اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه إياهم علموه كما قال تعالى : « خلق الإنسان » علمه البيان ^(٢) فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، فعلموا العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما بتفاصيل معيشته و

التفاوت بين علم الله وعلم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلق وأجهلهم لأنَّ الأَعلم لا يَفضل إلَّا بعلوم معدودة متناهية يتصوَّر في الإمكان أن ينالها الأَجهل بالكسب والاجتهاد ، و فضل علم الله على علوم الخلائق كلَّهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية ، وأمَّا صفة القدرة فهي أيضاً كمال والعجز نقص وكلُّ كمال وبهاء وعظمة وقهر ومجد واستيلاء فإنَّه محبوبٌ وإدراكه لذيدٌ حتَّى أنَّ الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة عليٍّ وغيره من الشجعان وقدرتهم واستيلاءهما على الأقران فيصادف من قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حباً ضرورياً للمتَّصف به فإنَّه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلَّهم إلى قدرة الله عزَّ وجلَّ فأعظم الأشخاص قوَّة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره فإنَّه ينتهي قدرته ، وإنَّما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنسان في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا نفعاً ولا ضرراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عدٍّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره ممَّا هو على الجملة متعلِّق قدرته فضلاً عمَّا لاتعلِّق به قدرته من ملكوت السماوات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرَّة منها وما هو قادرٌ عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه و بنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكَّن له من ذلك ، ولو سلَّط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة إلَّا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملك من ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال : « إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ » ^(١) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلَّا بتمكين الله عزَّ وجلَّ إيَّاه في جزء من الأرض والأرض كلَّها مدرة بالاضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض

غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله وتمكينه فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله لقدرته وسياسته وتمكّنه واستيلائه وكمال قوّته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا قوياً غيره ، فليس أحد قدرته من نفسه بل لا حول لأحد ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ، فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السماوات مطويات بيمينه والأرض وما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلّكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملّكه ذرّة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرّة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر واستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحبّ قادرٌ لكمال قدرته فلا يستحقّ الحبّ بكمال القدرة سواء أصلاً ، وأمّا صفة التزّه عن العيوب والنقائص والتقديس على الرذائل والخبائث فهو أحد هوجبات الحبّ ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والانبيا ، والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتزّه إلا الذي الجلال والإكرام وأمّا كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخّراً مضطراً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده فليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقلّ درجاته أن لا يكون عبداً مسخّراً لغيره وقائماً بغيره وذلك محال في حق الله فهو المتفرّد بالكمال المتنزّه عن النقص المقدّس عن العيوب وشرح ذلك التقديس والتزّه في حقّه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذلك ، فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتمّ حقيقته إلا له وكمال غيره وتنزّهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصاً كما أن للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار ، ولإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل لكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الله الواحد الذي لا ند له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا أراداً لحكمه ولا معقب

لقضائه، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولا تنفكت عن سطوته ويطشه رقاب القياصرة، الأزلي الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه، الواجب الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، جبار الأرض والسماوات، خالق الجماد والحيوان والنبات، المتفرد بالعزة والجبروت، المتوحد بالملك والمملوك ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس عن وصفه الألسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيّد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين «أنت كما أثبتت على نفسك لا أحصى ثناء عليك» (١).

أقول: وقال سيّد الأوصياء: «العجز عن درك الإدراك إدراك» (٢) وقال سيّد الساجدين «سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته» (٣). قال أبو حامد: فليت شعري من ينكر إمكان حبّ الله عزّ وجلّ تحقيقاً و يجعله مجازاً أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها، أو ينكر كون الجمال والجلال والكمال والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه، فسبحان من احتجب عن أبصار العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطّلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون، يعلمون ظاهراً من الحياء الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، فالحبّ بهذا السبب أقوى من الحبّ بالاحسان لأنّ الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود أن «أودّ الأوداء إليّ من عبدني بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها». وفي الزبور من أظلم

(١) تقدم كراداً عن الترمذى وغيره .

(٢) ما عثرت على أصل له . (٣) فى مناجات العارفين من المناجات الخمسة عشر .

مَنْ عِبَدَنِي لِحَنَّةٍ أَوْ نَارٍ ، لَوْلَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَاراً أَلَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أُطَاعَ . وَمَرُّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْعِبَادِ قَدْ نَحَلُوا فَقَالَ : مَا أَنْحَلَكُمْ قَالُوا : نَخَافُ النَّارَ وَنَرْجُو الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُمْ : مَخْلُوقًا خَفْتُمْ وَمَخْلُوقًا رَجَوْتُمْ ، وَ مَرُّ بِقَوْمٍ آخَرِينَ كَذَلِكَ فَقَالُوا : نَعْبُدُهُ حُبًّا لَهُ وَتَعْظِيمًا لِعِجَالِهِ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقًّا مَعَكُمْ أُمِرْتُ أَنْ أُقِيمَ . وَ فِي الْخَبَرِ « لَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ وَلَا كَالْأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَعْطَ لَمْ يَعْمَلْ » (١) .

وَأَمَّا السَّبَبُ الْخَامِسُ لِلْحُبِّ فَهُوَ الْمُنَاسَبَةُ وَالْمَشَاكَلَةُ إِذْ شَبَّهَ الشَّيْءَ مِنْجَذِبٍ إِلَيْهِ وَ الشَّكْلَ إِلَى الشَّكْلِ أَمِيلٌ وَلِذَلِكَ تَرَى الصَّبِيَّ يَأْلَفُ الصَّبِيَّ وَ الْكَبِيرَ يَأْلَفُ الْكَبِيرَ وَيَأْلَفُ الطَّيْرُ نَوْعَهُ وَيَنْفَرُ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهِ ، وَ الْإِنْسُ الْعَالَمُ بِالْعَالَمِ أَكْثَرُ مِنْهُ بِالْمَحْتَرَفِ وَ أَلْفُ التَّاجِرِ بِالتَّاجِرِ وَ أُنْسُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أُنْسِهِ بِالْفَلَّاحِ وَ هَذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ بِهِ التَّجَرُّبَةُ وَ تَشْهَدُ لَهُ الْأَخْبَارُ وَ الْأَثَارُ كَمَا اسْتَقْصَيْنَاهُ فِي بَابِ الْأَخْوَةِ فِي اللَّهِ مِنْ كِتَابِ آدَابِ الصَّحْبَةِ فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ ، وَإِذَا كَانَتْ الْمُنَاسَبَةُ سَبَبَ الْمَحَبَّةِ فَالْمُنَاسَبَةُ قَدْ تَكُونُ فِي مَعْنَى ظَاهِرٍ كَمُنَاسَبَةِ الصَّبِيِّ لِلصَّبِيِّ فِي مَعْنَى الصَّبِيِّ وَقَدْ تَكُونُ خَفِيًّا بِحَيْثُ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ كَمَا تَرَى مِنَ الْإِتِّحَادِ الَّذِي يَتَّفَقُ بَيْنَ شَخْصَيْنِ مِنْ غَيْرِ مِلَاحَظَةٍ جَمَالٍ أَوْ طَمَعٍ فِي مَالٍ أَوْ غَيْرِهِ كَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِ إِذْ قَالَ : « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مِجْنَدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَ مَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » (٢) وَ التَّعَارُفُ هُوَ التَّنَاسُبُ وَ التَّنَافَرُ هُوَ التَّبَايُنُ ، وَ هَذَا السَّبَبُ أَيْضًا يَقْتَضِي حُبَّ اللَّهِ الْمُنَاسَبَةَ بَاطِنَةً لَا تَرْجِعُ إِلَى الْمِثَالَةِ فِي الصُّورَةِ وَالْأَشْكَالِ بَلْ إِلَى مَعَانٍ بَاطِنَةٍ يَجُوزُ أَنْ يَذْكَرَ بَعْضُهَا فِي الْكِتَابِ وَ بَعْضُهَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْطَرَّ بَلْ يَتْرَكَ تَحْتَ غَطَاءِ الْغُبْرَةِ حَتَّى يَعْثُرَ عَلَيْهِ السَّالِكُونَ لِلطَّرِيقِ إِذَا اسْتَكْمَلُوا شُرُوطَ السَّلُوكِ فَالَّذِي يَذْكَرُ هُوَ قَرَبُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الصِّفَاتِ الَّتِي أَمَرَ فِيهَا بِالْإِقْتِدَاءِ وَ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى قِيلَ : تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ ، وَ ذَلِكَ فِي اكْتِسَابِ مَحَامِدِ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْعِلْمِ وَ الْبِرِّ وَ الْإِحْسَانِ وَ

(١) قَالَ الْعِرَاقِيُّ : لَمْ أَجِدْ لَهُ أَصْلًا .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ج ٨ ص ٤١ وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَرَارًا .

اللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرب إلى الله عز وجل لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يومي إليها قوله تعالى : «و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» (١) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق ، ويشير إليه قوله تعالى : « إنني جاعل في الأرض خليفة » (٢) إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله ﷺ «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) حتى ظن القاصرون أن لاصورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً وإليه الإشارة بقوله لبعض الأنبياء ، وفي نسخة لموسى ﷺ : « مرضت فلم تعدني فقال : يا رب وكيف ذلك ؟ قال : مرض فلان فلم تعده ، ولو عدته لوجدتني عنده » (٤) وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض ، قال الله عز وجل : « ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » (٥) وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين ما لوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم : أنا الحق . فضل النصارى في عيسى ﷺ وقالوا هو الإله ، وقال آخرون منهم : تدرع الناسوت باللاهوت ، وقال آخرون : اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الحلول والاتحاد واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقليون فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملتها متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً وفي أعلى الدرجات لاني أدناها فكان المعقول المقبول هو حب الله تعالى فقط عند ذوي -

(٢) البقرة : ٢٩ .

(١) الاسراء : ٨٥ .

(٤) تقدم أيضاً .

(٣) تقدم غير مرة .

(٥) تقدم عن البخارى في الصحيح والكلىنى فى الكافى ج ٢ ص ٣٥٢ .

البصائر كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط، ثم كل من يحب واحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغيض من كماله ولا يتفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا في حق الله فإنه موصوف بهذه الأوصاف التي هي غاية الجمال والكمال ولا شريك له فيه وجوداً ولا يتصور أن يكون ذلك إمكاناً فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذ الأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

﴿بيان أن أجل اللذات وأعلاهم معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم﴾
 ﴿وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة﴾

إعلم أن اللذات تابعة للإدراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها بمقتضى طبعها التي خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان هزلاً بل خلقت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب خلقت للشفقة والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها، وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء الذي هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والاستنشاق فلا يخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه» (١) وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإن الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظنون أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف أبداً يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا

محسوسة كما إدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق مدبر حكيم موصوف بصفات الإلهية ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه من ذمه وإلا فالصفة التي بها فارق الإنسان البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعزّ الصفات فلا ينبغي أن يذمّ وهذه الغريزة خلقت فيه ليعلم بها حقائق الأمور كلّها فمقتضي طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى طبع سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذّة حتّى أن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به وحتّى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدّح به في الأشياء الحقيرة فالعالم باللّعب بالشطرنج على خسة لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطق لسانه بذكر ما يعلمه وكلّ ذلك لفرط لذّة العلم وما يستشعره من كمال ذاته فإن العلم من أخصّ صفات الرّبّوبية وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا اُثني عليه بالذكاء و غزارة العلم لأنّه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذّ به ، ثمّ ليست لذّة العلم بالحرارة والحياة والخيطة كلذّة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الخلق ولذّة العلم بالنحو والشعر كلذّة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذّة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتّى أن الذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجده لذّة وإن جهله يتقاضاه طبعه أن يتفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألدّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمر الوزارة فهي أشهى عنده وألدّ من علمه بأسرار الرّئيس ، وإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألدّ من علمه بباطن أمر الوزير وكان يمدحه بذلك وحرصه على البحث عنه أشدّ وحبّه له أكثر لأنّ لذّته فيه أعظم فهذا يستبان أن ألدّ المعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان في المعلومات ما هو

الأجلُّ والأَكملُّ والأشرفُّ والأعظمُّ فالعلمُ به الذِّةُ العلومُ لا محالةً وأشرفها وأطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء أجملُّ وأعلىُّ وأشرفُّ وأَكملُّ من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزيئها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والبهاء والجمال والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فإن كنت لا تشكُّ في ذلك فلا ينبغي أن تشكَّ في أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والإطلاعات والذِّة وأطيبها وأشهاها وأحرى ما يشتهي النفوس الاتِّصاف بكمالها وجلالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا يتبين أن العلم لذيد وأن الذِّة العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتديره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرض فينبغي أن يعلم أن لذِّة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذِّة الشهوة والغضب ولذِّة سائر الحواس الخمس فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً كمخالفة لذِّة الوقاع لذِّة السماع ولذِّة المعرفة لذِّة الرئاسة وهي مختلفة بالضعف والقوَّة كمخالفة لذِّة الشبق المغتلم من الجماع بالإضافة إلى لذِّة الفاتر للشهوة ومخالفة لذِّة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال بالإضافة إلى ما دونه في الجمال ، وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فإن المخيرين النظر إلى صورة جميلة والتمتُّع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصور الملاح علم به أن الصور الجميلة عنده الذِّة من روائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمرَّ اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذِّة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذِّة الأكل ، فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذِّة الحواس الخمس وإلى باطنة كلذِّة الرئاسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذات للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا لللمس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذِّة الهريسة و

الدجاج المسمن واللوزينج وبين لذّة الرّئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميّت القلب شديد النهمة اختار الهريسة والحلاوة وإن كان عليّ الهمة كامل العقل اختار الرّئاسة و هان عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً كثيرة فاخياره للرّئاسة يدلّ على أنّها ألذّ عنده من الهريسة و المطعومات الطيّبة ، نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذّة المطعومات على لذّة الرّئاسة وكما أنّ لذّة الرّئاسة و الكرامة أغلب اللذّات على من جاوز نقصان الصبي والعته فلذّة معرفة الله تعالى و مطالعة جمال الحضرة الرّبوبية و النظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذّ من الرّئاسة التي هي أعلى اللذّات الغالبة على الخلق ، و غاية العبارة عنه أن يقال : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين » و أنّه أعدّ لهم ما لا عين رأت و لا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا لا يعرفه إلّا من ذاق اللذّتين جميعاً فإنّه لا محالة يؤثر التبتّل و التفرّد و الفكر و الذّكر ، وينغمس في بحار المعرفة و يترك الرّئاسة و يستحقّر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته و كونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصوّر الخلوّ عنها و كونه مقطوعاً بالموت الذي لا بدّ من إتيانه مهما « أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاهم أمرنا - الآية »^(١) فيستعظم بالإضافة إليه لذّة معرفة الله تعالى و مطالعة صفاته و أفعاله و نظام مملكته من أعلى عليّين إلى أسفل السافلين ، فإنّها خالية عن المزااحمات و المكدرات ، متّسعة للمتواردين عليها ، لا يضيق عنهم بكثرتهم دائماً و إنّما عرضها من حيث التقدير السماوات و الأرض ، و إذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنّة عرضها السماوات و الأرض ، يرتع في رياضها و يكرع في حياضها و يقطف من ثمارها و هو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنّة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محلّ معرفة الله تعالى إذ محلّها الرّوح الذي هو أمر ربّانيّ

سماوي وإِنَّمَا الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها و عوائقها و يخلّصها من حبسها فأما أن يعدمها فلا قال الله تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون » فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية » (١) ولا تظننّ أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإنّ للعارف بكلّ نفس درجة ألف شهيد ، و في الخبر « إنّ الشهيد يتمنّى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرّة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة و أنّ الشهداء يتمنّون لو كانوا علماء لما يرون من علوّ درجة العلماء » (٢) فإنّ جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان للعارف يتبوّء منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك فيها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنّة عرضها السماوات والأرض وكلّ عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنّهم يتفاوتون في سعة متنزّهاتهم بقدر تفاوتهم في اتّساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أنّ لذّة الرّئاسة وهي باطنة أقوى عند ذوي الكمال من لذّات الحواسّ كلّها ، و أنّ هذه اللذّة لا تكون لبهيمة ولا لصبيّ ولا لمعتوه و إنّ لذّة المحسوسات و الشهوات تكون لذوي الكمال مع لذّة الرّئاسة ولكن يؤثرون الرّئاسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته و أفعاله و ملكوت سماواته و أسرار ملكه أعظم لذّة من الرّئاسة فهذا يختصّ بمعرفة من نال رتبة المعرفة و ذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأنّ القلب معدن هذه القوّة كما أنّه لا يثبت رجحان لذّة الوقاع على لذّة اللّعب بالوصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذّة شمّ البنفسج عند العنّين لأنّه قد فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذّة ، ولكن من سلم من آفة العنة و سلم حاسّة شمّه أدرك التفاوت بين اللذّتين و عندهذا لا يبقى إلّا أن يقال : من ذاق عرف ، و لعمرى أن طالّب العلوم وإن لم يشغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهيّة فقد استنشقوا رائحة هذه اللذّة عند انكشاف المشكلات و انحلال الشبهات

(١) آل عمران : ١٦٣ و ١٦٤ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

التي قوي حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقدا انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتمجّب من نفسه في ثباته واحتماله لتموّة فرحه وسروره وهذا ممّا لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى ، فهذا القدر ينبّهك على أن معرفة الله سبحانه ألدّ الأشياء وأنه لا لذّة فوقها ، ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غداً مشغول بربه . وقيل لرابعة : ما حقيقة إيمانك قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا رجاء لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه ، وقالت في معنى المحبة نظماً :

أحبّك حبّين حبّ الهوى ☆ و حبّاً لأنك أهل لذا
فأما الذي هو حبّ الهوى ☆ فشغلي بذكرك عمّن سوا
و أما الذي أنت أهل له ☆ فكشفك لي الحجب حتّى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ☆ ولكن لك الحمد في ذا وذا

ولعلّها أرادت بحبّ الهوى حبّ الله تعالى لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبحبّها لما هو أهل له الحبّ لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبّين وأقواهما ولذّة مطالعة جمال الرّبّوبية هي التي عبّر عنها بالشوق حيث قال : حاكياً عن ربّه تعالى : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ^(١) وقد يتعجّل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنني لأقول : يا ربّ يا الله فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال لأنّ النداء يكون من وراء حجاب و هل رأيت جليساً ينادي جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرّجل في هذا العلم الغاية رماء الخلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً وكفراً ، فمقصد العارفين كلّهم وصله ولقاؤه

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ١٤٣ من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فهي قرّة العين التي لاتعلم نفس ما أخفي لها منها ، و إذا حصلت انمحقت الهموم و الشهوات كلّها فصار القلب مستغرقاً بنعيمها فلو أُلقي في النار لم يحسّ بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه ، لكمال نعيمه و بلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، وليت شعري من لا يفهم إلاّ حبّ المحسوسات كيف يؤمن بلذّة النظر إلى وجه الله تعالى وما له شبه و صورة و شكل ، وأي معنى لو عد الله تعالى به عباده و ذكره أنّه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة كلّها تنطوي تحت هذه اللذّة كما قال بعضهم :

كانت لقلبي أهواء مفرقة ☆ فاستجمعت مذراتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ☆ فصرت مولى الورى منذرت مولائي
تركت للناس دنياهم و دينهم ☆ شغلاً بذكرك يا ديني و دنياي

و لذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ، و وصله أطيب من جنته . و ما أرادوا بهذا إلاّ إثارة لذّة القلب في معرفة الله تعالى على لذّة الأكل و الشرب و النكاح فإنّ الجنة معدن تمتّع الحواسّ فأما القلب فلذّته في لقاء الله عزّ و جلّ فقط ، و مثال أطوار الخلق في لذّاتهم ما نذكره و هو أنّ الصبيّ في أوّل حر كته و تمييزه تظهر فيه غريزة بها يستلذّ اللّعب و اللّهو حتّى يكون ذلك عنده لذّة من سائر الأشياء ثمّ تظهر بعده لذّة الزينة و لبس الثياب و ركوب الدوابّ فيستحقر معها لذّة اللّعب ثمّ تظهر بعده لذّة الوقاع و شهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثمّ تظهر له لذّة الرّئاسة و العلوّ و النكاث و هي أحبّ لذّات الدّنيا و أغلبها و أقواها كما قال : « إعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر - الآية » (١) ثمّ بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذّة معرفة الله تعالى و معرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها و كلّ متأخّر فهو أقوى و هذا هو الأخير إذ يظهر حبّ اللّعب في سنّ الصبيّ و حبّ الزينة في سنّ التمييز و حبّ النساء في سنّ البلوغ و حبّ الرّئاسة بعد العشرين و حبّ العلوم بقرب الأربعين و هي الغاية العليا و كما أنّ

الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشغل بمعرفة الله تعالى و العارفون يقولون « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون » .

﴿ بيان السبب في زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ﴾

إعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور المختلفة المتخيّلة و الأجسام المتلوّنة المتشكّلة في أشخاص الحيوان و النبات ، و إلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله سبحانه و كل ما ليس بجسم كالعلم و القدرة و الإرادة وغيرها و من رأي إنساناً ثم غضّ بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين و أبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيّلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح و الكشف فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتمّ انكشافاً و وضوحاً وهو كشخص يرى في وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رأي بعد تمام الضوء فإنه لا يفارق إحدى الحاليتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف فاذن الخيال أوّل الإدراك و الرؤية هي الاستكمال لا إدراك الخيال وهي غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية ، وإذا فهمت هذا في المتخيّلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكّل في الخيال أيضاً لمعرفتها وإدراكها درجتان أحدهما أولى والثانية استكمال لها و بين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف و الإيضاح ما بين المتخيّل و المرئي فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوّل مشاهدة ولقاء و رؤية و هذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف و كما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطابق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر و المرئي و لابد من ارتفاع الحجاب لحصول الرؤية و ما لم يرتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن و مقتضى الشهوات و ما غلب عليها من الصفات البشريّة فإنها لا تنتهي إلى

المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى موسى عليه السلام: «لن تراني»^(١) وقال تعالى: «لا تدركه الأبصار»^(٢) أي في الدنيا . والصحيح أن النبي ﷺ «ما رأى الله عز وجل ليلة المعراج»^(٣).

أقول: بل التحقيق أنه لا فرق في الرؤية بين الدنيا والآخرة فكما أنه لا يجوز رؤيته سبحانه في الدنيا بالعين والبصر فكذلك لا يجوز رؤيته في الآخرة بالعين والبصر، وكما أنه يجوز رؤيته في الآخرة بالقلب والبصيرة لأهل البصائر أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث يتأدّى إلى المشاهدة واللقاء كذلك يجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون البدن ، فإن أولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومتصرفاتهم ليلاً ونهاراً كما قال تعالى: «والشهداء عند ربهم»^(٤) وقال: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم»^(٥) وقال: «الآمن شهد بالحق وهم يعلمون»^(٦) فسمّاهم شهداء لمشاهدتهم له في جميع أحوالهم كما ذكر بقوله: «فأينما تولّوا فثم وجه الله»^(٧) وقال: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»^(٨) وقال: «ما يكون من نجوى ثلاثة - الآية»^(٩) وقال: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»^(١٠) فلمّا تحقق أولياء الله بمعاني هذه الآيات شاهدوه بأعين قلوبهم ، سئل أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره ، قيل: وكيف رأيت؟ قال: ويلك

(١) الاعراف : ١٤٠ . (٢) الانعام : ١٠٣ .

(٣) قال العراقي : هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين أنها قالت

« من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب » .

(٤) الحديد : ١٩ . (٥) آل عمران : ١٦ .

(٦) الزخرف : ٨٦ . (٧) البقرة : ١١٠ .

(٨) الحديد : ٣ . (٩) المجادلة : ٨ .

(١٠) ق : ١٦ .

لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان» (١) و قال ابنه الحسين سيّد الشهداء: «كيف يستدلّ عليك بما هوفي وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك ، عميت عين لا تراك ولا تزال عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً» وقال أيضاً «تعرفت لكلّ شيء فما جهلك شيء» وقال : «تعرفت إليّ في كلّ شيء» (٢) إلى غير ذلك ممّا ورد عنهم عليهم السلام في هذا المعنى ، نعم يمكن أن ينشأ الانكشاف في الآخرة بقدر زيادة صفاء القلوب و زكائها .

قال أبو حامد : فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكليّة وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليها الخبث و الصدا فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل إلا صلاح و التصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربّهم أبد الآباد نعوذ بالله منه ، ومنها ما لم ينته إلى حدّ الرّين و الطبع و لم يخرج عن قبول التزكية و التصقيل فيعرض على النار عرضاً يجمع منها الخبث الذي هو متدنّس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية و أقلّها لحظة خفيفة و أقصاها في حقّ المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ولم ترتحل نفس عن هذا العالم إلّا و تصحبها غبرة و كدورة ما و إن قلت ، و لذلك قال تعالى : « و إن منكم إلّا واردةا كان على ربّك حتماً مقضياً » ثمّ ننجي الذين اتّقوا و نذر الظالمين فيها جثيّاً» (٣) فكلّ نفس مستيقنة الورد على النار و غير مستيقنة الصدور عنها فإذا أكمل الله عزّ وجلّ تطهيرها و تزكيتها و بلغ الكتاب أجله و وقع الفراغ عن جملة ما ورد به الشرع من العرض و الحساب و غيره و كان له استحقاق الجنّة و ذلك وقت مبهم لم يطّلع الله عليه أحداً من خلقه

(١) الكافي ج ١ ص ٩٧ تحت رقم ٦ .

(٢) راجع دعاءه عليه السلام في يوم عرفة في كتاب اقبال الاعمال للسيد بن الطاوس (ره) .

(٣) مريم : ٧٢ و ٧٣ .

فإنه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يستشغل بصفائه و نقائه عن الكدورات حيث لا ترهق وجهه غبرة ولا فترة لأن يتجلى فيه الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالاضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرأة بالاضافة إلى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور وخصوص بجهة و مكان فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر و تقدير شكل و صورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح و تنقلب مشاهدة و لا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا المثال في استكمال الخيال بالرؤية فالذي يمكن في معرفة الله إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة لأنها بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف ، و على الجملة فالله سبحانه بذاته و جميع صفاته كما وصفه في كتابه و أخبر عنه نبيه منزّه مقدّس عن الشبه والمثل و مشاكلة رسوم الحدّثان ، لا يشبه ذاته سائر الدّوات ولا صفاته جميع الصفات وأنّى يشبهه ربّ أزلّي حيّ قيّوم أبديّ فردّ وترّ أحديّ لم يزل متّصفاً بصفاته العليا متسمياً بأسمائه الحسنى إلهاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً و من أين يماثل مخلوقاً عاجزاً محدثاً مكوّنناً لم يكن في الأصل شيئاً فخلقه بقدرته وأنشأه كما شاء بحكمته ، وأحدث فيه صفات ناقصة متزلزلة غير مستقيمة فوكل به أنواع الآفات و فنون النقائص والعاهات من البلايا المتنوّعة والفتن والمحن المتفنّنة كالجوع والعطش والغلق والشبق والحيرة والضجر والقلق والأدواء والأمراض والعلل والأسقام إلى ما لا يتناهى ثم أرهقه ورود هورد الملمات وجرحه مرادة كؤوس الوفاة . وجعله على أثر ذلك رهين الجحد والتراب إلى وقت العرض والحساب ، ثم يبعثه في يوم يكلّ اللسان عن وصف أحواله ، ويعجز

البيان دون حصر أحواله لمواقف ومقامات يفرغ عنها معشر الصديقين والأولياء بل خيار الرسل والأنبياء ، وهلمَّ جرَّاً إلى أن يسكنه بحبوحه الجنان مع الروح و الروح يحان والرَّاحة والرَّضوان أو يجبسه في حصير جهنم وأركان النيران بالخزي والهوان والشقاء والخذلان ، فليت شعري من أين يتصور رهننا مماثلة أو كيف يمكن بين خالق وصفناه ومخلوق ذكرناه مشاكلة عند غمر غافل وسفيه جاهل فضلاً عن ذوي العقول وأرباب الأبواب تعالى الله عما يقول الظالمون والمشركون والمشبَّهة والممثلة والمعطلون علواً كبيراً .

نعم اقتضت الحكمة الأزليَّة والإرادة الأحيَّة الإيجاد والإبداع والإنشاء والاختراع فأنشأ أصناف الخليقة وأوجد أنواع البريَّة على وفق مراده ومشيتته دون سابقة مثال في تكوين الكون وفطرته وقسم إذ ذاك بني آدم من بينهم قسمين وذراًهم من قبل الطاعة والمعصية فرقتين أشقياء وسعداء ومهتدين وأغوياء فنوَّ رَأهل السعادة في هذه الحياة بنور المعرفة والإيمان وترك أهل الشقاوة في غمرات ظلمة الكفر والطغيان ثمَّ غدا في دار البقاء ومقام الرُّؤية واللقاء يتمُّ لهم ذلك النور الضياء وإليه الإشارة بقوله تعالى : « نورهم يسعَى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربِّنا أتمم لنا نورنا » (١) إذ تمام النور لا يؤثر إلَّا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة الرُّؤية والنظر إلَّا العارفون في الدُّنيا لأنَّ المعرفة هي البذر التي تنقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل ومن لم يزرع البذر كيف يحصل الزرع وكذلك من لم يعرف الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا فكيف يراه في الآخرة ، ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلِّي أيضاً على درجات متفاوتة فاختلاف التجلِّي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وريتها وقوتها وضعفها وكما أنك ترى في الدُّنيا من يؤثر لذَّة الرُّئاسة على المنكوح والمطعم وترى من يؤثر لذَّة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السماوات والأرض وسائر الأمور الإلهيَّة

على الرّئاسة وعلى المنكوح والمشروب جميعاً فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذّة
النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنّة إذ يرجع نعيمها إلى المنكوح والمطعموم و
هؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدّنيا ما وصفنا من إثارة لذّة المعرفة والعلم والإطلاّع
على أسرار الرّب بويّسة على لذّة المنكوح والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ، و
لذلك لمّا قيل لرابعة : ما تقولين في الجنّة ؟ فقالت : الجار ، ثمّ الدّار . فبيّنت أنّه
ليس في قلبها التفات إلى الجنّة بل إلى ربّ الجنّة فكلّ من لم يعرف الله عزّ وجلّ
في الدّنيا فلا يراه في الآخرة وكلّ من لم يجد لذّة المعرفة في الدّنيا فلا يجد لذّة
النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدّنيا فلا يحصد
أحد إلّا ما زرع ولا يحشر المرء إلّا على ما مات عليه ولا يموت إلّا على ما عاش عليه
فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط إلّا أنّه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء
فتتضاعف اللذّة به كما تتضاعف لذّة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية
صورته فإنّ ذلك هو منتهى لذّته وإنّما طيبة الجنّة أنّ لكلّ واحد فيها ما يشتهي
فمن لا يشتهي إلّا لقاء الله عزّ وجلّ فلا لذّة له في غيره بل ربّما يتأدّى به فإذن نعيم
الجنّة بقدر حبّ الله تعالى وحبّ الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة
التي عبّر الشرع عنها بالإيمان ، فإن قلت : فلذّة الرؤية إن كانت لها نسبة إلى الذّة
المعرفة فهي قليلة وإن كانت أضعافها لأنّ لذّة المعرفة في الدّنيا ضعيفة فتضاعفها إلى
حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقّر في جنبه سائر لذّات الجنّة ، فاعلم
أنّ هذا الاستحقار للذّة المعرفة مصدره الخلو عن المعرفة فمن خلّاعن المعرفة كيف
يدرك لذّتها وإن اطّوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدّنيا فكيف يدرك
لذّتها فللمعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عزّ وجلّ لذّات لو عرضت عليهم
الجنّة في الدّنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذّة الجنّة ثمّ هذه اللذّة مع كماليها لا
نسبة لها أصلاً إلى لذّة اللّقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذّة خيال المعشوق إلى رؤيته
ولا للذّة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ولا للذّة اللمس باليد إلى لذّة
الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلّا بضرب مثال فنقول : لذّة النظر إلى

وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها جمال المعشوق و نقصانه فإنّ اللذة في النظر إلى الأجل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوة الحبّ والشهوة والعشق فليست لذّة من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبّه . والثالث كمال الإدراك فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا إدراك لذّة المضاجعة مع ثوب حائل كما دراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المدعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهمهم من المهمات فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب و زنابير تؤذيه وتلدغه و تشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو من لذّة ممّا من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك به الستر وأشرق به الضوء و اندفع عنه المؤذيات وبقي سليماً فارغاً وهجمت عليه الشهوة القويّة والعشق المفرط حتّى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذّة حتّى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها ، وكذلك فافهم نسبة لذّة النظر إلى لذّة المعرفة فالستر الرقيق مثال للبدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال للشهوات المسيطرة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغمّ والحزن ، وضعف الشهوة والحبّ مثال لقصور النفس في الدنيا و نقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى وإلتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبّي عن ملاحظة لذّة الرّئاسة وإلتفاتة إلى اللّعب بالعصفور ، فالعارف إن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوّشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتّة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يدهش العقل ويعظم لذّته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلّما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه الضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذّة منغصة إلى الموت وإنّما الحيوة الطيّبة بعد الموت وإنّما العيش عيش الآخرة فإنّ الدار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله عز وجل فيجب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة بالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له ولا حاطة بكنهه جلال الله محال وكلما كثرت المعرفة بالله عز وجل وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ولا زرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة، ولذلك قال النبي ﷺ: «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله عز وجل»^(١) لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على الذكر وطول المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعي ذلك زماناً لا محالة فمن أحب الموت أحبته لا محالة لا تدرأى نفسه واثقاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يأمل مزيد معرفة يحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصراً عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبّه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت اختاروا البقاء وإن ضاقت تمنّوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة ، فالجهل والغفلة مغرس كل خطيئة وشقاوة ، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة ، فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القويّة ، ومعنى لذّة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى كونها لذّة من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وإن لم يكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرثاسة لذّة من المطعومات والملاعب عند الصبيان .

فإن قلت : فهذه الرؤية محلّها العين أو القلب في الآخرة ، فاعلم أن الناس اختلفوا فيه وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى ذلك ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقة يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى

(١) رواء القضاء في الشهاب والدبلى في الفردوس من حديث ابن عمر ، هكذا

« السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » وسنده حسن كما في الجامع الصغير .

أن رؤيته تخلق في عينه أوفي جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء بالعين أو غيرها فإن العين محل وظرف لانظر إليه ولا حكم له و الحق فيه أن القدرة الأزليّة واسعة فلا يحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين هذا في حكم الجواز ، وأمّا الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع والحق ما ظهر لأهل السنّة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهرها إذ لا يجوز إزالة الظاهر إلا بضرورة ، والله أعلم .

أقول: بل الحق فيهما أشرنا إليه وصحّت روايته عن أهل البيت عليهم السلام العارفين بأسرار النبوة الذين هم مهابط الوحي ومختلف الملائكة وهو أن ذلك إنّما يكون بالقلب فحسب دون العين وأن رؤية العين في حق الله تعالى محال سواء في الدنيا والآخرة ، روى شيخنا ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني رحمه الله ^(١) وشيخنا الصدوق محمد بن علي بن بابويه طاب ثراه ^(٢) بإسنادهما الصحيح ، عن الصادق عليه السلام أنه سئل عما يروون من الرؤية فقال : « الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، و الكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب . »

و بإسنادهما عن أحمد بن إسحاق قال : « كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ، فكتب « لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفضه البصر فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية و كان في ذلك الاشتباه لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات . » و بإسناد الصدوق رحمه الله - عن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام قال : قلت له : « أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم و قد رأوه قبل يوم القيامة ، فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألسنت بربكم قالوا : بلى ، ثم سكنت

(١) راجع الكافي ج ١ باب ابطال الرؤية .

(٢) راجع التوحيد باب ماجاء في الرؤية .

ساعة ، ثم قال : وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ألتست تراه في وقتك هذا ، قال أبو بصير : فقلت له : جعلت فداك فأحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا فأنك إذا حدثت به فأنكره منكراً جاهلاً بمعنى ما تقول ثم قد رأن ذلك تشبيه وكفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والمليحدون .

﴿ بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ﴾

إعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله فإن الآخرة معناها القدوم على الله عز وجل ودرء سعادة لقاءه وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكّن من دوام مشاهدته أبداً من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة وإنما يكتسب العبد حب الله عز وجل في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمّى عشقاً فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فإن القلب مثل الإنا الذي لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الإنا ينقص من الخل المصبوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » (١) وبقوله « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » (٢) بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله » أي لا معبود ولا محبوب سواه ، وكل محبوب فإنّه معبود فإن العبد هو المتعبّد والمعبود هو المتعبّد له وكل محب فهو يعبد لما يحبه ولذلك قال تعالى : « أفرأيت

من اتخذ إلهه هواه^(١) وقال ﷺ: «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»^(٢) ولذلك قال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»^(٣) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله عز وجل فلا يبقى فيه شراكة لغير الله فيكون الله محبوب قلبه و معبود قلبه و مقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له عن مشاهدة محبوبه و موته خلاص من السجن و قدوم على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد و قد طال إليه شوقه و تمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب و روح بالأنس أبد الآباد ، فإذن أحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا و منه حب الأهل و المال و الولد و الأقارب و العقار و الدواب و البساتين و المتنزهات حتى أن المنقرج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأشجار ملتفت إلى نعيم الدنيا و متعرض لنقصان حب الله بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا ينقص أنسه بالله فلا يؤتى أحد شيئاً من الدنيا إلا و ينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا و يبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأة إلا و يضيق به قلب زوجها فالدنيا و الآخرة ضربتان و هما كالمشرق و المغرب ، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الابصار بالعين و سبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد و ملازمة الصبر و الانقياد إليهما بزمam الخوف و الرجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة و الصبر و الزهد و الخوف و الرجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة و هو تخلية القلب عن غير الله و أوّله الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجنة و النار ، ثم يتشعب منه الخوف و الرجاء و ينشعب منهما التوبة و الصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا و في المال و الجاه و كل حظوظ الدنيا حتى تحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله عز وجل و حبه فيه و كل ذلك مقدّمات تطهير

(١) الجانية : ٢٢ .

(٢) أخرجه الطبراني على ما في كنوز الحقائق هكذا «أبغض إله عبد عند الله في الأرض الهوى» .

(٣) رواء الصدوق في التوحيد باب نواب الموحدين والعارفين .

القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله ﷺ : «الطهور شرط الإيمان»^(١) كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة .

السبب الثاني : لقوّة المحبة قوّة معرفة الله واتّساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها وذلك يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ، ثم يتولّد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال : ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء»^(٢) وإليها الإشارة بقوله تعالى : «إليه يصعد الكلم الطيب (أي المعرفة) والعمل الصالح يرفعه»^(٣) فالعمل الصالح كالحمال لها كالخادم وإنّما العمل الصالح كلّهُ في تطهير القلب أوّلاً من الدنيا ثمّ في إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلّا لهذه المعرفة وأمّا العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر وإنّما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتّضح فيه جليلة الحقّ ويتزيّن بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبة بالضرورة كما أنّ من كان معتدلاً المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تتبع المحبة بالضرورة والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلّا بالفكر الصافي والدّكر الدائم والجدّ البالغ في الطلب والنظر المستمرّ في الله وفي صفاته وملكوت سماواته وسائر مخلوقاته ، والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى أقوياء ويكون أوّل معرفتهم بالله تعالى ثمّ به يعرفون غيره وإلى ضعفاء فيكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثمّ يترقّون منها إلى الفاعل وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى : «أو لم يكف بربك أنّه على كلّ شيء شهيد»^(٤) وبقوله :

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٤٠ وقد تقدم .

(٢) فاطر : ١١ .

(٣) إبراهيم : ٢٩ .

(٤) فصلت : ٥٣ .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو » (١) و منه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربِّي برَّبِّي ، ولولا ربِّي لما عرفت ربِّي ، وإلى الثاني الإشارة بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » (٢) وبقوله : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » (٣) وبقوله : « قل انظروا ما ذا في السماوات والأرض » (٤) وبقوله : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (٥) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبُّر والتذكُّر والتفكُّر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكلٌ فأوضح لنا منهما ما يتوصل به إلى تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامضٌ والكلام فيه خارج عن حدِّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدِّ الافهام وإنما قصرت الأفهام عنها لأعراضها عن التدبُّر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس والمنازع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب وآيات تدلُّ على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ وكمال حكمته ومنهى جلاله وعظمته وذلك ممَّا لا يتناهى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربِّي » فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة فلا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرُّمُزُ إليه بمثال واحد على ألا يجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى ، ثم

(١) آل عمران : ١٦ .

(٣) الاعراف : ١٨٤ .

(٢) فصلت : ٥٣ .

(٥) الملك : ٣ و ٤ .

(٤) يونس : ١٠١ .

الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب ألقها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها فأقل
المخلوقات هو الأرض وما عليها أعني. بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السماوات
فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من
صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيّفاً وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة
إلى الشمس ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركزه فيه
فإنه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من
السماوات ، ثم السماوات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في
العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير وما أحقر الأرض
كلها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد قال عليه السلام : « الأرض
في البحر كالاصطبل في الأرض » ^(١) و مصداق ذلك عرف بالمشاهدة والتجربة .

و اعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل
الأرض ثم انظر إلى آدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى
سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأصغر ما
نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراهما فانظر في البعوض على
صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، و انظر كيف خلقه الله تعالى على شكل
الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه ، وخلق له على
شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه
الظاهرة فأثبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه وشق سمعه وبصره ودبره في باطنه
من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبسه في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغذائية
و الجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله و
صفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الإنسان
ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو
محدد الرأس وكيف هداه إلى المصاص من مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

في واحد منها ، ثم كيف قوّاه حتّى يغرز فيه الخرطوم وكيف علّمه المصّ والتجرّع
للدّم وكيف خلق الخرطوم مع دقّته مجوّفاً حتّى يجري فيه الدّم الصافي الرقيق
و ينتهي إلى باطنه و ينتشر في سائر أجزائه ومعدته ، ثمّ كيف عرفه أنّ الإنسان
يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعمال آله ، و خلق له السمع الذي يسمع به
خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المصّ ويهرب ، ثمّ إذا سكنت اليد
عاد ثمّ انظر كيف خلق له حدقتين حتّى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه و
انظر إلى أنّ حدقة كلّ حيوان صغير لمّا لم تحتمل حدقته الأجناف لصغره وكانت الأجناف
مصقلة لمراة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى
الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأمّا الإنسان والحيوان الكبير فخلق
لحدقتيه الأجناف حتّى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار
الذي يلحق الحدقة ويرميها إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع
ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين ولتشبّكها عند هيجان الغبار
فينظر من وراء شبّاك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار ، و
أمّا البعوض فخلق له حدقتين مصقلتين من غير أجناف وعلّمه كيفية التصقيل
باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراه تنهّفت على السراج لأنّ بصره ضعيف فهو
يطلب ضوء النهار فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظنّ أنّه في بيت مظلم وأنّ
السراج كوة في البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه
إلى الكوة فإذا جاوزه ورأى الظلام ظنّ أنّه لم تصب الكوة ولم يقصدها على
السداد فيعود إليه مرّة أخرى ، إلى أن يحترق فلعلّك تظنّ أن هذا لنقصانها و
جهلها ، فاعلم أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الإكباب على
شعوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ يلوح للآدمي أنوار الشعوات
من الدنيا من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أنّ تحتها السمّ الناقع القاتل فلا يزال
يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيّد بها ويهلك هلاكاً مؤبّداً فليت كان
جهل الآدمي كجهل الفراش فإنّها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلّصت في

الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ الناس ويقول : «إنكم تنهافون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم» (١) فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله عز وجل في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خفايا معانيه فلا يطلع عليه إلا الله تعالى ، ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وعجائب تخصصها لا يشاركها غيرها فانظر إلى النحل وعجائبه فكيف أوحى الله عز وجل إليه حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعبها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتهم هو أكبرهم شخصاً وهو أميرهم ثم ما سخر الله له أميرهم من العدل والإنصاف بينهم حتى أنه ليقفل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك وفارغاً من مهم بطنك وفرجك وشهوات نفسك ومعاداة أقرانك وموالاته إخوانك ، ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربعاً ولا خماساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستدير وما يقرب منه فإن المربع يخرج منها زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا يضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراس الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس فهذه خاصية هذا الشكل ، فانظر كيف ألهم الله عز وجل النحل على صغر جرمه ولطافة قدّه لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليمتحن أعيشه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتثانه ،

(١) متفق عليه في الصحيحين باختلاف في اللفظ من حديث أبي هريرة وجابر وقد تقدم .

فاعتبر بهذه اللّمة اليسيرة من محقّرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض
والسماوات فإنّ القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه و
لأنسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء و الأنبياء ولا نسبة لما أحاط به
علم الخلائق كلّهم إلى ما استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه بل كلّ ما عرفه الخلق لا يستحقّ
أن يسمّى علماً في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة
بأسهل الطريقين و بزيادة المعرفة يزداد المحبة فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى
فانبذ الدّنيا وراء ظهرك و استغرق العمر في الفكر الدائم والذّكر اللّازم فمساك
تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك القدر اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

﴿ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ﴾

إعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل المحبة لاشتراكهم في أصل الإيمان
ولكنّهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة و في حبّ الدّنيا إذ الأشياء إنّما تتفاوت
بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلّا الصفات والأسماء التي قرعت
أسماعهم فتلقّوها وحفظوها وربّما تخيّلوا لها معاني يتعالى عنها ربّ الأرباب وربّما
لم يطّلعوا على حقيقتها ولا تخيّلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم و
تصديق و اشتغلوا بالعمل و تركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين
و المتخيّلون هم الضالّون و العارفون بالحقائق هم المقرّؤون وقد ذكر الله عزّ وجلّ
حال الأصناف الثلاثة في قوله : « فأما إن كان من المقرّبين فرّوح و ريحان و جنة
نعيم - الآيات »^(١) و إذا كنت لا تفهم الأمور إلّا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحبّ
مثالاً فنقول : أصحاب إمام مثلاً يشتركون في حبّ ذلك الإمام ، العلماء منهم والعوام
لأنّهم يشتركون في معرفة فضله و دينه و حسن سيرته و محامد خصاله ولكنّ العامّي
يعرف علمه مجملًا و الفقيه يعرفه مفصّلاً فيكون معرفة الفقيه به أتمّ و إعجابه به
وحبه له أشدّ فمن رأى تصنيف مصنّف فاستحسنه و عرف به فضله أحبه لا محالة و
مال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه و أعجب تضاعف لا محالة حبه و

مال إليه قلبه أكثر من ميله الأول لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرُّجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبّه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعتة ازداد به معرفة وازداد له حبّاً وكذا سائر الصناعات والفضائل فالعامي قد يسمع أن فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة و يكون له بحسبه ميل مجمل ، والبصير إذا فتش عن التصانيف و اطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة لأنّ عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدلّ على كمال صفات الفاعل والمصنّف ، والعالم بجملته صنع الله وتصنيفه والعامي يعلم ذلك و يعتقدّه ، وأمّا البصير فإنّه يطالب تفصيل صنع الله تعالى فيه حتّى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه وما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبّه فيزداد بسببه لاحالة عظمة الله وجلاله و كمال صفاته في قلبه فيزداد له حبّاً فكلّما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلعاً استدلّ به على عظمة الصانع وجلاله و ازداد به معرفة وله حبّاً و بحر هذه المعرفة أغني معرفة عجائب صنع الله لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحبّ لا حصر له و ممّا يتفاوت بسببه الحبّ أيضاً اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحبّ فإنّ من يحبّ الله مثلاً لكونه محسناً إليه و منعماً عليه ولم يحبّه لذاته ضعفت محبّته إذ تتغيّر بتغيّر الإحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرّجاء والنعماء ، وأمّا من يحبّه لذاته أولاً أنّه مستحقّ للحبّ بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنّه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا و أمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة و التفاوت في المحبة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى: «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً» (١).

﴿بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله عز وجل﴾

إعلم أنّ أظهر الموجودات وأجلاها هو الله عزّ وجلّ وكان هذا يقتضي أن يكون معرفته أوّل المعارف و أسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول و ترى الأمر بالضدّ من ذلك فلا بدّ من بيان السبب فيه ، وإنّما قلنا: إنّ أظهر الموجودات وأجلاها

هو الله تعالى لمعنى لا يفهمه إلا بمثال و هو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخطط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات فحياته و علمه وقدرته وإرادته للكتابة والخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة و الباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته و غضبه وحلمه و صحته و مرضه و كل ذلك لا نعرفه و صفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله و اختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمّا حياته وقدرته وإرادته و علمه و كونه حيواناً فإنّه جليٌّ عندنا من غير أن يتعلّق حسُّ البصر بحياته وقدرته وإرادته فإنّ هذه الصفات لا تحسّ بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كلّ ما في العالم سواء لم نعرف به صفاته فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جليٌّ واضح و وجود الله وقدرته و علمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلّ ما نشاهده و ندركه بالحواسّ الظاهرة و الباطنة من حجر و مدر و نبات و شجر و حيوان و سماء و ماء و أرض و كوكب و برّ و بحر و نار و هواء و جوهر و عرض ، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا و أجسامنا و أوصافنا و تقلّب أحوالنا و تغيّر قلوبنا و جميع أطوارنا في حركاتنا و سكناتنا و أشهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثمّ محسوساتنا بالحواسّ الخمس ثمّ مدركاتنا بالبصيرة و العقل و كلّ واحد من هذه المدركات لها مدرّك واحد و شاهد واحد و دليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة و أدلّة شاهدة بوجود خالقها ومدبّرها و مصرّفها ومحرّكها و دالّة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته و الموجودات المدرّكة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا و ليس يشهد له إلا شاهد واحد و هو ما أحسّسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا من لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا و خارجها إلا و هو شاهد عليه و على عظمته و جلاله إذ كلّ ذرّة فإنّها تنادي بلسان حالها أنّه ليس وجودها بنفسها ولا حرّكتها بذاتها وأنّها تحتاج إلى موجد و محرّك لها يشهد بذلك أو لا ترّكيب أعضائها و ائتلاف عظامنا و لحومنا و أعصابنا و منابت شعورنا و تشكّل أطرافنا و سائر أجزاءنا الظاهرة و الباطنة فإنّا نعلم أنّها لم تأتلف بنفسها كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها ولكن لما لم يبق

في الوجود مدركٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلا وهو شاهدٌ ومعرفٌ لوجوده وعظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإذن ما تنقص عن فهمه عقولنا له سببان أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله ، والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفّاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا إخفاء النهار واستتاره ولكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفّاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوّة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتّى لم يشذّ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تستبطن بأضدادها . وما عمّ وجوده حتّى أنّه لا ضدّ له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدلّ بعضها دون البعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإننا نعلم أنّه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكننا نظنّ أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلاندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحاليتين فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتّصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنّا نطلّع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور ، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به يدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصوّر استبهاهم أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فإنّ الربّ تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلّها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغيير لانهدّت السماوات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدركت به التفرقة بين

الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به و بعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد و وجوده دائماً في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام ، و أمّا من قويت بصيرته ولم تضعف منته فأنّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلّا الله ولا يعرف غيره و يعلم أنّه ليس في الوجود إلّا الله و أفعاله ، و أفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له فلا جرم لا وجود لها بالحقيقة دونه و إنّما الوجود الواحد الحقّ الذي به وجود الأفعال كلّها ، و من هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلّا ويرى فيه الفاعل و يذهل عن الفعل من حيث إنّ الله سماء و أرض و حيوان و شجر بل ينظر فيه من حيث إنّ الله صنع الواحد الحقّ ، فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطّه أو تصنيفه و رأى آثاره من حيث إنّها آثاره لا من حيث إنّ الله حبر و عصف و زاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف ، فكلّ العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنّ الله فعل الله و عرفه من حيث إنّ الله فعل الله و أحبه من حيث إنّ الله فعل الله لم يكن ناظراً إلّا في الله و لا عارفاً إلّا بالله و لا محبّاً إلّا له ، و كان هو الموحّد الحقّ الذي لا يرى إلّا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنّ الله عبد الله فهذا هو الذي يقال فيه إنّ الله فنى في التوحيد و أنّه فنى من نفسه و إليه الإشارة بقول من قال: كمنّا بنا ففنيّا عنّا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت على ضعفاء الأفهام و إشكالها إمّا لضعف الأفهام أو لاشتغالهم بأنفسهم و اعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعنيه فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، و انضمّ إليه أنّ المدركات كلّها التي هي شاهدة على الله إنّما يدركها الإنسان في الصبي عند فقد العقل ثمّ تبدو فيه غريزة العقل قليلاً و هو مستغرق الهمّ بشهواته ، وقد أنس بمدركاته و محسوساته و ألغى فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس و لذلك إذا رأى على سبيل المفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال : سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه و أعضائه و سائر الحيوانات المألوفة

وكلها شواهد قاطعة ولا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً
ثم انقشعت غشاوة عن عينه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات
والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة يخاف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من
مشاهدة هذه العجائب على خالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات
هي التي سدّت على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ،
فالناس في طلبهم معرفة الله تعالى كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذ كان راكباً لحماره
وهو يطلب حمّاره والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة^(١) فهذا سرُّ هذا الأمر
فليتحقّق ولذلك قيل :

فقد ظهرت فلا تخفى على أحد ☆ إلا على أكمه لا يعرف القمر
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ☆ وكيف يعرف من بالعرف قدسترا

☆ (بيان معنى الشوق إلى الله عز وجل) ☆

إعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق
إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون
العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار
أمّا الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحبّ وكلّ محبوب فهو مشتاق إليه
في غيبته فإنّ الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإنّ الشوق طلب وتشوّف إلى نيل
أمر ، والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من
وجه ولم يدرك من وجه فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه ، فمن لم ير شخصاً ولم
يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، وكمال
الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن
يكون له شوق ، ولكن الشوق إنّما يتعلّق بما أدرك من وجه ولم يدرك من
وجه وهو من وجهين : الأوّل هو أن يتّضح الشيء اتّضاحاً تاماً ولكنّه يحتاج إلى
استكمال ولا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات فمن غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه
(١) اعتماس اعتماساً لا مراعياً عليه اشتد وامتنع والثالث عليه فلم يهتد إلى وجه الصواب.

خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلما لم يجد عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ولورآه لم يتصور أن يشتاق إلى معرفته في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، ولذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتما الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه ، والثاني أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه مثلاً ولا سائر أعضائه فيشتاق إلى رؤيته ولو لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعاً متصوران في حق الله بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر دقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا تقتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للعارف ومنغصات ، وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا فإتمام كمال الوضوح بالمشاهدة وتما إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا هو أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضحاً ما ، الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة ، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية و لقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يارب إن أعطيت أحداً من المحبتين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضربني القلق ، قال : فرأيت في النوم كأنه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل

لقائي و هل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبته ، فقلت : يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول فقال: قل : «اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك» فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة ، وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية في الدنيا و لا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله وصفاته وأحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله و هو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنه يتشوق إلى استكمال الوضوح مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم و لا يبعد أن تكون ألطاف الكشف و النظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايداً أبداً لا يباد و يكون لذّة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل و هذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً فإن ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقعاً على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرّاً على الدوام وقوله تعالى : «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا» (١) محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ، و يحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى زيادة الاستكمال و الإشراق ليكون هذا هو المراد بتمامه ، وقوله تعالى : «انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا» (٢) يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً ، فأما أن يتجدد نور يتلأ فلا و الحكم في هذا برجم الظنون مخطئ ، ولم ينكشف لنا بعد فيه ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحق حقاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فهي أكثر من أن تحصى فمنها ما اشتهر من دعاء رسول الله ﷺ أنه كان يقول : «اللهم إنني أسألك الرضا بعد القضاء ، وبردا العيش

بعد الموت ، ولذّة النظر إلى وجهك الكريم ، و شوقاً إلى لقاءك » (١) وقد قال أبو الدرداء لكعب الأحبار : أخبرني عن أخصّ آية في التوراة فقال : يقول الله عزّ وجلّ : طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إلى لقاءهم لأشدّ شوقاً. قال : ومكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني و من طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنّي لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا . و في أخبار داود عليه السلام « إن الله عزّ وجلّ قال : ياداود أبلغ أهل أرضي أنّي حبيب لمن أحببني ، وجليس لمن جالسني ، ومونس لمن أنس بذكري ، وصاحب لمن صاحبني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني ، ما أحببني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي و أحببته حبّاً لا يتقدّمه أحد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ، و من طلب غيري لم يجدني ، فارضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي و انسوا بي أو انسكم و أسارع إلى محبتكم فإنّي خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي من موسى كليمي (٢) و محمد صفيي ، إنّني خلقت قلوب المشتاقين من نوري و نعمتها بجلالي ، و روي عن بعض السلف إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الصديقين أن لي عباد آمن عبادي يحبونني وأحبهم ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني و أذكّره وينظرون إليّ وأنظر إليهم ، فإن حدثت طريقهم أحببتك و إن عدلت عنهم مقتك ، قال : يا ربّ و ما علامتهم ؟ قال عزّ وجلّ : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشغيق غنمه و يحضون إلى غروب الشمس كما يحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنّهم الليل و اختلط الظلام و فرشت الفرش و نصبت الأسترة و خلا كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم و افترشوا لي وجوههم و ناجوني بكلامي وتملقوني بانهامي ، فبين صارخ وباك و متأوّه و شاك ، و بين قائم وقاعد ، و بين راكع وساجد ، بعيني ما يتحمّلون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبّي ،

(١) أخرجه أحمد والحاكم في المستدرک ج ١ ص ٥٢٤ في دعاء من حديث عمار بن

ياسر - رحمه الله - .

(٢) في بعض النسخ [نجي] .

أول ما أعطيهم ثلاث أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، و الثانية لو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستقللنها لهم ، و الثالثة أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحدا ما أريد أن أعطيه ؟

و في أخبار داود عليه السلام إن الله عز وجل أوحى إليه : يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي قال : يا رب من المشتاقون إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر و أنبهتهم بالحدز و خرقت من قلوبهم إلي خرقاً ينظرون إلي ، وإنني لأهل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثم أدعونجبا ، ملائكتي فاذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول : إنني لم أجمعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي و أباهي بكم أهل الشوق إلي ، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض ، يا داود إنني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني و نعمتها بنور وجهي واتخذتهم لنفسي محدثين و جعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض و قطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي يزدادون في كل يوم شوقاً ، قال داود : يا رب أرني أهل محبتك ، فقال : يا داود أئت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم كهول وفيهم مشايخ فاذا أنبتهم فأقرئهم مني السلام وقل لهم : إن ربكم يقرئكم السلام و يقول لكم : ألا تسألوني حاجة فأنكم أحبائي و أصفيائي و أوليائي ، أفرح لفرحكم و أسارع إلى محبتكم فأنهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله تعالى وملكوته فلمّا نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه فقال لهم داود : إنني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسمعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنني رسول الله إليكم وهو يقرئكم السلام و يقول لكم : ألا تسألوني حاجة ألا تنادوني فأسمع صوتكم و كلامكم فأنكم أحبائي و أصفيائي و أوليائي أفرح لفرحكم و أسارع إلى محبتكم و أنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة ، قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك و بنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عنذكرك فيما مضى من عمرنا ، و قال

الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك ، وقال الآخر : سبحانك سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجتره على الدُّعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنّة علينا ، وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا عليه بجودك ، وقال الآخر : ألا من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالنفكر في عظمتك أفيجتره على الكلام من هو مشغول بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا الدُّنو من نورك ، وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك وكثرة مننك على أهل محبتك ، وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك ، وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجتره العبد على سيده فإذا أمرتنا بالدُّعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات بين أطباق السماوات ، وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه علينا ، وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا ، وقال الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة ، وقال الآخر : قد عرفنا أنك تباركت وتعاليت تحب أوليائك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك ، فأوحى الله تعالى إلى داود قل لهم : قد سمعت كلامكم وأحببتكم إلى ما أحببتهم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً فأني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي ، فقال داود : يا ربِّ بم نالوا منك هذا ؟ قال بحسن الظنِّ والكفِّ عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي ، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي ، فعند ذلك أعطف عليه فأفرغ نفسه له وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليَّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء . وأريه كرامتي في كل ساعة وأقرِّبه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرّض الوالدة ابنتها ولدها وإن

عطش أرويته وأذقته طعم ذكري فاذا فعلت ذلك به يا داود عزفت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لثلاث تصدّه عن الاشتغال بي يستعجلني بالقدوم عليّ وأنا أكره من أميته لأنّه موضع نظري من بين خلقي لا يري غيري ولا أرى غيره فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سماواتي تزداد خوفاً وعبادة ، وعزّي وجلالي يا داود لا قعدته في الفردوس ولا شفين صدره من النظر إليّ حتّى يرضى وفوق الرضا . وفي أخبار داود أيضاً قل لعبادي المتهوّنين إليّ بمحبّتي ماضٍ كم إذا احتجبتكم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتّى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضرّكم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم، وما ضرّكم مسخطة الخلق إذا التمستم رضاي .

وفي أخبار داود إن الله تعالى أوحى إليه : يا داود أنك تزعم أنك تحبّني فإن كنت تحبّني فأخرج حبّ الدنيا عن قلبك فإن حبّني وحبّها لا يجتمعان في قلب ، يا داود خالص محبّتي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلّدنيه ولا تقلّد دينك الرّجال أهما استبان لك ممّا يوافق محبّتي فتمسّك به وأمّا ما أشكل عليك فقلّدنيه حقّاً عليّ أن أتولّي سياستك وتقويمك وأكون قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد فإنّي قد آليت على نفسي ألا أئيب إلا عبداً هرب عن طلبته وإرادته وألقى نفسه بين يدي فإنّه لا غنى به عنّي فاذا كنت كذلك نزعت الوحشة والذّلة عنك وأسكنت الأُنس والحلاوة قلبك فإنّي قد حلقت على نفسي أنّه لا يطمئنّ عبدٌ لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلّته إليها أضف الأشياء إليّ لاتضادّ عملك فتكون متعنّتاً ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تحدّ لمعرفتي حدّاً فليس لها نهاية ومتى طلبت منّي الزّيادة أعطيك ، ولا تجد لزيادتك منّي حدّاً ، ثمّ أعلم بني إسرائيل أنّه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبيع لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر إليّ ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الدّين حجبت عقولهم

عني فامر جوها و سمحت بانقطاع ثوابي عنها فانني حلفت بعزتي وجلالي لا ابيع
ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة و التسويف تواضع لمن تعلمه و لا تطاول على
المريدين فلو علم اهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها ،
يا داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهبذاً و من
كتبته جهبذاً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين ، يا داود تمسك بكلامي
و خذ من نفسك لنفسك و لا تؤمنن منها فتحجب عن محبتي لا تؤيس عبادي من رحمتي
أقطع شهوتك لي فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ، ما بال الأقوياء أن ينالوا
الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتي و إنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول
أدنى ما يصل إليهم أن أحجب قلوبهم عني فانني لم أرض الدنيا لحبيبي و نزهته
عنها ، يا داود لا تجعل بيني و بينك عالماً يحجبك بسكره عن محبتي أولئك قطاع
الطريق على عبادي المريدين ، استعن على ترك الشهوات بدمان الصوم وإيتاك والتجربة
في الإفطار فانني يعجبني من الصوم إدمانه ، يا داود تحجب إلي بمعاداة نفسك بمنعها
الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني و بينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى
على ثوابي إذا مننت به عليك و إنني أخفيه عنك وأنت متمسك بطاعتي . وأوحى الله
إلى داود يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم و رفيقي بهم وشوقي إلى
ترك معاصيهم لما اتوا شوقاً إلي و تقطعت أوصالهم من محبتي ، يا داود هذه إرادتي في
المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي ، يا داود أحوج ما يكون العبد إلي
إذا استغنى عني و أرحم ما أكون بعبي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عبي إذا
رجع إلي . فهذه الأخبار و نظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة و الشوق
والانس و أما تحقيق معناها فينكشف بما سبق .

أقول : و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : «المشتاق لا يشتهي طعاماً و
لا يلبس ثياباً و لا يستطيع رقاداً و لا يأنس حميماً و لا يأوي داراً و لا يسكن عمراناً و لا
يلبس ليناً و لا يقر قراراً ، ويعبد الله ليلاً و نهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشاق إليه
و يناجيه بلسان شوقه معبراً عما في سريره كما أخبر الله عن موسى بن عمران عليه السلام

في ميعاد ربه بقوله : « وعجلت إليك رب لترضى » ^(١) وفسر النبي ﷺ عن حاله أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه ، فإذا دخلت ميدان الشوق فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ودع المألوفات واحرم عن سوى مشوّقك ، ولبّ بين حياتك وموتك لبّيك اللهم لبّيك وأعظم الله تعالى أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ليس له همّة إلا خلاصه وقد نسي كل شيء دونه ^(٢).

﴿بيان محبة الله عز وجل للعبد ومعناها﴾

إعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله عز وجل يحب عبده فلا بد من معرفة معناه ولنقدّم الشواهد على محبته وقد قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » ^(٣) وقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » ^(٤) وقد قال تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ^(٥) ولذلك ردّ سبحانه وتعالى على من ادّعى أنه حبيب الله فقال : « قل فلم يعذبكم بذنوبكم » ^(٦).

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، و التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم تلا : « إن الله يحب التوابين » ^(٧) ومعناه أنه إذا أحبّه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الاسلام وقد اشترط الله للمحبة غفران الذنب فقال : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ^(٨).

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي

(١) طه : ٨٦ . (٢) المصدر الباب الثامن والتسعون .

(٣) المائدة ٥٩ . (٤) الصف : ٤ .

(٥) البقرة : ٢٢٢ . (٦) المائدة : ٢١ .

(٧) رواه صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده كما في المغني و روى

ابن ماجه شطره الثاني من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

(٨) آل عمران : ٢٩ .

الإيمان إلا من يحب» (١).

و قال عليه السلام : من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحببه الله (٢).

و قال عليه السلام إخباراً عن ربه « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به - الحديث » (٣). وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : إعمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا أن محبة العبد لله عز وجل حقيقة وليست بمجاز إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن الميل إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل المفرط الغالب ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضاً وإن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله تعالى للعبد فلا تدرك حقيقته بعقولنا وأفهامنا أصلاً فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأسماء كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق بمعنى واحد عليهما أصلاً حتى أن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم إذ معنى الجسم و حقيقته متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسميّة لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله عز وجل ولا خلقه وهذا التباعد في سائر الأسماء أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخلق الخالق فإن الخالق في ذاته وفي جميع صفاته منزّه مقدس عن مشابهة مخلوق ما من ذروة العرش إلى منتهى القرش ، و واضع اللغة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٣٣ و ج ٤ ص ١٦٥ وقد تقدم .

(٢) أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

(٣) تقدم كزاراً عن الكافي والبخارى ومسلم وغيرهم .

إنما وضع هذه الأسماء أولاً للخلق فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق وكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل ، والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتتها ما يوافقها ويستفيد بنيله كملاً فتستلذ بنيله وهذا محال على الله عز وجل ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن من الإلهية فهو حاضر وحاصل واجب الحصول أبداً وأزلاً ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث أنه غيره بل نظره إلى ذاته وإلى أفعاله فقط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال شيخ أبو سعيد الميهني - رحمه الله - لما قرئ عليه قوله تعالى : « يحبهم ويحبونه » فقال : بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه وما ورد من الالفاظ في حبه لعباده فهو مأوّل فيرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل وإلى تطهير باطنه من حلول الغير به وإلى تفرغه وتخليته عن علائق وعوائق تحول بينه وبين مولاه حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق ولا يبصر إلا به ولا ينطق إلا به كما قال عليه السلام حكاية عن ربه سبحانه « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحبه كنت سمعه - الحديث » فحبه لمن أحبه أجلي مهما اُضيف إليه إلا رادة الألفية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق القرب إذا اُضيف إلى فعله الذي ينكشف به الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى : « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه وكل ذلك فضل الله عز وجل ولطفه به فهو معنى محبته ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينتصر بقلوبه أو لتستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه

أو ليهي له أسباب شرا به وطعامه فيقال : إن الملك يحبّه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لالانتفاع به ولا للاستنجاد به بل لكون العبد في نفسه موصوفاً بالخلق الرضيّة والخصال الحميدة وما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظّ من قرب به منه أن الملك لاغرض له فيه أصلاً فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبّه ، وإذا اكتسب من الخصال المحمودّة ما اقتضى دفع الحجاب يقال قد توصّل إليه وحبّب نفسه إلى الملك فحبّ الله للعبد إنّما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأوّل وإنّما يصحّ تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهم عبد دخول تغيير عليه عند تجدد القرب فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله تعالى في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلّق بمكالم الأخلق التي هي الأخلق الإلهيّة فهو قريب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغيّر فربما يظنّ بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغيّر وصف العبد والرّبّ جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن و هو محال في حقّ الله إذ التغيّر عليه محال بل لا يزال في نعوت الكمال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فإنّ الشخصين قد يتقاربان بتحرّكهما جميعاً وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرّك الآخر فيحصل القرب بتغيّر في أحدهما من غير تغيّر في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فإنّ التلميذ يطلب القرب من درجة استاده في كمال العلم وجماله والاستاد واقف في كمال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرّك مترقّ من حضيض الجهل إلى يفاع العلم فلا يزال دائماً في التغيّر والترقّي إلى أن يقرب من استاده والاستاد ثابت غير متغيّر فكذلك ينبغي أن يفهم ترقّي العبد في درجات القرب فكلماً صاراً كمل صفة وأتمّ علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشياطين وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرّذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله تعالى وقرب كلّ واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاد وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حقّ الله تعالى محال فإنّه لا نهاية لكمال وسلوك العبد في درجات

الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة ثمّ درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أصلاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإنّ محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشّواغل والمعاصي عنه ، و تطهير باطنه من كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتّى يشاهده كأنّه يراه بقلبه ، وأمّا محبة العبد لله تعالى فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشناق إلى مافاتنه وإذا أدرك منه شيئاً يلتذّ به ، والشوق و المحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت فمحبة الله تعالى للعبد أمرٌ ملتبس فيم يعرف العبد أنّه حبيب الله فأقول: يستدلّ عليه بعلاماته وقد قال ﷺ: «إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه فإن أحبّه الحبّ البالغ اقتنأه ، قيل : وما اقتنأؤه ؟ قال : لم يترك له مالاً ولا أهلاً» (١) فعلامة محبة الله تعالى للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره ، وقيل لعيسى ﷺ: ألا تشتري حمزاً فتركبه ؟ فقال : أنا أعزّ على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار ، وفي الخبر «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه» (٢) وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبّه ورأيتك يبتليك فاعلم أنّه يريد أن يصافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشيء من المحبة فقال : يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواء فآثرت عليه إيّاه ؟ قال : لا قال : فلا تطمع في المحبة فإنّه لا يعطيها عبداً حتّى يبلّوه ، وقال ﷺ: «إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه» (٣) . وقال : «إذا أراد الله بعبد خيراً أبصره بعيوب نفسه» (٤) وأخصّ علاماته حبه لله فإنّ ذلك يدلّ على حبّ الله عزّ وجلّ له ، وأمّا الفعل الدالّ على كونه محبوباً فهو أن يتولّى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سرّه وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبّر

(١) تقدم عن الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني .

(٢) ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يخبره ولده في مسنده .

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث أم سلمة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٤) رواه البيهقي في الشعب من حديث أنس عن محمد بن كعب مرسل .

لأمره ، والمزَيْن لآخلاقه ، والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل لهمومه همماً واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكشف له عن الحجب بينه وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هي علامة حب الله تعالى للعبد ، ولندكر الآن علامة محبة الله تعالى فإنها أيضاً علامات حب الله عز وجل للعبد .

﴿القول في علامات محبة العبد لله عز وجل﴾

إعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدُّعوى وما أعزَّ المعنى فلا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بتلبيس الشيطان و خدع النفس مهما ادَّعت محبة الله عز وجل مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء و ثمارها تظهر على القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدُّخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار ، فهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، ولا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاؤه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فار منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء و باب الدُّخول إلى المشاهدة ، قال عليه السلام : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » (١) .

فإن قلت : فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله ، فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأنَّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فإنَّ الناس متفاوتون في الحب فمنهم من لا يحب الله بكلِّ قلبه فيحبه ويحب غيره

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة راجع صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣٢ .

أيضاً فلا جرم يكون فرحه بقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه و عذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

و أما السبب الثاني للكراهة فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة فليس يكره الموت و إنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب و هو كالمحب الذي وصل إليه الخبر بقدوم حبيبته عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة لعمارة داره و تهيئة أسبابها فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً و علامته الحد في العمل و استغراق الهم في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله عز وجل على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الشهوات ويعرض عن دعة الكسل فلا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى و متقرباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه و قد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال : « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم » (١) و من بقي مستمراً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجري ☆ فأترك ما أريد لما يريد
بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، فإن من أحب
الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصي الإله و أنت تظهر حبه ☆ هذا لعمرى في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ☆ إن المحب لمن يحب مطيع

وقيل :

و أترك ما أهوى لما قد هويته ☆ و أَرْضَى بما تَرْضَى وإن سخطت نفسي
و قال سهل : علامة المحب إثارة من أحبه على نفسه ، وليس كل من عمل

بطاعة الله صار حبيباً وإنّما الحبيب من اجتنب المناهي وهو كما قال: لأنّ محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى: «يحبّهم ويحبّونه»^(١) وإذا أحبّه الله تعالى تؤمّه ونصره على أعدائه وإنّما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذله الله تعالى ولا يكله إلى نفسه وهواه وشهواته ولذلك قال تعالى: «والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً»^(٢)

فان قلت: فالعصيان هل يضادّ أصل المحبة؟ فأقول: لا إنّما يضادّ كمالها ولا يضادّ أصلها فكم من إنسان يحبّ نفسه وهو مريض وهو يحبّ الصحة فيأكل ما يضرّه مع العلم بأنّه يضرّه وذلك لا يدلّ على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدلّ عليه ما روي أن نعيمان الأنصاري كان يؤتى به رسول الله ﷺ في كل قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أتته به يوماً فحدّه فلغنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ فقال: ﷺ «لا تلغنه فإنّه يحبّ الله ورسوله»^(٣) فلم يخرجّه بالمعصية عن المحبة، نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب، وقد قال بعض العلماء: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحبّ الله تعالى حبّاً متوسطاً، وإذا دخل سويداء القلب أحبّ الله الحبّ البالغ وترك المعاصي، وبالجملّة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحبّ الله فاسكت فإنّك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم وليس وصفك وصف المحبّين فاحذر المقت، ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنّة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا في جهنّم عذاب أشدّ من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبة ولم يتحقّق بشيء من ذلك.

ومنها أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحبّ شيئاً أكثر بالضرورة ذكره وذكر ما يتعلّق به، فعلمة حبّ الله تعالى حبّ ذكره، وحبّ القرآن الذي هو كلامه، وحبّ رسول الله ﷺ، وحبّ كلّ من

(١) المائدة: ٥٧.

(٢) النساء: ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٩٧ وكان اسم الرجل عبدالله وكان يلقب حماداً.

ينسب إليه ، فإن من يحب إنساناً يحب كلب حبيبه ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب فإن من أحب رسول المحبوب لأنه زسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هودليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والمرسول وعباد الله الصالحين ، وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب آداب الأخوة والصحة ولذلك قال الله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله »^(١) وقال النبي ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى »^(٢) وقيل : من أحب من يحب الله فأنا أحب الله عز وجل ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنا يكرم الله عز وجل .

و منها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هذه الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعيم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألدّ عنده وأطيب من مناجاة الله عز وجل كيف تصح محبته ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله ساقطاً عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى ﷺ إن الله عز وجل قال لموسى : إن برحاً نعم العبد هولاء إلا أن فيه عيباً ، قال : يا رب وما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لا يسكن إلى شيء .

وروي أن عابداً عبد الله في غيبة^(٣) دهر أطويلاً فنظريوماً إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها فقال : لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطت بك عن درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً . فعلامة المحبة

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) تقدم في باب شواهد الشرع في باب حب المبدل لله تعالى .

(٣) الغيبة : الاجمة مجتمع الشجر في مغيض الماء .

كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة .

و علامة الأنس بالله أن يصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذّة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه و يناجيّه ، و قد انتهت هذه اللذّة ببعضهم حتى أنه كان في صلاته و وقع الحريق في داره فلم يشعر به ، و قطعت رجل بعضهم بسبب علّة أصابته و هو في الصلاة فلم يشعر به ، و مهما غلب الحبّ و الأنس صارت الخلوة و المناجاة قرّة عينه تدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأنس و الحبّ قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر رعلى سمعه مراراً مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه و أنسه في الباطن بذكر حبيبته و المحبّ من لا يطمئن إلا إلى محبوبه و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادّعى محبتي إذا جنّته الليل نام عني أليس كلّ محبوب يحب لقاء حبيبته ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني . و قال موسى عليه السلام : يا ربّ أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدتني فقد وصلت .

ومنها أن لا يتأسّف على ما يفوته مما سوى الله و يعظم تأسّفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله و طاعته فيكون رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف و الاستعتاب و الاستغفار و التوبة إليه قال بعض العارفين : إن الله عزّ وجلّ عباداً أحبّوه و اطمأنّوا إليه فذهب عنهم التأسّف على الفائت فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم إذ كان قلبهم شاكراً راضياً ، و ملك مليكهم تامّاً ، و ما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم و ما فاتهم فلحسن تدبيره لهم ، و حقّ المحبّ إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه و يشتغل بالعتاب و يسأله ويقول : يا ربّ بأيّ ذنب قطعت برك عني و أبعدتني عن حضرتك و شغلتني بنفسي و متابعتي الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر و رقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة و تكون هفوته سبباً لتجدّد ذكره و صفاء قلبه و مهما لم ير المحبّ إلا المحبوب و لم ير شيئاً إلا منه لم يتأسّف و لم يشك و استقبل الكلّ بالرضا و علم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته و يذكر قوله تعالى : « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ^(١) و منها أن يتنعم بالطاعة ولا يستنقلها و يسقط

عنه تعبها وكل هذا مثاله موجود في المشاهدات فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله عز وجل فإن كل حب صار غالباً قهراً لا محالة ما دونه فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ومن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل ماله ونفسه حتى لم يبق له شيء : ما كان سبب حالك هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوماً محباً ظفر بمحبوبه وهو يقول له : أنا والله أحب بك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله ، فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفقه علي ؟ فقال : يا سيدي أملكك ما أملك ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك ، فقلت : هذا حب خلق لخلق و عبد لعبد فكيف بعبد لمعبود ، فكل هذا بسببه .

و منها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه الله عز وجل كما قال الله تعالى : « أشدء على الكفار رحماً بينهم »^(١) ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، و به وصف الله تعالى أوليائه إذ قال في بعض الكتب : الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشئ ، و يأوون إلى ذكرى كما يأوي النسر إلى وكره و يغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أم كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالشئ لم يفارقه أصلاً فإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فإذا نام أخذه معه في ثيابه فإذا اتعبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده فرح وضحك ومن نازعه فيه أبغضه معه ومن أعطاه أحبه ، وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أن يهلك نفسه ، فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه وصفا في الآخرة شرابه و عذب مشربه و من امتزج بحبه

حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقر بين كما قال تعالى في حق الأبرار : « إن الأبرار لفي نعيم » على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقر بون » ^(١) وإنما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقر بين ، و الشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال : « إن كتاب الأبرار لفي عليين » ^(٢) ثم قال : « يشهده المقر بون » ^(٣) فكانت أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقر بون ، وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقر بين ومشاهدتهم لهم كذلك يكون حالهم في الآخرة « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ^(٤) و « كما بدأنا أول خلق نعيده » ^(٥) وقال : « جزاء وفاقا » ^(٦) أي وافق الجزاء أعمالهم فقول الخالص بالصرف من الشراب و قول المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ^(٧) و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ^(٨) و « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » ^(٩) « إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ^(١٠) فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحدود والقصور يمكن في الجنة ليتبوها منها حيث يشاء فيكون مع الولدان ويتمتع بالنسوان ومن كان مقصده رب الأرباب ومالك الملك ولم يغلب عليه الألفة فالإخلاص والصدق ينزلانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فالأبرار يرتعون في البستان ويتنعمون في الجنان مع الحور والولدان و

(١) المطففين : ٢٢ - الى - ٢٩ . (٢) المطففين : ١٨ .

(٣) المطففين : ٢١ : (٤) لقمان ٢٨ .

(٥) الانبياء : ١٠٤ . (٦) النبأ : ٢٦ .

(٧) الزلزال : ٨٧ : (٨) الرعد : ١٢ .

(٩) النساء : ٤٢ . (١٠) الانبياء : ٤٨ .

المقرَّبون يلازمون الحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون و لذلك قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البله»^(١) وعليّون لذوي الألباب ولما قصرت الأفهام عن إدراك معنى عليّين عظم أمره فقال: «وما أدريك ما عليّون»^(٢) كما قال: «القارعة» ما القارعة» و ما أدريك ما القارعة»^(٣).

و منها أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم و قد يظن أن الخوف يضاد الحب و ليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب و لخصوص المحبّين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض فأولها خوف الإعراض و أشدّ منه خوف الحجاب و أشدّ منه خوف الإبعاد وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيّد المحبّين إذ سمع قوله: «ألا بعداً لعاد قوم هود»^(٤)، «ألا بعداً لثمود»^(٥) «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود»^(٦) و إنّما تعظيم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف الحب والقرب و ذاقوه تنعم به فحديث البعد في حقّ المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب و لا يحسن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف و سلب المزيد فإنّنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها وحقّ العبد أن يجتهد في كلّ نفس حتّى يزداد فيه قرباً ، و لذلك قال ﷺ: «من استوى يوماء فهو مغبون» و من كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون»^(٧) و كذلك قال ﷺ: «إنّه ليغان على قلبي و إنّني لاستغفر الله في اليوم و الليلة سبعين مرّة»^(٨) و إنّما كان استغفاره من القدم الأولى فإنّها كانت بعداً بالإضافة إلى القدم الثانية ويكون

(١) تقدم مراراً .

(٢) المطففين : ١٩ . (٣) القارعة ٢١ و ٣٠ .

(٤) و (٥) و (٦) السورة : ٦٣ و ٧١ و ٩٧ .

(٧) رواه الصدوق في معاني الاخبار ص ٢٤٢ من حديث الصادق عليه السلام .

(٨) تقدم كراداً من حديث الاغر .

ذلك عقوبة لهم على العثور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روي في بعض الكتب « إن الله يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوة الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذية مناجاتي »^(١) فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، وأما الخصوص فيحببهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادي اللطف ، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوا الأقدام الراسخة في العلم ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعه والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل الحب عليه من حيث لا يشعر فإن هذه التقلبات في القلب لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها وإذا أراد الله المكر به واستدراجة أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجا ، ويغتر بحسن الظن وبغلبة الغفلة والهوى والنسيان وكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والثبات ، وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء ، وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملائته لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها فظهر هذه الأسباب دليل على النقل من مقام الحب إلى مقام المقت ، نعوذ بالله منه ، وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منه بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فإن من أحب شيئاً خاف لامحالة فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته ، وقد قال بعض العارفين : من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد و

(١) تقدم في المجلد الأول ص ١٣١ عن كتاب الملل للصدوق رحمه الله .

الاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقر به ومكنه وعلّمه والمحبة لا يخلو من خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبتين وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لها طاقة البشر فانما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب ، وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشرك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعاش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن الله فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدّعى والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحسوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سرّه فإن الحب سرٌّ من أسرار الحبيب . ولأنّه قد يدخل في الدّعى ما يتجاوز حدّ المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء . وتعظم العقوبة عليه في العقبي ويتعجل عليه البلوي في الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيها وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه فإن وقع ذلك من غير تمجّل أو اكتساب فهو معذور لأنّه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه ، فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلما ذاستنكر؟ فاعلم أن المحبة محمودة وإظهارها أيضاً محمود وإنما المذموم التظاهر به لما يدخل فيها من الدّعى والاستكبار ، وحقّ المحب أن يتم على حبه الخفي أحواله دون أقواله وأفعاله فإن ظهر فينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدالّ على الحب بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب

فقط فأما إرادته اطلاع غيره فشارك في الحبّ وقادح فيه كما ورد في الانجيل: إذا تصدّقت فتصدّق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك ، فالذي يرى الخفيات يجزيك به علانية ، و إذا صمت فاغسل وجهك وادّهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربّك فإظهار القول والفعل كلّهُ مذمومٌ إلا إذا غلب سكر الحبّ القلب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه ، بما يكره التظاهر بالحبّ بسببه أن المحبّ إن كان عارفاً وعرف أحوال الملائكة في حبّهم الدائم و شوقهم اللازم الذي به « يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » لاستنكف من نفسه و من إظهار حبّه وعلم قطعاً أنّه أخسّ المحبّين في مملكته وإنّ حبّه أنقص من حبّ كلّ محبّ لله فهذه مجامع علامات الحبّ و ثمراته .

ومنها الأنس والرّضا كما سيأتي ، وبالجملة جميع محاسن الدّين ومكارم الأخلاق ثمرة المحبة وما لا يثمره الحبّ فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم يحبّ الله لا إحسانه إليه وقد يحبّه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبّون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد : الناس في محبة الله عامٌ وخاصٌ فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أحبّوه إلا أنّه ثقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ، وأمّا الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ، فلمّا عرفوا صفاته الكاملة وأسماء الحسنى لم يمتنعوا أن أحبّوه إذ استحقّ عندهم بذلك المحبة لأنّه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحبّ هواه وعدوّ الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ويظنّ أنّه محبّ لله وهو الذي لا يجد من نفسه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقاً ورثاء وسمعة ، و غرضه عاجل حظّ الدّنيا وهو يظهر من نفسه خلافه كعلماء السوء وقرّاء السوء أو لك بغضاء الله في أرضه ، وقد قال أبو التراب النخشي في علامات المحبّ أياًتا :

لا تخدعنّ فللمحبّ دلائل ☆ ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه ☆ و سروره في كلّ ما هو فاعل

فألمنع منه عطية مبذولة ✧ و الفقر إكرام و بر عاجل
ومن الدلائل أن يرى من عزمه ✧ طوع الحبيب و إن ألح العاذل
و من الدلائل أن يرى متبسماً ✧ و القلب فيه من الحبيب بلابل
و من الدلائل أن يرى متفهماً ✧ لكلام من يحظى لديه السائل
و من الدلائل أن يرى متقشفاً ✧ متحفظاً من كل ما هو قائل

أقول: و مما يصح أن يجعل دليلاً ما نقله أبو حامد عن بعضهم في جملة ما تركناه في أواخر هذا الكتاب في معنى المحبة: أنها محو الإرادات و احتراق الصفات و الحاجات . و نقل من آخر: أن المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن إدراكه و تمنع الألسن عن عبارته فإن من يجد في قلبه ذلك لله فهو محب له .

﴿بيان معنى الانس بالله عز و جل﴾

قد ذكرنا أن الأنس و الخوف و الشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره و ما يغلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال و استشعر قصوره عن الإطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب و انزعج له و هاج إليه فسميت هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب و مشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف و كان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدر به بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً و إن كان نظره إلى صفات العز و الاستغناء و عدم المبالاة و خطر إمكان الزوال و البعد تألم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات و الملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه استبشار القلب و فرجه بمطالعة الجمال حتى أنه إذا غلب و تجرد عن ملاحظة ما غاب عنه و ما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه و لذته ، و من هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق فقال : لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق ؟ و هذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألفاف ، و من

غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله تعالى ، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرأ لا يسمع كلام أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله تعالى لداود عليه السلام : كن بي مستأنساً ومن سواي مستوحشاً . و قال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال : يا هذا لو ذقت حلالة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، قلت : ياراهب ما أقل ما تجد في الخلوة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت : ياراهب متى يذوق العبد حلالة الأنس بالله عز وجل ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم فصارت همماً واحداً في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجباً للخلائق كيف أرادوا لك بدلاً ، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك .

فان قلت : فما علامة الأنس بالله ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور ومخالط بالبدن متفرّد بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر ، قال علي عليه السلام في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعره المنرفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه ، ^(١) فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد ، وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والحب والشوق لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل لذّة من جمال المبصرات ولذّة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، حتى أنكر

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج قسم الحكم والمواعظ تحت رقم ١٤٧ .

بعضهم مقام الرضا وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطالع قائله من مقامات الدّين إلا على القشور و ظنّ أنّه لا وجود إلا للقشر ، فإنّ المحسوسات وكلّ ما يدخل في الخيال في طريق الدّين قشر مجرّد و وراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظنّ أنّ الجوز خشب كله ويستحال عنده خروج الدّهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول ، و قد قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال ☆ وليس يدرّكه بالحوّل محتمل
و الأنسون رجال كلّهم نجب ☆ و كلّهم صفوة لله عمّال

﴿بيان معنى الانبساط و الادلال الذي تفرمه غلبة الانس﴾

إعلم أنّ الأنس إذا دام و غلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم يغيّسه خوف البعد و الحجاب فإنّه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرأة و قلّة الهيبة ولكنّه محتمل ممّن أقيم في مقام الأنس و من لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل و الكلام هلك به و أشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين ، و خرج موسى ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : كيف أستجيب لهم و قد أظلمت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتّى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله تعالى فسلم عليه فقال : ما اسمك ؟ قال : اسمي برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال في كلامه : « ما هذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، و ما الذي بدالك أتعتصت عليك غيومك أم عاندت الرّياح عن طاعتك أم نقد ما عندك أم اشتدّ

غضبك على المذنبين أأست كنت غفّاراً قبل خلق الخطّائين خلقت الرّحمة وأمرت بالعطف أم ترينا أنّك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ قال : فما برح حتّى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر و أنبت الله عزّ وجلّ العشب في نصف يوم حتّى بلغ الرّكب قال : فرجع برخ فاستقبله موسى فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربّي كيف أنصفني فهم موسى ﷺ به فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن برخاً يضحكني كلّ يوم ثلاث مرّات .

و عن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خصّ لم يحترق وأبو موسى الأشعريّ يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخصّ فأتني بشيخ فقال : يا شيخ ما بال خصّك لم يحترق فقال : إنني أقسمت على ربّي ألا يحرقه ، فقال أبو موسى : إنني سمعت النبيّ ﷺ يقول : « يكون في أمّتي قوم شعثة رؤوسهم ، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرّهم » (١) .

وقيل : وقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطّى النار فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال : إنني أقسمت على ربّي ألا يحرقني بالنار ، قال : فاعزم عليه أن تطفئ ، قال : فعزم عليه فطفئت .

و كان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقيّ مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضلّ حماري ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزّك لا أخطو خطوة ما لم تردّ عليه حماره ، قال : فظهر الحمار في الوقت ومرّ أبو حفص . فهذا و أمثاله يجري لذوي الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم .

قال الجنيد : أهل الانس يقولون في كلامهم و مناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامّة و قال مرّة لو سمعها العوامّ لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم و يليق بهم وإليه أشار القائل :

قومٌ يخالجهم زهوٌ ليسَ بهم ☆ والعبد يزهو على مقدار مولا

تاهو برؤيته عمّا سواه له ☆ يا حسن رؤيتهم في عزّ ما تاهو

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الاولياء و فيه انقطاع وجهالة كما في المعنى .

وقال الشبلي :

إن المحبة للرحمن أسكرني ☆ و هل رأيت محباً غير سكران

ولا تستبعدن رضا عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت لها وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار وإنما هي عند ذوي الاغترار من الأسمار فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتراكا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتناب والعصمة أما إبليس فأبلس عن رحمة الله و قيل : إنه من المبعدين ، و أما آدم فقيل فيه « وعصى آدم ربه فغوى » ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى ^(١) و لذلك الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون البعض فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام : « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء » ^(٢) وقوله في التعلل والاعتذار لما قيل له : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ^(٣) فقال : « ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون » ^(٤) وقوله : « ويضيق صدري » ^(٥) وقوله : « إئتينا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ^(٦) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث فنودي عليه إلى يوم المحشر « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » ^(٧) ونهى نبيا عليه السلام أن يقتدي به فقال له : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » ^(٨).

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد وقد قال تعالى : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ^(٩) وقال : « منهم من كلف الله ورفع بعضهم درجات » ^(١٠) وكان

(٢) الاعراف : ١٥٤ .

(١) طه : ١٢٠ و ١٢١ .

(٤) و (٥) الشعراء : ١٣ و ١٢ .

(٣) طه : ٢٥ .

(٧) و (٨) القلم : ٤٩ و ٤٨ .

(٦) طه : ٤٦ .

(١٠) البقرة : ٢٥٤ .

(٩) الاسراء : ٥٧ .

عيسى عليه السلام من المفضلين ولا دلاله سلم على نفسه فقال : « و السلام عليّ يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حياً » ^(١) وهذا انبساط منه لما شاهد منه من اللطف في مقام
الأنس ، وأما يحيى بن زكريّا فإنه أقيم مقام الهيبة والخياء فلم ينطق حتّى سلم
عليه خالقه فقال : « وسلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت ويوم يبعث حياً » ^(٢) وانظر
كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوا بيوسف و قد قال بعض العلماء : قد عدّدت من
أوّل قوله تعالى : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا » ^(٣) إلى رأس
العشرين آية من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيّفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من
بعض و قد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفر لهم و عفا عنهم و لم
يحتمل لعزير مسئلة واحدة سأل عنها في القدر حتّى قيل لئن عاد محي عن ديوان
النبوة ، وكذلك بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يهتمل
له ذلك ، وكان آصف من المسرفين و كانت معصيته في الجوارح فعفا عنه ، و قد روي
أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا موضح محجّة الزاهدين
إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف و أنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة فوعزّتي و جلالتي
لئن أخذته غضبة من غضباني عليه لأتركنه مثلة لمن معه و نكلاً لمن بعده ، فلمّا
دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتّى علا كنيهاً من
رمل ، ثم رفع رأسه ومدّ يديه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي أنت أنت و أنا أنا
فكيف أتوب إن لم تتب عليّ؟ وكيف أستعصم إن لم تعصمني؟ أغثني و إلّا لأعودنّ و
لأعودنّ و لأعودنّ ، فأوحى الله تعالى إليه أن قد صدقت يا آصف أنا أنا وأنت أنت
استقبل التوبة إليّ فقد تبّت عليك و أنا التوّاب الرحيم ، وهذا كلام مدلّ به وهارب
منه إليه وناظر به إليه . وفي الخبر إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن أشفى
على الهلكة : يا عبدي كم من ذنب واجهتني به غفرتك لك قد أهلكك بدونه أمة
من الأمم . فهذه سنّته في عباده بالفضل والتقديم و التأخير على ما سبقت به مشيئته

(٢) مريم : ١٥ .

(١) مريم : ٣٤ .

(٣) يوسف : ٨ .

الأزليّة وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنّة الله تعالى في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ^(١) وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول : « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ^(٢) وتارة يتعرف إليهم بأفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنّته في أنبيائه وأعدائه فيقول : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد - إرم ذات العماد » ^(٣) « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ^(٤) ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الارشاد إلى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنّته مع عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها النبي ﷺ بثلاث القرآن فقال : « من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » ^(٥) لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور لا يكون حاصلًا منه من هو من نوعه وشبهه و دلّ عليه قوله : « لم يلد » ، ولا يكون حاصلًا بمن هو نظيره وشبهه و دلّ عليه قوله : « ولم يولد » ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله و دلّ عليه قوله : « ولم يكن له كفواً أحد » و يجمع جميع ذلك قوله : « قل هو الله أحد » وجملته تفصيل قولك : « لا إله إلا الله » فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . و لذلك قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ثوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففقيه علم الأولين والآخرين » وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طال فكره في آحاد كلماته و صفا له فهمه حتّى تشهد له كل كلمة منه بأنّه كلام جبار قاهر مليك مقتدر وأنّه خارج عن حدّ استطاعة البشر وأكثر

(١) تمام سورة الاخلاص . (٢) الحشر: ٢٣ .

(٣) الفجر: ٦٥ . (٤) الفيل : ٢ .

(٥) أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب والبخارى نحوه ج ٦ ص ٢٣٢ من حديث

أبي سعيد الخدري .

أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكُن حريصاً على استنساظها لينكشف لك فيها من العجائب ما تستحقّر معها العلوم المخرقة الخارجة عنها فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه .

❖ (القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته) ❖

إعلم أن الرضا ثمرة من ثمرات المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله التأويل وفقّهه في الدين فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنّه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي ، وانخدع به قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لمادعا النبي ﷺ لابن عباس - رضي الله عنه - حيث قال : « اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل » (١) فلنبداً أولاً ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظنّ أنّه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

❖ (بيان فضيلة الرضا) ❖

أمّا من الآيات فقولته تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » (٢) وقد قال تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٣) ومنتهى الإحسان رضا الله تعالى عن عبده وهو ثواب رضا العبد عنه وقد قال تعالى : « ومساكن طيبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر » (٤) فقد رفع الله الرضا فوق جنّات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » (٥) فكما أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده وقد تقدم في العلم .

(٢) المائدة : ١٢٠ . (٣) الرحمن : ٦٠ .

(٤) التوبة : ٧٣ . (٥) العنكبوت : ٤٥ .

مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان وفي الحديث «إن الله عز وجل يتجلى للمؤمنين فقال : سلوني فيقولون : رضاك يا ربنا»^(١) فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل فلا رتبة فوق النظر إليه وإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر فلمّا أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلّموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال تعالى : «ولدينا مزيد»^(٢) وقال بعض المفسرين فيه : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها إحداها هدية الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها وذلك قوله تعالى : «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»^(٣) والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهداية وهو قوله تعالى : «سلام قولاً من رب رحيم»^(٤) والثالثة يقول الله تعالى : إنني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم وذلك قوله تعالى : «ورضوان من الله أكبر»^(٥) أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد ومعناه يقرب بما ذكرناه في حب الله تعالى للعبد ويجوز أن ينكشف عن حقيقته لقصور أفهام الخلق عن دركه ومن قوي عليه فيستقل بأدراكه من نفسه وأما رضا الخلق فسنذكر حقيقته .

وأما الأخبار في فضيلته فقد روي أن النبي ﷺ «سأل طائفة من أصحابه ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون فقال : ما علامة إيمانكم؟ قالوا : نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال : مؤمنون ورب الكعبة»^(٦) وفي خبر آخر أنه قال : «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»^(٧) وفي الخبر «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان رزقه كفافاً ، ورضي به»^(٨) وقال عليه السلام : «من رضي من الله

(١) قال العراقي : أخرجه البزار والطبراني في الاوسط من حديث أنس بسند فيه لين .

(٢) ق : ٣٥ . (٣) السجدة : ١٧ .

(٤) يس : ٥٨ . (٥) التوبة : ٧٣ .

(٦) تقدم في كتاب الصبر والشكر ج ٧ من ١٠٧ من حديث عطاء عن ابن عباس .

(٧) قد تقدم أيضاً . (٨) أخرجه الترمذي وقد تقدم .

عز وجل بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل»^(١) وقال أيضاً: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتبه فإن رضي اصطفا»^(٢) وقال أيضاً: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أُمّتي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقولون: هل جرّتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقولون لهم: هل رأيتم جهنّم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول لهم الملائكة: من أُمّة من أنتم؟ فيقولون: من أُمّة نوح، فتقولون: ناشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فتقولون: وما هما؟ فيقولون: كنّا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير ممّا قسم لنا، فتقول الملائكة: فحقّ لكم هذا»^(٣).

وقال عليه السلام: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تنظروا بواب فقركم وإلا فلا»^(٤). وفي أخبار موسى عليه السلام: «إن بني إسرائيل لما قالوا له عليه السلام سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى قل لهم: يرضون عني حتى أَرْضَى عنهم» ويشهد لهذا ما روي عن نبيّنا عليه السلام أنّه قال: «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ما لله تعالى عنده فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه»^(٥). وفي أخبار داود عليه السلام: «مالاً وليائي والهم بالدنيا إنّ الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، ياد داود إن محبّتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغمّون. وسئل عيسى عليه السلام ما أفضل الأعمال؟ فقال: الرضا عن الله والحب له.

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٧ باب القناعة.

(٢) تقدم آنفاً.

(٣) رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمى من حديث أنس مع اختلاف.

(٤) قد تقدم.

(٥) أخرجه الحاكم من حديث جابر بأدنى اختلاف في اللفظ وصححه وقد تقدم.

و روي أن موسى عليه السلام قال : يا ربّ دلّني على أمر فيه رضاك حتّى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : رضائي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره ، فقال : يا ربّ دلّني عليه ؟ فقال : إن رضائي في رضاك بقضائي . وفي مناجاة موسى عليه السلام أي ربّ أيّ خلقك أحبّ إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمني ، قال : فأيّ خلقك أنت عليه ساخط ، قال : من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له كره قضائي . وقد روي ما هو أشدّ منه وذلك أن الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي فليتبخذ ربّاً سواي^(١) ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا عليه السلام أنّه قال الله تعالى : قدّرت المقادير ودبّرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضا عنّي حتّى يلقاني ، ومن سخط فله المسخط منّي حتّى يلقاني^(٢) وفي الخبر المشهور « يقول الله عزّ وجلّ : خلقت الخير والشرّ فطوبى لمن خلّفته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلّفته للشرّ وأجريت الشرّ على يديه ، وويل ثمّ فيلّ لمن قال : لم وكيف^(٣) وفي الأخبار السالفة أن نبيّاً من الأنبياء شكّا إلى الله عزّ وجلّ الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب له ، ثمّ أوحى الله تعالى إليه كم تشكوني ولست أهلاً للذمّ والشكوى وأنت أحقّ بالذمّ والشكوى ، وهكذا كان بدؤك عندي في أمّ الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منّي وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدّل ما قدّرت عليه فيكون ماتحبّ فوق ما أحبّ و يكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزّتي وجلالي لأنّ اختلج هذا في صدرك مرة أخرى لأنحوّك من ديوان النبوة .

و روي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون

(١) قال العراقي : رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارقي مقتصراً على قوله : « من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتبسّ ربّاً سواي »
(٢) ما عثرت على هذا اللفظ .
(٣) رواه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي امامة باسناد ضعيف كما في المغني ورواه

الكليّني في الكافي ج ١ ص ١٥٤ باب الخير والشر عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض أولاده الكبار : يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيتَه عن هذا، فقال : يا بني إني رأيت ما لم تروا وعلمت ما لم تعلموا إني تحركت حركة واحدة فاهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرّك حركة أخرى فيصيبني ما لا أعلم .

و يروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فإن سلمت لما أريد كفيته ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد . وقال عليه السلام : « إن الله عز وجل جعل بحكمته و جلاله الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط » (١) . أقول : وأما الآثار التي ذكرها أبو حامد في هذا المقام فلمّا لم يكن فيها مزيد فائدة تركنا ذكرها .

❖ (بيان حقيقة الرضا وأصوره فيما يخالف الهوى) ❖

إعلم أن من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين أحدهما أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس به وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها فإذا رأى الدّم استدلل به على الجراحة بل الذي يعدوني شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألمه لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فيفرغ المزيت أو الحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، وكذا العاشق المستغرق الهم

(١) أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال : « جعل بقسطه » . (الغنى)

بمشاهدة معشوقة أو بحبته قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصوّر هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوة كما يتصوّر تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولا يحس بما يجري عليه فقد قيل : ضرب الحبيب لا يوجع ، وأما وجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راعياً فيه مريداً له أعني بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألمه إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقنّد من الفصاد والحجامة المنّة فهذا حالة الراضي بما يجري عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً ، بها ومهما أصابته بليّة من الله عزّ وجلّ وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادّخر له فوق ما فاته رضي به وراغب فيه وأحبه وشكر الله تعالى عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازي به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظّ المحبّ في مراد حبيبه ورضاه لا معنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً وكلّ ذلك موجود في المشاهدات في حبّ الخلق ، وقد توافها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصور الظاهرة المدركة بالصبر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد على لحم ودم مشحون بالأقدار وبالآخيات بدايته من نطفة مدرة ونهايته جيقة قدرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيراً فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً والبعيد قريباً والقبيح جميلاً وإذا تصوّر فيه استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حبّ الجمال الأزلي الأبدى الذي لا ينتهي لكماله

المدرّك بعين البصيرة التي لا يعترّيهما الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت
حيّة عند الله تعالى فرحة برزق الله مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف وهذا
أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال
المحبّين وأقوالهم .

قال بشر: قصدت عبّادان في بدايتي فإذا أنا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع
و النمل تأكل لحمه فرفعت رأسه و وضعت في حجره و أنا أردّد الكلام فلمّا أفاق
قال : من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربّي لوقطع عني إرباً إرباً ما ازددت له
إلا حبّاً ، قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربّه فأنكرتها ، و قال
أبو عمرو بن النّضر : إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلاّ
النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم بحاله
عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك و هو قطع النسوة
أيديهنّ لاستهنّتهنّ بملاحظة بحاله حتّى ما أحسن بذلك .

وقيل : إنّ يونس قال لجبرئيل عليه السلام : دلّني على أعبد أهل الأرض فدله على
رجل قد قطع الجذام يديه و رجله و ذهب ببصره و سمعه و هو يقول : إلهي متّعني
بها ماشئت أنت و سلّمتني ما شئت أنت و أبقيت لي فيك الأمل يا واصل .

و قال مسروق كان في بني إسرائيل رجلٌ بالبادية له كلبٌ و حمار و ديك
فالدّيك يوقظهم للصلاة و الحمار ينقلون عليه الماء و يحمل لهم خبأهم و الكلب
يحرسهم قال: فجاء الثعلب و أخذ الدّيك فحزنوا له و كان الرّجل صالحاً فقال : بقدر
عسى أن يكون خيراً ، ثمّ أصيب الكلب فقال : بقدر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ جاء
ذئب فحرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه ، فقال : بقدر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ
أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قدسبي من كان حولهم و بقوا هم ، قال : وإنّما أخذوا
أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلب و الحمار والدّيك و كانت الخيرة في هلاك
هذه الحيوانات كما قدّره الله ته الى فمن عرف خفيّ لطف الله رضي بفعله .

و يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضرّوب الجنين

بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه ، فقال له عيسى عليه السلام : يا هذا أي شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك فقال : يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه .

أقول: ثم ذكر أبو حامد حكايات وأقوالاً أخر من هذا القبيل ثم قال :
فاذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعاً أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حب الله عز وجل وحظوظ الآخرة قطعاً وإمكانه من وجهين أحدهما الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموعود كالرضا بالحجامة وشرب الدواء انتظار للشفاء ، والثاني الرضا به لا لحظ ورأه بل لكونه مراد المحبوب ورضى له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : « فما لجرح إذا أرضاكم ألم » وهذا ممكن مع الإحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والملاحظة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من فقد من نفسه لأنه إنما فقد لفقده سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه فقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت : علامة ذل الهوى على العاشقين البكا . ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى فقال لها الفتى : أحسنت والله يا سيدتي أفأذن لي أن أموت ؟ فقالت : مت راشداً ، قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحرق كناه فاذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلاً متعلقاً بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي فقال : قد

علم الله أنني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال : إن كنت صادقاً فمت قال : فتنتحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتاً . وقال سمنون المحب : كان في حيرتنا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيساً فبينما هو يحرك ما في القدر إذ قالت الجارية : آه ، قال : فدهش الرجل وسقطت المعلقة من يده وجعل الرجل يحرك ما في القدر بيده حتى تساقطت أصابعه فقالت الجارية : ما هذا ؟ فقال الرجل هذا من أجل قولك : آه .

وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال : رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول هذا البيت :

من مات عشقاً فليمت هكذا * لا خير في عشق بلا موت
ثم رمى بنفسه إلى الأرض فحملوه ميتاً ، فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق فالتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربوبية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ومن فقد السمع ينكر لذة الألحان والنعمة الموزونة فالذي فقد القلب لا بد أن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مطية لها سوى القلب .

﴿بيان ان الدعاء غير منافض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا﴾
وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وحسم أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه ، وقد غلط في ذلك قوم من البطالين المغترين وزعموا أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرت أدعية النبي وسائر الأنبياء ﷺ على ما نقلناه في كتاب الدعوات ولقد كان ﷺ في أعلى مقامات الرضا وقد أثنى الله عز وجل على بعض عباده بقوله : « يدعوننا رغباً و رهباً^(١) » وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا فقد تعبد الله عز وجل به عباده

وذمهم على الرضا بها فقال : « ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأننوا بها »^(١) وقال « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم »^(٢) وفي الخبر المشهور « من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله »^(٣) وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله »^(٤) وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه ، قيل : وكيف ذلك قال : فيبلغه فيرضى به . وفي الخبر « لو أن عبداً قتل بالمشرك ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكه في قتله »^(٥) وقد أمر الله عز وجل بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »^(٦) وقال : النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبتئها في الناس ويعلمها ، ورجل آتاه الله تعالى مالاً فسلطه على هلكته في الحق »^(٧) وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل : لو آتاني الله تعالى مثل ما أوتي هذا لفعلت مثل ما يفعل »^(٨).

وأما بعض الكفار والفجار والآنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »^(٩) وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض »^(١٠) وقال « كذلك نولّى بعض الظالمين بعضاً »^(١١) وفي الخبر « إن الله عز وجل أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ، وعلى كل

(١) يونس : ٧٠ . (٢) التوبة ٨٨ .

(٣) ما عثرت على لفظه نعم وردت أخبار كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذلك راجع وسائل عن الشيعة كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الباب الخامس .

(٤) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف .

(٥) رواه الصدوق في العيون والعلل عن الرضا عليه السلام في حديث .

(٦) المطففين : ٢٦ .

(٧) قد تقدم في كتاب العلم . (٨) تقدم أيضاً نحوه .

(٩) آل عمران : ٢٨ . (١٠) المائدة : ٥٦ .

(١١) الانعام : ١٢٩ .

منافق أن يبغض كل مؤمن»^(١) وقال أيضاً : « المرء مع من أحب »^(٢) وقال : **عَلَيْكُمْ** « من أحب قوماً والاهم حشر معهم يوم القيامة »^(٣) وقال **عَلَيْكُمْ** : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »^(٤) وشواهد هذا قد ذكرناها في باب الحب في الله والبغض في الله من كتاب آداب الصحبة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلانعيدها .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كرامة لقضاء الله تعالى فكيف السبيل إلى الجمع بينهما وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد فاعلم أن هذا ممّا يلتبس على الضعفاء القاصرين على الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاماً من مقامات الرضا وسمّوه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول : الرضا والكراهة متضادّان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد وليس من التضادّ في شيء واحد أن يكره من وجهه ويرضى به من وجهه إذ قديموت عدوك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث أنّه مات عدو عدوك وترضاه من حيث أنّه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله عز وجل من حيث أنّها فعله واختياره وإرادته فترضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضاه بما يفعله فيه وجه إلى العبد من حيث أنّها كسبه وصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغضاً عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكراً ومذموم ، ولا ينكشف هذا لك إلّا بمثال : فلنقرض محبوباً من الخلق قال :

(١) قال العراقي : لم أجده أصلاً .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک وقد تقدم .

(٣) رواه الطبرانی والضياء المقدسی عن أبي قرصافة بسند صحيح كما في الجامع

الصغير . ورواه ابن عدى من حديث جابر بسند ضعيف كما في المغنى .

(٤) رواه احمد وقد تقدم في آداب الصحبة .

بين أيدي محبته إنني أريد أن أميز بين من يحبني و يبغضني وأنصب فيه معياراً صادقاً ومميزاً ناطقاً وهو أنني أقصد فلاناً بما يؤذيه وأضر به ضرباً يضطره في ذلك إلى الشتم حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً لي فكل من أحبه فأعلم أنه أيضاً عدوي وكل من أبغضه فأعلم أنه صديقي ومحبي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إيائه لليغض والعداوة فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك، وأما شتمه وإيائك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث أنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك وأنا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدو عدواً وأما بغضك فإنني أراضه من حيث إنك أردت منه أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكنه أبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته إيائك وبغضه ومقته لك أيضاً مكروه عندي من حيث إنه وصف له وكل ذلك من حيث إنه مرادك مرضي وإنما التناقض أن يقول هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه، فأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصي فإذن تسليط الله تعالى دواعي الشهوة و

المعصية عليه حتى يجزّه ذلك إلى حبّ المعصية و يجزّه الحبّ إلى فعل المعصية
يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً ليجزّه الضرب إلى الغضب
والغضب إلى الشتم ومقت الله عزّ وجلّ لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبهه
بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنّما حصل بتدبيره واختياره لأسباب ذلك
وفعل الله ذلك بكلّ عبد من عبده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدلّ على أنّه
سبقته مشيئته بإبعاده ومقتته فواجب على كلّ عبد محبّ لله عزّ وجلّ أن يبغض من
أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبغضه عن حضرته وإن اضطرّ به بقهره وقدرته
إلى معاداته ومخالفته فإنّه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيداً بإبعاده
قهرًا ومطروداً واضطراً والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقبلاً ببغضه
إلى جميع المحبّين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب
عليه بإبعاده وبهذا يتقرّر جميع ما وردت به الأخبار في البغض في الله والحبّ في الله
والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله عزّ
وجلّ من حيث أنّه قضاء الله تعالى وهذا كلّه يستمدّ من سرّ القدر الذي لا رخصة
في إفشائه وهو أنّ الشرّ والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ولكنّ الشرّ
مراد مكروه والخير مراد مرضيٌّ به فمن قال : ليس الشرّ من الله تعالى وهو جاهل
وكذا من قال : إنّهما جميعاً منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضاً مقصّر
وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدّب بأدب الشرع فقد
قال عليه السلام : « القدر سرّ الله فلا تفشوه » ^(١) وذلك يتعلّق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن
بيان الإمكان فيما تعبّد به جميع الخلق في الجمع بين الرضا بقضاء الله ومقت المعاصي
مع أنّها من قضاء الله عزّ وجلّ وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السرّ فيه
وبهذا يعرف أيضاً أنّ الدّعاء للمغفرة والعصمة من المعاصي ولسائر الأسباب المعينة
على الدّين غير مناقض للرّضا بقضاء الله تعالى فإنّ الله عزّ وجلّ تعبّد العباد
بالدّعاء ليستخرج الدّعاء منهم صفاء الذّكر وخشوع القلب ورقّة التضرّع ويكون

(١) أخرجه ابونعيم في الحلية من حديث ابن عمر ، وقد تقدم .

ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز و شرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش و شرب الماء طلب لإزالة العطش ومباشرة سبب رتبته مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبته الله تعالى وأمر به .

وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق بالتوكل ويتصل به ، نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض فيه وقد قال السلف : من حسن الرضا بقضاء الله أن لا يقول : هذا يوم حار أي في معرض الشكوى وذلك في الصيف ، فأما في الشتاء فهو شكر و الشكوى مناقض للرضا بكل حال و ذم الأطعمة و عيبها يناقض الرضا بقضاء الله لأن مذمة الصنعة مذمة الصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل : الفقر بلاء و محنة ، و العيال هم وتعب و الاحتراف كد و مشقة ، كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديبره و المملكة لمالكها و يقول ما قال بعض الصحابة : لا ابالي أصبحت غنياً أو فقيراً فإني لا أدري أيهما خير لي .

❦ (بيان ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي) ❦

❦ (ومذمتها لا يقدح في الرضا) ❦

إعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى النبي ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى و ذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء و بقي فيه المرضى المطعونون مهملين لا متعهدين لهم فيهلكون هزلاً و ضراراً ولذلك شبهه النبي ﷺ بالفرار

(١) النهي عن الفرار من الطاعون أخرجه مسلم ج ٧ ص ٢٧ من حديث أسامة بن زيد .

في بعض الأخبار بالفرار من الزحف^(١) ولو كان ذلك من القضاء لما أذن لمن قارب البلد في الانصراف عنه وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل ، وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار منها ومن كل ما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فمازال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفقت جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها .

فقال ابن المبارك : طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد قيل : و كيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ، ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : ما رأيت به إلا شريطاً غضباناً أو تاجراً لهفاناً أو قارياً حيران ، ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به بل قصد بذلك تحذير الناس ، فهذا يدل على أن من سكن ببلدة تكثرت فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذره في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر ، قال الله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »^(٢) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئناً النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزع القلب منها قائلاً على الدوام « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » . وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر على الجميع وشمل المطيعين والعاصين قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »^(٣) فإذن ليس في شيء من أسباب نقصان الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله فأما هي في أنفسها فلا وجه للرضا بها بحال ، وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل مقامات ثلاثة : رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال : لأختار شيئاً بل أَرْضَى بما اختاره الله تعالى ، ورفعت هذه المسألة

(١) تقدم في كتاب آداب السفر ج ٤ ص ٥٢ . وأخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ص ١٤٥ .

(٢) النساء : ٩٩ .

(٣) الانفال : ٢٥ .

إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولاً .
أقول : ثم ذكر أبو حامد جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم و
كلمات متفرقة كما وعده في أوّل الكتاب ولمّا كان بعضها في معنى ما ذكر وبعضها
مما كرّر وكان سائرها دعاوي لا وثوق بصحتها ولا بحال من ادّعاها و كان بعضها
يناقض بعضاً وبعضها ينقض بعض ظواهر الشرع نقضاً ضربنا عنها صفحاً وطويناعنها
كشعراً إذ لا فائدة في سماع ما هو من قبيل الشطح والطامات وما صدر على سبيل
الزّهو والرّعونات وإن صحّت فينال أمثالها من كان من أهلها ورجالها ولنختم
الكتاب بحديث أورده أبو حامد في جملة ما تركناه نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام
قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله عن سنّته فقال : المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، و
الحب أثاثي ، والشوق مركبي ، وذكر الله عزّ وجلّ أنيسي ، والثقة كنزي ، و
الحزن رفيقي ، والعمل سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والفقر فخري ،
والزهد حرفتي ، واليقين قوّتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة جنّتي ، والجهد
خلقي ، و قرّة عيني في الصلاة ^(١) .

ثمّ كتاب المحبة وتوابعها من المحجّة البيضاء على يد مؤلّفه محسن بن مرتضى
جعل الله من المحبين له المشتاقين إليه الآنين به الراضين بقضائه بمنّته وكرمه .
ويتلوه كتاب النية والصدق والإخلاص إن شاء الله تعالى .



(١) قال العراقي : ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام ولم
أجد له اسناداً .

كتاب النية والصدق والاخلاص

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء، في تهذيب الأحياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقرُّ بوحدانيته إقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله إلا الله ربُّ العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجنِّ والانس والملائكة المقرَّبين أن يعبدوه عبادة المخلصين . فقال : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ^(١) فما لله إلا الدين الخالص المتين فإنه أغنى الأغنياء عن شرِّكة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيّد المرسلين وعلى جميع النبيّين وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين .

أما بعد فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، والناس كلّهم هلكت إلا العالمين ، والعالمون كلّهم هلكت إلا العاملين ، والعالمون كلّهم هلكت إلا المخلصين ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالعمل بغير نيّة عناء و النية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق و تحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى في كلِّ عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً « وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ^(٢) فليت شعري كيف يصحّح النية من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحّح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقّق معناه فالوظيفة الأولى على كلِّ عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلّم النية أولاً لتحصل المعرفة ثمَّ يصحّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق و

الاحلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة والاحلاص ، ونحن نذكر معاني النية والصدق والاحلاص في ثلاثة أبواب إن شاء الله : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها ، الباب الثاني في الاحلاص وحقائقه ، الباب الثالث في الصدق وحقيقته .

الباب الأول في النية ، وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيراً من العمل ، وبيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية وبيان خروج النية عن الاختيار .

﴿ بيان فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » ^(١) والمراد بتلك الإرادة هي النية . وقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(٢) وقال ﷺ : « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتييل بين الصفيين الله أعلم بنيته » ^(٣) وقال عز وجل : « إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ^(٤) فجعل النية سبب التوفيق وقال ﷺ : « إن الله عز وجل لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ^(٥) و إنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية . وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل عملاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف محتمة فتلقى بين يدي الله عز وجل فيقول : ألقوا هذه الصحيفة فإن الله لم يرد بها فيها وجهي ، ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا فنقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول : إنه نواه إنه نواه » ^(٦) وقال ﷺ : « الناس أربعة : رجل

(١) الانعام : ٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ج ١ ص ٢٢ وقد تقدم كراراً .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج ١ ص ٣٩٧ من حديث ابن مسعود .

(٤) النساء : ٣٤ . (٥) أخرجه مسلم وقد تقدم .

(٦) قال العراقي : أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن .

آتاه الله تعالى علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجلٌ : لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤتته علماً وهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجلٌ : لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء. ^(١) ألا ترى كيف شرّكه بالنية في محاسن عمله و مساويه ، ولما خرج النبي ﷺ في غزوة تبوك قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيب الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا في ذلك و هم في المدينة : قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ فقال : حبسهم العذر فشركونا بحسن النية » ^(٢) وفي الخبر « إن رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار » ^(٣) لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه و حماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيّته . وهاجر آخر ليتزوج امرأة فكان يسمّى مهاجر أمّ قيس ^(٤) . وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ « من غزا وهو لا ينوي إلا عقلاً فله مانوى » ^(٥) وقال أبي : « استعنت برجل ليغزو معي فقال : لا حتّى تجعل لي جعلاً فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له » ^(٦) .

و روي في الإسرائيليات أن رجلاً مرّ بكتبان رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له :

- (١) أخرجه ابن ماجه فى باب النية تحت رقم ٤٢٢٨ . وفيه « مثل هذه الامة كمثل أربعة نفر - الخبر » من حديث ابي كبشة الانمارى .
- (٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣١ مختصراً وأخرجه أبو داود هكذا « ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا انفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادى الا وهم معكم » قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم المرض » .
- (٣) رواه أبو اسحاق الفراءى مرسل فى السنن (المغنى) .
- (٤) أخرجه الطبرانى باسناد جيد كما فى المغنى .
- (٥) أخرجه النسائى فى السنن ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة .
- (٦) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين وروى نحوه عن عوف بن مالك كما فى معجم الزوائد .

إن الله قد قبل صدقتك و شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به و قد ورد في أخبار كثيرة « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة »^(١) وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم الصالح ؟ فقال : « يحشرون على نياتهم »^(٢) وقال ﷺ : « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل للحمية ، فلان يقاتل للعصبية ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله فمن قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^(٣) .

و عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »^(٤) وفي حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه أراد قتل صاحبه »^(٥) وفي الحديث « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ، و من أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق »^(٦) .

وقال ﷺ : « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة و ريحه أنتن من الجيفة »^(٧) .
أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام

- (١) متفق عليه وقد تقدم ، ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٤٢٨ .
- (٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٤٢٣ و قد تقدم .
- (٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري .
- (٤) رواه مسلم في صحيحه ج ٨ ص ١٦٥ .
- (٥) أخرجه البخاري في الصحيح ج ٩ ص ٦٤ .
- (٦) أخرجه أحمد ج ٤ ص ٣٣٢ من حديث صهيب بن سنان .
- (٧) قال العراقي : رواه أبو الوليد الصنفار في كتاب الصلاة من حديث إسحاق بن أبي طلحة .

قال : « لا عمل إلا بنية » (١).

وعن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله ، وكل عامل يعمل على نيته » (٢).

وعنه عليه السلام قال : « إن العبد المؤمن الفقير ليقول : يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير ، فإذا علم الله تعالى ذلك منه بصدق نية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إن شاء الله واسع كريم » (٣).

وعنه عليه السلام إنه سئل عن حدّ العبادة التي إذا فعلها فاعلمها كان مؤدّيّاً؟ فقال : « حسن النية بالطاعة » (٤).

وعنه عليه السلام قال : « إنّما خلد أهل النار في النار لأنّ نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله تعالى أبداً و إنّما خلد أهل الجنة في الجنة لأنّ نياتهم كانت في الدنيا أن لوبقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثمّ تلا قوله تعالى : « قل كلّ يعمل على شاكلته » (٥) قال : يعني على نيته » (٦).

ثمّ ذكر أبو حامد الآثار ولمّا لم يكن فيها زيادة فائدة على ما ذكر تر كناها .

❦ (بيان حقيقة النية) ❦

إعلم أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل فالعلم يتقدّم لأنّه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنّه ثمرته وفرعه وذلك لأنّ كلّ عمل أعني كلّ حركة وسكون اختياري فإنّه لا يتمّ إلا بثلاثة أمور علم وإرادة وقدرة لأنّه لا يريد الإنسان مالم يعلمه فلا بدّ أن يعلم ولا يعمل مالم يرد فلا بدّ من إرادة ومعنى الإرادة انبعث القلب إلى ما يراه

(١) و (٢) المصدر ج ٢ ص ٨٤ تحت رقم ١ و ٢ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٣ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٤ .

(٥) الاسراء : ٨٤ .

(٦) الكافي ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٥ .

موافقاً للغرض ، إمّا في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالقه بعض الأمور فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع المضارّ المنافي عن نفسه فإذن لابدّ من معرفة وإدراك للشيء المضرّ والنافع حتّى يطلب ويهرب فإنّ من لا يدرك الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواسّ الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ، ثمّ لو أبصر الغذاء وعرف أنّه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إلى الغذاء وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنّه موافق له ولا يمكنه تناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الدّاعية المحرّكة إليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة وأعني بها نزوعاً في نفسه إليه وتوجّهاً في قلبه إليه ، ثمّ ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنياً ، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحرّكة حتّى يتمّ بها التناول والعضو لا يتحرّك إلّا بالقدرة والقدرة تنتظر الدّاعية الباعثة والدّاعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظنّ والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له وإذا جازمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولا بدّ أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقّق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة ، فالنية عبارة عن الصفة المتوسّطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إمّا في الحال أو في المآل ، فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنويّ والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلّا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد فإذا كان بباعثين فقد يكون كلّ واحد بحيث لو انفرد كان مليّاً بانهاض القدرة ، وقد يكون كلّ واحد قاصراً عنه إلّا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافياً لو لا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة

أقسام فلنذكر لكل واحد مثلاً وإسماً ، أمّا الأوّل فهو أن ينفرد الباعث الواحد و يتجرّد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلّما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنّه رأى السبع وعرفه ضارّاً فانبعث نفسه على الهرب وركبت فيه القدرة فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقيم لطلب الفرار من السبع لا نيّة له في القيام لغيره وهذه النية تسمّى خالصة و تسمّى العمل بموجبها إخلاصاً بالاضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنّه خلص عن مشاركة غيره وبمازجته ، الثاني هو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقلّ بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كانت كافية من الحمل لو انفردت ومثاله في غرضنا أن من له قريب فقير يعرض حاجته فيقضيها لفقره و قرابته وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنّه لو لا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنيّ فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنيّ فيرغب أيضاً فيه ، وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام و هو يعلم أنّه لو لا عرفة لكان يترك الطعام حمية ولو لا الحمية لكان يترك لأجل أنّه عرفة وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل و كان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسّم هذا موافقة البواعث ، الثالث أن لا يستقلّ كل واحد لو انفرد و لكن يقوى مجموعهما على إنهاض القدرة ، و مثاله من المحسوسات أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به أحدهما ، ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغنيّ ليطلب درهماً فلا يعطيه ويقصده الأجنيّ الفقير ليطلب منه درهماً فلا يعطيه ، ثم يقصده الفقير القريب فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين هما القرابة والفقر ، وكذلك الرّجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ، و لو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرّياء على العطاء ولمّا اجتمعا أورتاً بمجموعهما تحريك القلب و لنسّم هذا الجنس مشاركة ، والرّابع أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه و الثاني لا يستقلّ ولكن لمّا انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل

ومثاله من المحسوس أن يعاون الضعيف الرّجل القويّ على الحمل ولو انفرد القويّ لاستقلّ ولو انفرد الضعيف لم يستقلّ فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثّر في تخفيفه ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان وردّ في الصلوات وعادة في الصدقات فاتّفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخفّ عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنّه لو كان منفرداً خالياً لم يفرعن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّداً الرّياء يحمله عليه فهو شوب تطرّق إلى النية ولنسمّ هذا الجنس المعاونة ، فالباعث الثاني إمّا أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً وسنذكر حكمها في باب الاخلاص وغرضنا الآن بيان أقسام النيات فإنّ العمل تابعٌ للباعث عليه فيكتسب الحكم منه فلذلك قيل : إنّما الأعمال بالنيات لأنّها تابعة لاحكام لها في نفسها وإنّما الحكم للمتبوع .

﴿بيان سرّ قوله عليه السلام «نية المؤمن خير من عمله (١)»﴾

إعلم أنّه قد يظنّ أن سبب هذا الترجيح أن النية سرٌّ لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر وفعل السرّ أفضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنّه لو نوى أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكّر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نيّته للتفكّر خيراً من التفكّر وقد يظنّ أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خيرٌ من القليل بل ليس كذلك فإنّ نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضي أن يكون نيّته خيراً من عمله ، وقد يقال : معناه أن النية بمجرّدها خيرٌ من العمل بمجرّده دون النية وهو كذلك ولكنّه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلا نية بل على الغفلة لا خير فيه أصلاً والنية بمجرّدها خيرٌ و ظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير بل المعنى به أن كلّ طاعة ينتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات

(١) أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد والبيهقي في الشعب من حديث أنس

بسند ضعيف كما في الجامع الصغير ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٨٤ .

ولكن النية من جملة الطاعات خيرٌ من العمل أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خيرٌ من عمله الذي هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه .

أقول: المخبر معنى آخر وهو أن المؤمن ينوي أن يوقع عباداته على أحسن الوجوه ثم لما اشتغل بها فلا يتيسر له ذلك ويكسل عنها ولم يأت بها على ما ينبغي فالذي ينوي خيرٌ من الذي يعمل وأيضاً ينوي أبدأً أن يأتي بالطاعات والقربات و يجتنب المعاصي والسيئات لا يمانه بالله واليوم الآخر ثم لا يوفق لذلك ولا يتأتى منه ما نواه ، وينوي إن آتاه الله مالاً ينفقه في سبيله ثم لما آتاه فربما ينحل به فنيته خيرٌ من عمله وإلى هذا المعنى أشار أبو جعفر الباقر عليه السلام حيث كان يقول « نية المؤمن خيرٌ من عمله ، وذلك لأنه ينوي من الخير ما لا يدركه ، ونية الكافر شرٌ من عمله وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه » ^(١) وسئل الصادق عليه السلام عن معنى الحديث فقال : « لأن العمل رياء المخلوقين والنية خالصة لرب العالمين فيعطى عز وجل على النية ما لا يعطى على العمل » ^(٢) وقال : « إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فيغلبه عينه فينام فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » ^(٣)

قال أبو حامد : وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهم إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الإيصال إلى المقصود وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود ، ومن قال : الخبز خيرٌ من الفالودج فإِنما يعني به أنه خيرٌ بالإضافة إلى مقصود القوت والغذاء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية

(١) و (٢) رواهما الصدوق في كتاب علل الشرايع الاول من حديث الحسن بن الحسين الانصارى عن رجل ، والثاني من حديث زيد الشحام .
(٣) أيضاً في الملل .

مختلفة الآثار فيهما ، وفهم أثر كل واحد وقاس البعض ببعض فالتطاعات غذاء القلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله عز وجل فالمقصود لذّة السعادة بلقاء الله تعالى فقط ولن يتنعم بلقاء الله تعالى إلا من مات محباً لله عارفاً بالله ولن يحبّه إلا من عرفه و لن يأنس به إلا من طال ذكره له والانس يحصل بدوام الذّكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذّكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عن شهواتها حتّى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بهما كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتّى تترسخ الصفة وتقوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً فإن اتّبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرئاسة والأعمال المطلوبة لها تأكّد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً فلواتّبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة تأكّد ميله حتّى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى طبعه وميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك زجراً ودفعاً في وجهه حتّى يضعف وينكسر بسببه أو ينقوع و ينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلّها هي التي تراد بها الآخرة والشروع كلّها تراد بها الدنيا لا الآخرة وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيا هو الذي يفرغها للذّكر والفكر ولن يتأكّد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ، لأنّ بين الجوارح وبين القلب علاقة حتّى أنّه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها

القلب وترى القلب إذ تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعاة والاتباع، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيها فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ولذلك قال عليه السلام: «إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد»^(١) وقال عليه السلام: «اللهم أصلح الراعي والرعية»^(٢) وأراد بالراعي القلب قال الله تعالى: «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»^(٣) وهو صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكّد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكبّ على الذكرو الفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكّن من نفس المقصود وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من الطلاء للمصدر لأنّ طلاء الصدر أيضاً إنّما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة فما يلاقي في عين المعدة فهو خير وأنقع فهكذا ينبغي أن يفهم تأثير الطاعات كلّها إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبدّل صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظننّ أن في وضع الجبهة على الأرض غرضنا من حيث إنّها جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنّها بحكم العادة يؤكّد صفة التواضع في القلب فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استعان بأعضائه وصوّرها بصورة التواضع تأكّد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقّة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكّدت الرقّة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنّه يمسح

(١) متفق عليه من حديث نعمان بن بشير.

(٢) قال العراقي: لم أجده وقد تقدم.

(٣) الحج: ٣٨.

ثوباً لم يسر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقّة ، وكذلك من سجد غافلاً وهو مشغول بهم بأغراض الدنيا لم يسر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع وكان وجوده كعدمه وما يساوي وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة فإن قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها بل أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيراً من العمل وبهذا يعرف معنى قوله ﷺ : « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهو غاية الحسنات وإنما الإتمام بالعمل يزيد لها تأكيداً فليس المقصود من إرادته دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلك إثارة لوجه الله عز وجل وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى هنا أعني في القلب ولذلك قال ﷺ : « إن قوماً بالمدينة وقد شاركونا في الجهاد ، كما رويناه لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله عز وجل كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذا يفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فأعرضنا عليه لتكشف لك أسرارها فلا تطول بالاعادة .

﴿ بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية ﴾

إعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب نفع ودفع ضرر وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام معاصي وطاعات ومباحات .

القسم الأول المعاصي وهي لا يتغير موضوعاتها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل

ذلك من عموم قوله ﷺ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » ويظنُّ أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجداً ورباطاً بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل و النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها حراماً وظلماً وعدواناً ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فالخيرات إنما عرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشرُّ خيراً هيئات بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة و باطن الهوى فإن القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس و سائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ، و لذلك قال سهل : ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل فقليل له : يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن ظن بنفسه أنه عالم كيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل فإن من لا يعرف العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المخرقة التي هي وسائلهم إلى الدنيا و ذلك هو مادة الجهل و منبع فساد العالم و المقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة التعلم وقد قال تعالى : « فاسألوا أهل الذِّكْر إن كنتم لاتعلمون »^(١) و قال ﷺ : « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه »^(٢) و يقرب من تقرُّب السلاطين ببناء المساجد و المدارس بالمال الحرام تقرُّب علماء السوء بتعليم العلم السفهاء و الأشرار المعروفين

(١) النحل : ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وابن السنن وابو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله : « لا يعذر الجاهل على الجهل » وفيه « لا ينبغي بدل » لا يعذر « وقد تقدم في العلم .

بالفجور والقاصرين همّتهم على مماراة العلماء و مباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس و جمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين والمساكين واليتامى فإن هؤلاء إذا تعلّموا كانوا قطاع طريق الله و انتفض كل واحد في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتّبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجري الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ثم ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة و وسيلة في الشر و اتّباع الهوى ويتسلسل ذلك و وبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علّمه العلم مع علمه بفساد نيته و قصده و مشاهدته أنواع المعصية في أقواله و أفعاله و في مطعمه و ملبسه ومكسبه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شرّه منتشرة في العالم ألف سنة وألفي سنة مثلاً، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثم العجب من جهله حيث يقول : « الأعمال بالنيات » و قد قصدت بذلك نشر علم الدين فإن استعمله هو في الفساد فاطمعية منه لا منّي و ما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإنما حب الرئاسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلّق بأخلاق الله عز وجل و قصدت به أن يغزو بهذا السيف والخيّل في سبيل الله فإن إعداد الخيل للربّ باطو والقوة للغزاة من أقرب القربات فإن صرفه هو إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتّى قال ﷺ : « إن لله ثلاثمائة خلق من تقرّب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبّها إليه السخاء » (١) فليت شعري لم حرّم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنّه يستعين بالسلاح على الشرّ فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمدّه بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله تعالى و هو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته و هو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكّن

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث أنس مرفوعاً باختلاف في اللفظ . (المعنى)

به من الوصول إلى شهواته ، بل لم يزل علماء السلف يتفقّدون أحوال من يتردّد إليهم فلو رأوا من واحد منهم تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذا رأوا منه فجوراً أو استحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه لعلمهم بأن من تعلّم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشرّ وقد تعوّد جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وماتعواذوا من الفاجر الجاهل ، فهذا وأمثاله ممّا يلتبس على الأغبياء و أتباع الشيطان وإن كانوا أبواب الطيالة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر منها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله ﷺ : « الأعمال بالنيّات » يختصّ من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد وتكون طاعة بالقصد والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم النية داخلة فيها وهو أنّه إذا انضافت إليها قصود الخبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

القسم الثاني الطاعات وهي مرتبطة بالنيّات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها أمّا الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لا غير فإن نوى الرّياء صارت معصية وأمّا تضاعف الفضل فبكثرة النيّات الحسنة وإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكلّ نية ثواب إذ كلّ واحدة منها حسنة فتضاعف كلّ حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر ومثالها القعود في المسجد فإنّه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيّات كثيرة حتّى يصير من فضائل أعمال المتّقين ويبلغ به درجات المؤمنين أوّلها أن يعتقد أنّه بيت الله وأنّ داخله زائر لله تعالى فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده النبي ﷺ حيث قال : « من دخل ^(١) المسجد فقد زار الله عزّ وجلّ وحقّ على المزور

(١) في الاحياء > من قعد > .

إكرام زائره» ^(١) و ثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون من جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى : « و رابطوا » ^(٢) و ثالثها الترهّب بكفّ السمع و البصر و سائر الأعضاء عن الحركات و الترددات فإنّ الاعتكاف كفّ و هو في معنى الصوم و هو نوع ترهّب و لذلك قال عليه السلام : « رهبانة أمتي القعود في المساجد » ^(٣) و رابعها عكوف الهمّ على الله تعالى و لزوم السرّ للفكر في الآخرة و دفع الشواغل الصارفة عنه باعتماله إلى المسجد ، و خامسها التجرّد لذكر الله أو الاستماع لذكره أو للتذكّر به كما روي « من غدا إلى المسجد ليذكر الله عزّ وجلّ أو يذكر به كان كالجهاد في سبيل الله » ^(٤) و سادسها أن يقصد إفادة علم الله عزّ وجلّ بأمر معروف أو نهي عن منكر إذا المسجد لا يخلو عن من يسيء صلاته أو يتعاطى ما لا يحلّ له فيأمره بالمعروف و يرشده إلى الدّين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يتعلّم منه فتضاعف خيراته ، و سابعها أن يستفيد أخافى الله فإنّها غنيمة و ذخيرة للدّار الآخرة ، و المسجد معشّش أهل الدّين المحبّين لله في الله تعالى ، و ثامنها أن يترك الذّنوب حيّاء من الله عزّ وجلّ و حيّاء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة و قد قال الحسن بن عليّ عليه السلام : « من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال أخاً مستفاداً في الله أو رحمة منزلة أو علماً مستطرفاً أو كلمة تدلّه على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذّنوب خشية أو حيّاء » ^(٥).

أقول: هذا الحديث روّيناه من طريق الخاصة عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(٦)

(١) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان و للبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بأسناد صحيح و قد تقدّم .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

(٣) قال العراقي : لم اجد له أصلاً .

(٤) قال العراقي : هو معروف من قول كعب الاحبار و روّيناه في جزء ابن طوق .

(٥) رؤاه الحميري في قرب الاسناد بنحوه عن الحسين بن عليّ عن جده عليهم السلام

و أيضاً البرقي في المعاسن .

(٦) رواه الشيخ في التهذيب ج ١ ص ٣٢٤ باب فضل المساجد .

هكذا قال : « من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان أخاً مستفاداً في الله أو علماً مستطرفاً أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدلّه على هدى أو كلمة تردّه عن ردى أو رحمة منتظرة أو يترك ذنباً خشية أوحياً » .

قال أبو حامد : فهذا طريق تكثير النيات وقس عليه سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمّمه له وتفكره فيه فهذا تزكوا لأعمال وتتضاعف الحسنات .

القسم الثالث المباحات وما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال معالي الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقّر العبد شيئاً من الخطرات واللحظات فكلّ ذلك يسأل عنها يوم القيامة أنّه لم فعلها وما الذي قصد بها هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ، ولذلك قال عليه السلام : « حلالها حساب وحرامها عذاب » ^(١) وفي الخبر « من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » ^(٢) واستعمال الطيب مباح ولكن لا بدّ فيه من نية . فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظّ من حظوظ النفس وكيف يتطيّب لله تعالى ؟ فاعلم أنّ من تطيّب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعّم بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به رثاء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودّد في قلوب النساء الأجنبية إذا كان متهيّئاً للنظر إليهنّ أو لأُمور آخر لا تحصى وكلّ ذلك يجعل التطيّب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة لا بالقصد الأوّل وهو التلذّذ والتنعّم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلاّ أنّه يسأل عنه « ومن نوقش في الحساب عذّب » ومن أوّتي شيئاً من مباح الدنيا لم يعدّ عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم يبقى وأمّا النيات الحسنة فإنّه ينوي به اتّباع سنة النبيّ

(١) قد تقدم .

(٢) ما عثرت على أصل له .

ﷺ يوم الجمعة ، وأن ينوي به تعظيم المسجد واحترام بيت الله عز وجل فلا يرى أن يدخله زائر الله عز وجل إلا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤذي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد به حسم باب الغيبة على المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله عز وجل بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل :

مهما ترحلت عن قوم وقد قدروا ✽ ألا تفارقهم فالرحل احلون هم
وقال عز وجل : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً
بغير علم » (١) أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصد به معالجة دماغه
لتزيد به فطنته وذكأؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، وقد قيل : من طاب
ريحه زاد عقله ، فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة
و طلب الخير غالباً على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه
النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس و
ليس ذلك من النية في شيء ، والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس
على هذا الواحد غيره ، ولهذا قال بعض السلف : إنني لأستحب أن يكون لي في
كل شيء نية حتى في أكلتي وشربي ونومي ودخولي الخلا ، وكل ذلك مما يمكن
أن يقصد به وجه الله لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات
البدن فهو معين على الدين ، فمن كان قصده من الأكل التقوي به على العبادة و
من الوقاع تحصين دينه وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى ولد يعبد الله فيكثر به أمة
محمد ﷺ كان مطيعاً بأكله ونكاحه ، وأغلب حفظ النفس الأكل والوقاع وقصد
الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، وكذلك ينبغي أن يحسن
نيته مهماضاع له مال ويقول هو في سبيل الله ، وإذا بلغه اغتيال غيره له فليطيب
قلبه بأنه سيجمل عنه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن

الجواب ففي الخبر « إنَّ العبد ليحاسب فيبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما تستوجب به الجنة فيتعجب و يقول : يا رب هذه أعمال ما عملتها فيقال هي أعمال الذين اغتابوك و آذوك وظلموك ^(١) » و في الخبر « إنَّ العبد ليوافي القيامة بحسنة أمثال الجبال لو خلاصت له لدخل الجنة و يأتي قد ظلم هذا و شتم هذا و ضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فنقول الملائكة : قد فنيت حسناته و بقي طالبون فيقول الله عز وجل : ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار ^(٢) » و بالجملة فإيتاك ثم إيتاك أن تستحق شيئاً من حر كاتك فلا تحذر من غرورها و شرورها ولا تجد لها جواباً يوم السؤال و الحساب فإن الله مطلع عليك و شهيد و ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، فإن كنت أولي الحزم والنهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن و دقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك و راقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولاً إنك لم تتحرك وماذا تقصد و ما الذي تنال به من الدنيا و ما الذي يفوتك به من الآخرة و بما ذا ترجح الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك و ما خطر ببالك و إلا فامسك ثم راقب قلبك أيضاً في إمساكك و امتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة ولا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفياً لا تطلع عليه ولا يغرك ظواهر الأمور و مشهورات الخيرات و انظر إلى الأغوار و الأسرار تخرج من حيز أهل الاعتذار فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقد موا له رغبين إذ كان لا يأكل إلا من كسب يديه فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي مختصراً « ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول : هذا لي ولم أعملها ؟ فيقال : بما اغتابك الناس وأنت لا تشكر » وفيه أبي لهيعة (المغنى) .

(٢) تقدم مع اختلاف .

الطعام حتى فرغ منه فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال : إنني أعمل لقوم بأجرة وقد موا إلي الرغيفين لا تقوئي بهما على عملهم فلوا كلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنور الله فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض، فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

❖ بيان ان النية غير داخله تحت الاختيار ❖

إعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله عليه السلام: الأعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرس لله تعالى أو أتجر أو آكل و يظن أن ذلك نية وهيات فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو فكرة و انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل عن جميع ذلك وإنما النية انبعث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه و اكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبعمان : نويت أن اشتهى الطعام و أميل إليه أو قول الفارغ : نويت إن أعشق فلاناً و أحبته وأعظمه بقلبي و ذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء، وميله إليه و توجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما ينبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث للموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فأنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت و الدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح و لم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولادنياً لم يمكنه إن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية

هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح أتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لم يمكنه أن ينوي اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض وليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أولاً إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ ويدفع عن نفسه جميع المنقرات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب وغيره وإذا فعل ذلك ، فربما انبعثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للشواب فتحركت له تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد وإذا انتهت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً وإذا لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردّه في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنعت جماعة من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس يحضرني نية حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس تحضرني نية .

أقول : ولعله إنما لم يصل على جنازته لأنه كان يعرفه بالنفاق فتعلل . قال أبو حامد : وكانوا إذا سئلوا عملاً من أعمال البر قالوا : إن رزقنا الله تعالى نية فعلنا . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعبادة رجل منذ شهر فما صححت لي بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ فقال : ليس من نيتي .

أقول : روى البرقي بإسناده عن الصادق عليه السلام أنه أتاه مولى له فسلم عليه و جلس فلما انصرف عليه انصرف معه الرجل فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل فقال له ابنه إسماعيل : يا أبه ألا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأني إدخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يا بني إني أكره أن يكتنبي الله عزاً (١) .

قال أبو حامد : وهذا لأن النية يتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية

فكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بالنية لعلمهم بأن النية روح الأعمال وأن العمل بغير نية صادقة رياء و تكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هي انبعث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى قد يتيسر في بعض الأوقات وقد يتعذر نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين يتيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر ذلك بل لا يتيسر في الفرائض إلا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية إجلال الله عز وجل لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا يتيسر للرأغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز من يفهمها فضلاً عما يتعاطاها ونيات الناس في الطاعة أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا أمرسواه فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعد في الآخرة وإن كان من جنس المألوف في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن و موضع قضاء وطرهما الجنة والعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء، ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعلمه إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوي الألباب فلا تتجاوز ذكر الله تعالى و الفكر فيه حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكّدات و روافد وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح و المطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدها بل هم «الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي» يريدون وجهه، فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيراً من التفاوت

بين جمال الجوار العين و الصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضها عن جمال وجه الله الكريم يضاهاى استعظام الخنفساء لصاحبها و ألفها لها و إعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إبطار جمال الله عز وجل وجل وجله يضاهاى عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لاتشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه ولو كان له عقل وذكرن لها لاستخف عقل من يلتفت إليهن ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها و معرفة هذه الحقائق تورث أفعالاً و أفعالاً يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فإننا نقول من حضرت له نية في مباح و لم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم فإنه ربما تحضره نية في الانتصار دون العفو يكون ذلك أفضل و مثل أن يكون له نية في الشرب والأكل والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادة في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والنوم هو الأفضل له بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعف رغبته و علم أنه لو تفرغه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو والحديث أفضل من الصلاة ، وقال أبو الدرداء : إنني لأستجم نفسي باللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي عليه السلام : «روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت» (١) وهذه دقائق يدركها سماسة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما ينبغي به أن يعيد أولاً قوته ليحتمل المعالجة بالصد ، والحاذق في الشطرنج قد ينزل عن الرخ والفرس مجتأناً ليتوصل به إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يرى من نفسه الهزيمة ويولّي الخصم دبره ليستجره إلى مضيق فيكره عليه فكذلك سلوكك لاريق الله عز وجل

كله قتال مع الشيطان و معالجة للقلب ، و البصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه و لا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف حدً بصيرته و ما لا يفهمه من أحوالهما يسلمهما لهما إلى أن ينكشف له أسرارهما بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتتهما .

❖ (الباب الثاني) ❖

❖ (في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته) ❖

فضيلة الاخلاص قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ^(١) و قال : « ألا لله الدين الخالص » ^(٢) و قال : « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » ^(٣) و قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ^(٤) نزلت فيمن يعمل لله و يحب أن يحمد عليه .

وقال عليه السلام : « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم : إخلاص العمل لله عز وجل » ^(٥) وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال عليه السلام : « إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها و دعوتهم و إخلاصهم و صلاتهم » ^(٦) و عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : الإخلاص سرٌّ من أسراري أستودعه قلب من أحببته من عبادي » ^(٧) و قال علي بن

(١) البينة : ٤ . (٢) الزمر : ٣ .

(٣) النساء : ١٤٥ . (٤) الكهف : ١١٠ .

(٥) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٢٥ من حديث عبدالله بن مسعود و رواه الصدوق في الغصال باب الثلاثة عن الصادق عليه السلام .

(٦) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٤٥ كتاب الجهاد باب الاستنصار بالضعيف .

(٧) قال العراقي : رويناه في جزء من مسلسلات القزويني يقول كل واحد من رواة سألت فلاناً عن الاخلاص فقال : وهو من رواية احمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زبد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى .

أبي طالب عليه السلام : لا تهتموا القلة العمل اهتموا للقبول فإن النبي عليه السلام قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل ، ^(١) وقال عليه السلام : « ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ^(٢) وقال عليه السلام : « أول من يسأل يوم القيامة ثلاث : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى : ما ذا صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يا رب كنت أقوم به آنا ، الليل والنهار ، فيقول الله عز وجل : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت بل أردت أن يقال : فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك ، ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى : قد أنعمت عليك فما ذا صنعت ؟ فيقول : يا رب كنت أتصدق به آنا ، الليل والنهار ، فيقول الله عز وجل : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت أردت أن يقال : فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك ، ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد فقاتلت في سبيلك حتى قتلت ، فيقول الله عز وجل : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت بل أردت أن يقال : فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك » ^(٣).

و في الاسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهرأ طويلاً فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك فأخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال : أين تريد رحمك الله قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة قال : وما أنت وذاك تركت عبادتك و اشتغالك بنفسك و تفرغت لغير ذلك ، فقال : إن هذا من عبادتي قال : فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد و طرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له : إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال له : إبليس يا هذا إن الله عز وجل قد أسقط عنك هذا و لم يفرضه عليك و ما تعبدتها أنت و ما عليك من غيرك و لله تعالى أنبياء

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الاخلاص والحاكم في المستدرک بلفظ « أخلص نيتك » بسند صحيح من حديث معاذ كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابو نعيم في الحلية بسند ضعيف وفيه « من أخلص لله » . وروى الكليني نحوه عن أبي جعفر عليه السلام في الكافي ج ٢ ص ١٦ ويأتي .

(٣) أخرجه الترمذی ج ٨ ص ٢٢٩ وقد تقدم .

في الأرض و لو شاء لبعثهم إلى أهلها و أمرهم بقطعها قال العابد : لا بد لي من قطعها
فنازله للمقاتل فغلبه العابد و صرعه و قعد على صدره فعجز إبليس فقال : هل لك في
أمر فصل بيني وبينك و هو خير لك و أنفع قال : وما هو ؟ قال : أطلقني حتى أقول
لك ، فأطلقه فقال له إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس
يعولونك و لعلك تحب أن تتفضل على إخوانك و توصي جيرانك و تشبع و تستغني
عن الناس ؟ قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر و لك علي أن أجعل عند رأسك
في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنققتهما على نفسك و عيالك و تصدقت
على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك و للمسلمين من قطع هذه الشجرة التي تغرس
مكانها و لا يضرهم قطعها شيئاً و لا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إيها فتفكر العابد
فيما قال ، وقال : صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة و لا أمرني الله
أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها و ما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك
وحلف له فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما
وكذلك من الغد ثم أصبح اليوم الثالث و ما بعده فلم يجد شيئاً فغضب وأخذ
فاسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة الشيخ فقال له : إلى أين ؟ فقال : أقطع
تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك و لا سبيل لك إليها
فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة فقال : هيهات فأخذه إبليس و صرعه
فاذا هو كالصفور بين رجله و قعد إبليس على صدره فقال : لتنتهين عن هذا الأمر
أو لا قتلنك فنظر العابد فإذا لا طاقة له به ، فقال : يا هذا غلبتني فخل عني و
أخبرني كيف غلبتك أو لا و غلبتني الآن ، فقال : لا نك غضبت لله تعالى أول مرة
و كانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه الكرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .
وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى : « إلا عبادك منهم المخلصين » (١) إذ لا
تتخلص العبد عن الشيطان إلا بالاحلاص ولذلك كان المعروف الكرخي يضرب نفسه
ويقول : يا نفس أخلصي تخلصي ، وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكرم حسنة

كما يكتبكم سيئاته ، وقال أبو سليمان : طوبى لمن صححت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله عز وجل ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل ، وقال أبو أيوب السخيتاني : تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

أقول: ثم ذكر أبو حامد أقاويل الناس في فضيلة الاخلاص وقد طويناها وفي الكافي عن الصادق عليه السلام « في قول الله عز وجل : « ليلبواكم أيتكم أحسن عملاً » (٢) قال : ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة الحسنة ، ثم قال : الإبقاء على العمل حتى تخلص أشد من العمل ؛ والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل » (٣) وعن الباقر عليه السلام قال : « ما أخلص العبد الإيمان بالله عز وجل أربعين يوماً إلا زهده الله في الدنيا وبصره دأها ودأها فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه » (٤) .

(بيان حقيقة الخلوص)

إعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً وسمي الفعل المصفى المخلص إخلاصاً قال الله تعالى : « من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للمشربين » (٥) فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم و الفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن للشرك درجات والاخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية ، والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص فالإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحلهما القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحداً على التجرّد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالاضافة إلى المنوي فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص وإن كان غرضه

(٢) الملك : ٢ .

(٣) و(٤) المصدر ج ٢ ص ١٦ تحت رقم ٦٤٠ .

(٥) النحل : ٦٦ .

محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلصٌ ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع شوائبه كما أن الاتحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء فهو متعرض للهلاك ولستنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربح المهلكات و أقول أموره ما ورد في الخبر «إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسامي : يامرائي ياخذع يا مشرك يا كافر» (١) وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء وإما من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبد ليتخلص من مؤنثه وسوء خلقه ، أم يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو ليتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو له في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو لشغل هو فيه و أراد أن يستريح عنه أياماً ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويتقرب به على تهيئة العساكر وجربها ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به و ليراقب رحله وأهله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عقاره وأمواله محروسة بعز العلم عن الأطماع ، أو اشتغل بالدس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء ليكون حرمة وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا في الدنيا أو كتب مصحفاً ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو يحج ماشياً ليخفف عن نفسه مؤونة الكراء ، أو توضاً ليتنظف ويتبرد أو اغتسل ليتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو يتصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض ويشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله عز وجل ولكن

انضافت إليه خطرة من هذه المخاطر حتى صار العمل عليه أخف بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى و تطرّق الشرك إليه و قد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، و بالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلّ أم كثر إذا تطرّق العمل تكدّر به صفوه و زال به إخلاصه و الإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلّما ينفك فعل من أفعاله و عبادة من عباداته عن حظوظ و أغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل : من سلمت له في عمره خطوة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا و ذلك لعزّة الإخلاص و عسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلّا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبها وإنّما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب و انضافت هذه الأمور إليه ، ثمّ هذه الشوائب إمّا أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، و بالجملة فإمّا أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الدنيوي أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره و إنّما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلّها قليلاً و كثيرها حتى يتجرّد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء و هذا لا يتصور إلّا من محبّ الله عزّ و جلّ مستهتر به ، مستغرق الهمّ بالآخرة بحيث لم يبق لحبّ الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحبّ الأكل و الشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنّّه ضرورة الجبلة فلا يشتهي الطعام لأنّه طعام بل لأنّه يقوّيه على عبادة الله ويتمنّى أن لو كفى شرّ الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظّ من الفضول الزائدة على الضرورة و يكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنّه ضرورة دينه فلا يكون له همّ إلّا لدينه ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حرركاته و سكناته ، فلو نام مثلاً ليريح نفسه ليمتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة و كانت له درجة المخلصين فيه ، و من ليس كذلك فباب الإخلاص في العمل كالمسدود عليه إلّا على

الندور وكما أن من غلب عليه حب الله عز وجل وحب الآخرة اكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً فالذي يغلب على نفسه حب الدنيا والعلو والرئاسة وبالعجلة حب غير الله اكتسب جميع حركاته الاعتيادية تلك الصفة فلم تسلم له عباداته من صومه وصلاته وغير ذلك إلا نادراً ، فعلاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فإذا ذلك يتيسر الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغروراً لأنه لا يدري وجه الآفة فيه كما حكى عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول لأنني تأخرت يوماً لعذر وصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض وقلماء تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من يتنبه له ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى : «وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»^(١) «وبدالهم سيئات ما عملوا»^(٢) و«قل هل ننبتكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^(٣) وأشد الخلق تعريضاً لهذه الفتنة العلماء فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذّة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله ، وترى الواعظ يمن على الله بنصيحته للخلق وعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يزعم أنه يفرح بما تيسر له من نصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله عز وجل إذ كفاه هذا المهمل بغيره ، ثم الشياطين مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لاقطاع

(٢) الجاثية: ٣٢.

(١) الزمر: ٤٨.

(٣) الكهف: ١٠٤ و ١٠٥.

الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس منك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المصاب و اغتنامك لفوت الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ولاختاره بذلك على نفسه وذلك قبل التجربة و الامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القيادة في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر بها ، ثم إذدهاها الأمر تغيرت و رجعت ولم تف بالوعد ، و ذلك لا يعرفه إلا من عرف مكائد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل بها بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر و الفرد الغد وهو المستثنى في قوله تعالى : « إلا عبادك منهم المخلصين »^(١) فليكن العبد شديد التفقد و المراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشيطان وهو لا يشعر به .

أقول: ثم ذكر أبو حامد أقاويل الشيوخ في الإخلاص ونقل عن بعضهم أن الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين قال : وهذه إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجالاً و عاجلاً و العابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين و هو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة أو خوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة و إلا فهو في طلب حظ البطن و الفرج وإنما المطلوب الحق لذوي الأبواب وجه الله فقط وقول القائل لا يتحرك إلا إنسان إلا لحظ البراءة من الحظوظ صفة الإلهية و من ادعاهها فهو كافر حق، ولكن القوم إنما أرادوا بها البراءة عما يسميه الناس حظوظاً وهي الشهوات الموصوفة في الجنة فقط فأما التلذذ بمجرد المعرفة و المناجاة والنظر إلى وجه الله عز وجل فهذا حظ هؤلاء و هذا لا يعدّه الناس حظاً بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة و المناجاة و ملازمة الشهود للحضرة الإلهية سرّاً و جهراً جميع نعيم الجنة

لاستحقاقها ولم يلتفتوا إليها فحركاتهم لحظّ وطاعتهم لحظّ ولكن حظّهم معبودهم فقط دون غيره ، ثمّ قال : والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنّما البيان الشافي بيان سيّد الأوّلين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال : « هو أن تقول ربّي الله ثمّ تستقيم كما أمرت »^(١) أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلّا ربّك وتستقيم في عبادته كما أمرك . وهذه إشارة إلى قطع كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً .

﴿ بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص ﴾

إعلم أنّ الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلّيّ وبعضها خفيّ وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قويّ مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلّا بمثال وأظهر مشوشات الإخلاص الرّياء فلنذكر منه مثلاً فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلّي مهما كان مخلصاً في صلاته حيث نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صوتك حتّى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرّياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدّرجة الثانية أن يكون المريّد قد فهم هذه الآفة فأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيه ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثّر عنك ويتأسّى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل وهو أيضاً عين الرّياء ومبطل للإخلاص فإنّه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضي لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن تحت رقم ٣٩٧٢ . أن سفيان بن عبد الله الثقفي

قال : قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال : قل : « ربّي الله ثم استقم » . وروى

نحوه مسلم في الصحيح .

ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزَّ عليه من نفسه فهذا محض التلبس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبسه ويعاقب على إظهاره من نفسه مما ليس متصفاً به .

الدرجة الثالثة وهي أدقُّ مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ويصلي في الملاء أيضاً كذلك ، فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة ليحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما فالفتاة في الخلوة والملاء إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وطيرة واحدة فكان نفس هذا ليست تسمع باساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلوة والملاء وهيئات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملاء جميعاً وهذا الشخص مشغول بهم بالخلق في الملاء والخلا جميعاً ، وهذا من المكائد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة وهي أدقُّ وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم فإنه قد عرف أنه تقطن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر في عظمة الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله عز وجل إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع فإن خشوعه لو كان نظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة وكان لا يختص بحضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا خاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاء ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور هذا خاطر كما لا يكون حضور بهيمة سبباً فمادام

يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفوا لإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرّياء وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر^(١) ولا يسلم من الشيطان إلا من دقّ نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمّرين لعبادة الله عزّ وجلّ لا يغفل عنهم لحظة حتّى يحملهم على الرّياء في كلّ حركة من الحركات حتّى في كحل العين وقصّ الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لا ارتباط نظر الخلق بها ولا استيناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوات الخفية أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلّها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع به فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من ثواب الاعتكاف وقد يكون المجرّك الخفي في سرّه هو الأُنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكلّ ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس فيبطل حقيقة الإخلاص، لعمرى الغشّ الذي يمزج بخالص الذّهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقلّ ولكن يسهل إدراكه ومنهما يدقّ بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغشّ القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدقّ كثيراً ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتّى يخلص عنها فإنّ الجاهل نظره إلى ظواهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو زائف في نفسه وقيراط من خالص الذّهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار من الذي يرتضيه الغرّ الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم ومداخل الآفات المتطرّقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فما

(١) تقدم غير مرة في العلم وغيره .

ذكرناه مثال والفظن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً فلا فائدة في التفصيل .

﴿بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به﴾

إعلم أن العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله عز وجل بل امتزج به شوب من الرِّياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه ، أمّا الذي لم يرد به إلا الرِّياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب ، و أمّا الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الدِّيني مساوياً للباعث النفسي تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرِّياء أقوى وأغلب فليس بنافع بل هو مع ذلك مضر ومفوض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرِّياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالاضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدِّيني وهذا لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ^(١) و لقوله : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » ^(٢) فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان قصد التقرب غالباً على قصد الرِّياء حبط منه القدر الذي يساويه و بقيت زيادة ، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرِّياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته بالعمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرِّياء فقد قويت تلك الصفة وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فإن

(١) الزلزال ٨٠٧.

(٢) النساء : ٣٩.

كان تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوماً وكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبررات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناوله كما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام و الشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله عز وجل فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله تعالى أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان لاله ولا عليه فإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لاحتالة شبر^(١) وقد قال ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(١) فإذا كان الرّياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبته فإذا اجتمعا جميعاً فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجباً ومعه تجارة صح حجته وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، نعم يمكن أن يقال إنّما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنّما المشترك طول المسافة ولأثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب.

أقول: بل الصواب أن يقال: أن التجارة تعرض للرزق وهو أيضاً عبادة وليس من حظوظ النفس وقد سبق أن نية الخيرات المتعددة موجبة لتضاعف الثواب. قال أبو حامد: وما أظن أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة يكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمه فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكليّة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلام كلمة الله وإنّما الرغبة في الغنيمه على سبيل التبعيّة فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمه أصلاً فإن هذا الالتفات نقصان لاحتالة، فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرّياء محبط للثواب وفي

(١) قد تقدم غير مرة في رياضة النفس وفي التوبة.

معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاووس وغيره من التابعين أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن مصطنع المعروف أو قال: يتصدق فيحب أن يحمده ويوجر فلم يدر ما يقول له حتى نزل قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» (١) وقد قصد الأجر والحمد جميعاً وروي أن أعرابياً أتاه فقال له: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال ﷺ: «من قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٢) وقال النبي ﷺ: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له» (٣).

أقول: ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق ﷺ أنه قال لعباد ابن كثير البصري في المسجد: «ويلك يا عبداً إيتاك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له» (٤).

وعنه ﷺ قال: «كل رياء شرك، فإنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمل لله كان ثوابه على الله» (٥).

وعنه ﷺ في قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه - الآية -» قال: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه، ثم قال: ما من عبد أسرف خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرف شراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له شراً» (٦).

وعنه ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً» (٧).

(١) الكهف: ١١١.

(٢) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٣ بأدنى اختلاف من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) تقدم في الرياء.

(٤) و(٥) و(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١ و ٣ و ٢.

(٧) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩.

قال أبو حامد : فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بهامن
لم يرد به إلا الدنيا كقوله : « من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له » أو كان ذلك
أغلب على نيته وقد ذكرنا أن ذلك عصيان و عدوان لأن طلب الدنيا حرام
ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء و تغيير العبادة عن وضعها ، و
أمّا لفظ الشركة حيث ورد فمطلقه للتساوي و قد بينّا أنه إذا تساوى القصدان
تقاوماً ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثم الإنسان عند الشركة
أبدأ في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه و بالأ
ولذلك قال الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً » أي لا يرجى
اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط ، و يجوز أن يقال : أيضاً منصب
الشهادة أيضاً لا ينال إلا بالاحلاص في الغزو ، و بعيد أن يقال : من كانت داعيته
الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو و إن لم تكن غنيمة و قدر على غزواته فتن
من الكفار إحداهما أغنياء و الأخرى فقراء فمال إلى جهة الأغنياء لا لعلاء كلمة الله
تعالى و الغنيمة أنه لا ثواب له على غزوه البتة و نعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك
فإن هذا حرج في الدين و مدخل لليأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشوائب
التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب
فأما أن يكون في إحباطه فلا ، نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن
الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله و يكون الأغلب على سره الحظ النفسي و ذلك
مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاحلاص و الاحلاص قلما يستيقنه العبد
من نفسه و إن بالغ في الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد
متردداً بين الرد و القبول خائفاً أن تكون في عباداته آفة يكون و بالها أكثر من
ثوابها فلا يقاومها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون
كل ذي بصيرة ، و مع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن
ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن يفوت الاحلاص ، و مهما ترك العمل
فقد ضيع العمل و الاحلاص جميعاً ، و قد قيل : ترك العمل بسبب الخلق رثاء و فعله

لأجل الخلق شرك .

أقول: روى في الكافي بإسناده الحسن عن أبي جعفر عليه السلام « أنه سئل عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك فقال : لا بأس ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك » ^(١).

﴿ الباب الثالث ﴾

﴿ في الصدق وفضيلة وحقية ﴾

فضيلة الصدق قال الله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ^(٢) وقال : النبي صلى الله عليه وآله : « إن الصدق يهدي إلى البرّ والبرّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ^(٣) . ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى قد وصف به الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال : « واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صديقاً نبياً » ^(٤) وقال : « واذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صديقاً نبياً » ^(٥) .

أقول: ثم ذكر أبو حامد أقوال الناس في فضيلة الصدق وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل عن الكمال فقال : « قول الحق والعمل بالصدق » ^(٦) . ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : « إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً » ^(٧) .

و عن الصادق عليه السلام قال : « كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع » ^(٨) .

وعنه عليه السلام : « من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ،

(١) المصدر ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٨ .

(٢) الاحزاب : ٢٣ . (٣) متفق عليه وقد تقدم .

(٤) مريم : ٤٢ . (٥) مريم : ٥٧ .

(٦) قال المراقبي : لم أجده بهذا اللفظ .

(٧) و (٨) المصدر ج ٢ ص ١٠٥ تحت رقم ٨ و ١٠ .

ومن حسن برّه بأهل بيته مدّ له في عمره» (١).

وعنه عليه السلام «لا تنظروا إلى طول ركوع الرّجل وسجوده فإنّ ذلك شيء اعتاده ولو تركه استوحش لذلك ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته» (٢)
وعنه عليه السلام قال لبعض أصحابه : «انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله ﷺ فالزمه فإنّ علياً عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله ﷺ بصدق الحديث وأداء الأمانة» (٣).

﴿بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه﴾

إعلم أنّ لفظ الصدق يستعمل في ستّة معان صدق في القول وصدق في النية و
الإرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق
مقامات الدّين كلّها ، فمن اتّصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق لأنّه مبالغة من
الصدق ، ثمّ هم أيضاً على درجات ومن كان له حظّ من الصدق في شيء من الجملة
فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الصدق الأوّل صدق اللّسان وذلك لا يكون إلّا في الإخبار أو فيما يتضمّن
الإخبار وينبّه عليه والخبر إمّا أن يتعلّق بالماضي أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد
والخلف فيه وحقّ على كلّ عبدأن يحفظ ألفاظه فلا يتكلّم إلّا بالصدق وهذا هو أشهر
أنواع الصدق وأظهرها ، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه
فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كما أن أحدهما الاحتراز عن المعارض وقد قيل : في
المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنّها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب
تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلّا أنّ ذلك ممّا تمسّ إليه الحاجة وتقتضيه
المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي
الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء و الاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن
اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله بما يأمره الحقّ به ويقتضيه

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٥٠ تحت رقم ١١ و ١٢.

(٣) المصدر ج ٢ ص ١٠٤ تحت رقم ٥ .

الدِّينَ فَإِذَا نَطَقَ بِهِ فَهُوَ صَادِقٌ وَإِنْ كَانَ كَلَامُهُ مَفْهُمًا غَيْرَ مَا هُوَ عَلَيْهِ لِأَنَّ الصِّدْقَ مَا أُريدَ بِهِ لِدَاتِهِ بَلْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ فَلَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِهِ بَلْ إِلَى مَعْنَاهُ ، نَعَمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ يَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّلَ إِلَى الْمَعَارِضِ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى سَفَرٍ وَرَى بَغِيرَهُ» (١) وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْتَهِي الْخَبَرُ إِلَى الْأَعْدَاءِ فَيَقْصِدُ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْكُذْبِ فِي شَيْءٍ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا» (٢) وَرَخَّصَ فِي النَّطْقِ عَلَى وَفْقِ الْمَصْلَحَةِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ «مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ زَوْجَتَانِ وَمَنْ كَانَ فِي مَصَالِحِ الْحَرْبِ» (٣) وَالصِّدْقُ هُنَا يَتَحَوَّلُ إِلَى النِّيَّةِ فَلَا يَرَاعَى فِيهِ إِلَّا صِدْقُ النِّيَّةِ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ فَهَمَّا صَحَّ قَصْدُهُ وَصَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَتَجَرَّدَتْ لِلْخَيْرِ إِرَادَتُهُ كَانَ صَادِقًا وَصَدِّقًا كَيْفَ مَا كَانَ لَفْظُهُ ثُمَّ التَّعْرِيزُ فِيهِ أَوْلَى وَطَرِيقُهُ مَا حَكِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُهُ بَعْضُ الظُّلْمَةِ وَهُوَ فِي دَارِهِ فَقَالَ : لَزَوْجَتِهِ خَطَّتِي بِاصْبِعِكَ دَائِرَةً وَضَعِي الْإِصْبِعَ عَلَيْهَا وَقُولِي : لَيْسَ هُوَ هَهُنَا . وَاحْتَرَزَ بِذَلِكَ عَنِ الْكُذْبِ وَدَفَعَ الظَّالِمَ عَنْ نَفْسِهِ فَكَانَ قَوْلُهُ صَدَقًا وَأَفْهَمَ الظَّالِمَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدَّارِ فَالْكَمَالُ الْأَوَّلُ فِي اللَّفْظِ أَنْ يَحْتَرَزَ عَنْ صَرِيحِ اللَّفْظِ وَعَنِ الْمَعَارِضِ أَيْضًا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، وَالْكَمَالُ الثَّانِي أَنْ يَرَاعَى مَعْنَى الصِّدْقِ فِي الْفَاطَةِ الَّتِي يَنَاجِي بِهَا رَبَّهُ كَقَوْلِهِ «وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» فَإِنْ قَلْبُهُ إِنْ كَانَ مُنْصَرَفًا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى مُشْغُولًا بِأُمَانِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا فَهُوَ كَاذِبٌ وَكَقَوْلِهِ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وَقَوْلُهُ : أَنَا عَبْدُ اللَّهِ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِحَقِيقَةِ الْعِبَادِيَّةِ وَكَانَ لَهُ مَطْلَبٌ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ صَدَقًا وَلَوْ طَوَّلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالصِّدْقِ فِي قَوْلِهِ «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ» لَعَجَزَ عَنْ تَحْقِيقِهِ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ عَبْدًا لِنَفْسِهِ أَوْ عَبْدًا لِلدُّنْيَا أَوْ عَبْدًا لَشَهَوَاتِهِ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ وَكُلُّ مَا تَقَيَّدَ بِهِ الْعَبْدُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهُ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا عِبِيدَ الدُّنْيَا ، وَقَالَ نَبِينَا ﷺ : «تَعَسَّ عَبْدُ الدُّنْيَا نَارَ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الْحَلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيسَةِ» (٤) وَاسْمِي كُلُّ مَنْ تَقَيَّدَ

(١) فِي النِّهَايَةِ أَيْ سَتَرَهُ وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ج ٣ ص ٢٢٧ وَمُسْلِمٌ ج ٨ ص ٢٨ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ .

(٣) رَوَى مُسْلِمٌ ج ٨ ص ٢٨ وَالْكَلْبِيُّ نَحْوَهُ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكَافِي ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

قلبه بشيء عبداً له ، وإنما العبد الحق لله تعالى من اعتق أولاً ، من غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلّت فيه العبوديّة لله فتشغله بالله وبمحبّته وتقيّد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم قد يجاوز هذا إلى مقام أسنى منه يسمّى الحرّية وهو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو هو بل يقنع بما يريد الله له من تقرّب أو إبعاد فتقنّى إرادته في إرادة الله عزّ وجلّ وهذا عبد عتق عن غير الله تعالى فصار حراً ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حراً وصار مفقوداً لنفسه وموجوداً لسيّده ومولاه ، إن حرّكه تحرّك وإن سكّنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متّسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبوديّة فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لالنفسه وهذه درجة الصّدّيقين ، وأمّا الحرّية عن غير الله فدرجات الصّادقين وبعد هذا يتحقّق العبوديّة لله وما قبل هذا فلا يستحقّ صاحبه أن يسمّى صادقاً ولا صدّيقاً ، فهذا هو معنى الصدق في القول .

الصدّيق الثاني في النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله عزّ وجلّ فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمّى كاذباً كما روينّا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يُسأل العالم «ماذا عملت في ما علمت فقال : فعلت كذا وكذا فقال الله عزّ وجلّ : كذبت أردت أن يقال : فلان عالمٌ» فإنّه لم يكذب به ولم يقل له : لم تعمل ولكن كذب به في إرادته ونيّته ، وقال بعضهم : الصّدق صحّة التوحيد في القصد و لذلك قال الله تعالى : «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» ^(١) وقد قالوا : «إنّك لرسول الله» ^(٢) وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر وهذا القول يتضمّن اخباراً بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أنّه يعتقد ما يقوله فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فإنّه كذب في ذلك وإن لم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحدهما في الصدق

إلى خلوص النية و هو الإخلاص وكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصاً .
 الصدق الثالث صدق العزم فإن الإنسان قديقاً العزم على العمل فيقول في نفسه : إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعة أو بشطره ، وإذا لقيت عدواً في سبيل الله قاتلته و لم أبال و إن قتلت ، و إن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله بظلم و ميل إلى خلق ، فهذه العزيمة قد يصادقها في نفسه و هي عزيمة جازمة صادقة و قد يكون في عزمه نوع ميل و تردد و ضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة و يقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى فالصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قویة تامة ليس فيها ميل و لا ضعف و لا تردد بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق و حصل التمكن و هاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوة ولم يتفق الوفاء بالعزم و هذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (١) .

الصدق الخامس في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال و لكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر ، و هذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك لأجل الخلق ، و رب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره و لكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عز وجل و هو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب و هو مطالب بالصدق في الأعمال و كذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك فهذا

غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرأياً إليهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره فإذا مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياءً ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال عليه السلام : «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي سالحة» ^(١) وقيل : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور ، فإذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

أقول : وذلك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : «إنني والله ما أحسبكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ولا أنها كم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها» ^(٢) .
الصدق السادس - وهو أعلى الدرجات وأعزها - الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقته ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته يسمى صاحبها صادقاً كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة ، وقال تعالى : «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون» ^(٣) وقال تعالى : «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - ثم قال : - والصابرين في البأساء والضراء - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا» ^(٤) .

وسئل أبوذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقل له : سألتك عن الإيمان فقال : سألت رسول الله عن الإيمان فقرأ هذه الآية ^(٥) و لنضرب للخوف مثلاً فما من عبد

(١) قال العراقي : لم أجده . (٢) النهج قسم الخطب تحت رقم ١٧٣ .

(٣) الحجرات : ١٥٠ . (٤) البقرة : ١٧٧ .

(٥) أخرجه اسحاق بن راهويه في مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه عن القاسم

ابن عبد الرحمن كما في الدر المنثور ج ١ ص ١٦٩ .

يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائضه ويتنصص عليه عيشه ويتعد رعليه أكله ونومه ويتقسم عليه فكره حتى لا يمتنع به أهله ولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفاً من درك المحذور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصيته عليه ولذلك قال عليه السلام : « لم أرمثل النار نام هاربها ولم أرمثل الجنة نام طالبها » ^(١) فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال غايتها ولكن لكل عبد منها حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي فإذا قوي سمى صادقاً فيه فمعرفة الله عز وجل وتعظيمه والخوف منه لا نهاية له ولهذا قال رسول الله ﷺ لجبرئيل عليه السلام : « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى أرني قال : فواعدته بالبقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر إليه فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوق عليه السلام مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبرئيل عليه السلام إلى صورته الأولى فقال : ما ظننت أن أحداً من خلق الله عز وجل هكذا ، قال : كيف ولو رأيت إسرافيل أن العرش لعلى كاهله وأن رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى وأنه ليمتصغر من عظمة الله حتى يصير كالوضع يعني كالعصفور الصغير » ^(٢) فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم .

وقال جابر : قال عليه السلام : « مررت ليلة أسري بي أنا وجبرئيل بالملأ الأعلى كالجلس البالي من خشية الله عز وجل » ^(٣) يعني الكساء الذي يلقى على ظهر

(١) أخرجه الترمذي في صحيحه ج ١٠ ص ٦٥ من حديث أبي هريرة والطبراني في

الوسط من حديث أنس .

(٢) تقدم في كتاب الرجاء والخوف أنه رأى جبرئيل في صورته مرتين .

(٣) رواه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من

حديث أنس (المعنى) .

البعير ولذلك قال ﷺ : « لا يبلغ أحد حقيقة الايمان حتى يرى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير » (١) والصدق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصدق حقاً وقال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوي وفيما سواهن ضعيف ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بأن أعيش حتى أفرغ منها ، وما شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب لما سمع هذا الحديث : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي ﷺ . فهذا صدق في هذه الأمور وكم من جملة الصحابة قوم قد أذوا الصلاة وشيعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ، فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا يتعرض فيها إلا لأحد هذه المعاني ، نعم قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون » (٢) وصدق الطاعة لأهل العلم وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض . وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنّه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق ﷺ : « الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غير الله كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى : « هو اجتبيكم » (٣) وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ أنني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلاء لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبیباً ، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أبال . فإن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكرهه اطلاع الخلق عليها . أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصادق ﷺ قال : « إذا أردت أن تعلم أصدق

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٢) الحج : ٧٨ .

(٣) الحديد : ١٩ .

أنت أم كاذب فانظر في قصد معنك وغور دعواك وعيّرهما بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة قال الله عز وجل : «والوزن يومئذ الحق» ^(١) فإذا اعتدل معنك بغور دعواك ثبت لك الصدق ، وأدنى حد الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان ، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه إن لم ينزع فماذا يصنع» ^(٢) .

تم كتاب النية والصدق والإخلاص من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء والله الحمد والمنّة على يد أفقر العباد إلى الله محسن بن مرتضى القاساني جعله الله من المخلصين الصادقين بمنّته وكرمه ، ويتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وحده .



(١) الاعراف : ٧ .

(٢) المصدر الباب الرابع والسبعون .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما
اجترحت ، المطالع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب عباده على الخواطر
إذا اختلجت ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض تحرّكت
أو سكنت ، المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ،
المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وإن
كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر في ما قدّمت وأخّرت
فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت
وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت و
خسرت ، فسبحان من عمّت نعمه كافة العباد ، وشملت واستغرقت رحمته الخلائق
في الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبمن
توفيقه تقيّدت الجوارح بالعبادات وتأدّبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب
ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكائد الشيطان واندفعت ، و
بلطف عنايته تترجّح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسّرت من الطاعات ما
تيسّرت ، فمنه العطاء والجزاء وبحكمه الإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء .
و الصلاة على محمد سيّد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وقادة الأتقياء وسلّم
كثيراً .

أما بعد فقد قال الله تعالى : « و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم

نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» ^(١). وقال :
 « وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب
 لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ^(٢)
 وقال : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء
 شهيد » ^(٣) وقال : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم » فمن يعمل مثقال ذرة
 خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ^(٤) وقال : « ثم توفى كل نفس ما
 كسبت وهم لا يظلمون » ^(٥) وقال تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما
 عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه » ^(٦) وقال تعالى : « واعلموا
 أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفورٌ رحيم » ^(٧) فعرف أرباب
 البصائر من جملة العباد أن الله عز وجل لهم بالمرصاد وإنهم سيناقشون في الحساب ،
 ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه
 الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها
 في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه
 وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته
 وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته ، فلما انكشف
 لهم ذلك علموا أنه لا ينجيه منه إلا طاعة الله عز وجل وقد أمرهم بالصبر والمراقبة
 فقال : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » ^(٨) فربطوا أولاً أنفسهم
 بالمشاركة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاقبة ،
 فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل
 الأعمال فيها وأصلها المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند
 الحساب معاقبة ومعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات .

- | | |
|---------------------|-------------------------|
| (١) الانبياء : ٤٧ . | (٢) الكهف : ٥٠ . |
| (٣) المجادلة : ٦ . | (٤) الزلزال : ٧٦ و ٧٨ . |
| (٥) البقرة : ٢٨١ . | (٦) آل عمران : ٣٠ . |
| (٧) البقرة : ٢٣٥ . | (٨) آل عمران : ٢٠٠ . |

❖ (المقام الاول من المراقبة المشارطة) ❖

إعلم أن مطلب المتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس إذ به فلاحها قال الله تعالى : «قد أفلح من زكّوها» و قد خاب من دسّها» (١) وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة ، و العقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكّوها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله و كما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاتبه أو يعاقبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف و يشترط عليها الشروط و يرشدها إلى طريق الفلاح و يجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطريق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنّه لو أهملها لم يرم منها إلا الخيانة و تضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحتها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء و الشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهمّ كثيراً في تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنّها محترقة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيف ما كانت فمصيها إلى النصر و الانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً و قد انقضى الشر ، و الخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً و قد انقطع الخير ولذلك قيل :

أشدّ الغمّ عندي في سرور ❖ تيقّن عنه صاحبه انتقالاً

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله و اليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه و التضيق عليها في حرّاتها وسكناتها وخطواتها فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا تتناهي نعيمه

أبدلاً باد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا يسمح به عاقل فإذا أصبح العبد و فرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال و وقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله عز وجل فيه وأنساً في أجلي وأنعم به عليّ و لو توفقاني لكنت أتمني أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً فاحسبي أنك توفيت ثم رددت فإياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهر لا قيمة لها ، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر ، « إنه ينشر للعبد كل يوم و ليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فينالها من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار مالو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ، ثم يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها و يتغشاه ظلامها و هي الساعة التي عصي الله فيها فينالها من الهول و الفزع مالو قسم على أهل الجنة لتنعص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولما يسوؤه » (١) و هي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسّر على خلوتها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير و الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغبناً وهكذا يعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهد في اليوم في أن تعمري خزائنك و لا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك و لا تركني إلى الكسل والدعة و الاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك و تبقى عندك حسراتها لاتفارقك و إن دخلت الجنة ، و ألم الغبن و الحسرة لا يطاق و إن كان دون ألم النار ، و قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين . أشار به (١) أوردته العلامة المجلسي في البحار ج ٣ ص ٢٦٧ في الهامش من كتاب عدة الداعي.

إلى الغبن والحسرة وقد قال تعالى : «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن»^(١) فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم يستأنف لها وصيته في أعضائه السبعة : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها^(٢) فإنها رعايا خادمة لها في التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة وإن لجبهتم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أمّا العين فيحفظها عن النظر إلى عورة مسلم ووجه من ليس بمحرم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهي التي خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله عز وجل بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل عليها الأمر في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن ، أمّا اللسان فلا تله منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة وجنابته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة والطعن واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في آفات اللسان فهي بصدد ذلك كله مع أنها خلقت للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان إلا في الذكر طول نهاره فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة « وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأمّا البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ومنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط عليها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع من شهواته فيفوتها أكثر مما نالته بشهواتها ، وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا يخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر

(٢) أي تسليم الأعضاء إلى النفس .

(١) التغابن : ٩ .

عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان بأن شرط ذلك على نفسه أياماً و طوعته نفسه في الوفاء بحققها استغنى عن المشاركة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم من مهم جديد و واقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه فيه حق ويكثر هذا على من يشغل بشي من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة عليها و الانقياد للحق في مجاريها ويحدّرها مغبّة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد المتمرّد الآبق ، فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبوديّة ولكن الوعظ و التأديب يؤثّر فيها « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » فهذا و ما يجري مجراه هو أوّل مقام المراقبة مع النفس و هي المحاسبة قبل العمل ، والمحاسبة تارة تكون قبله للتحذير قال الله تعالى : « واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه »^(١) و هذا للمستقبل و كل نظر في كمّيّة و مقدار لمعرفة زيادة و نقصان فإنّه يسمّى محاسبة ، فانظر فيما بين العبد والرّبّ في نهاده ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيّبّونا »^(٢) و قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا »^(٣) و قال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه »^(٤) ذكر ذلك تنبيهاً و تحذيراً للاحتراز منه في المستقبل .

و روى عبادة بن الصامت أنّه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه و يعظه : « إذا أردت أمراً فتدبّر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه و إن كان غيياً فأنته عنه »^(٥).

(٢) النساء : ٩٣ .

(١) البقرة : ٢٣٥ .

(٤) ق : ١٦ .

(٣) الحجرات : ٦ .

(٥) رواه ابن المبارك في الزهد عن أبي جعفر بن مسور الهاشمي مرسلًا بسند ضعيف

كما في الجامع الصغير .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر إلى العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة ، و قال لقمان : إنَّ المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . و روى شداد بن أوس عنه عليه السلام أنه قال : « الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأمانى » ^(١) دان نفسه أي حاسب نفسه ، و يوم الدين هو يوم الحساب . و قوله تعالى : « إِنَّا لَمُدِينُونَ » ^(٢) أي لمحاسبون . و قال بعض الصحابة : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، و زنوها قبل أن توزنوا ، و تهيبوا للعرض الأكبر » و هذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه و عمل لما بعد الموت معناه وزن الأمور أولاً و قدرها و نظر فيها و تدبرها ثم أقدم عليها فبأشرها .

﴿ المراقبة الثانية المراقبة ﴾

إذا أوصي الإنسان نفسه و شرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال و ملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت و فسدت ، و لنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

أما الفضيلة فقد سأل جبرئيل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » ^(٣) و قال أيضاً : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(٤) و قد قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » ^(٥) و قال تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » ^(٦) ، و قال تعالى : « إن الله كان عليكم رقيباً » ^(٧) و قال تعالى : « و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون » و الذين هم بشهاداتهم قائمون ^(٨) .

(٢) الصافات : ٥٣ .

(١) تقدم غير مرة .

(٣) و (٤) أخرجهما النسائي ج ٨ ص ٩٨ في حديث و قد تقدما .

(٦) العلق : ١٤ .

(٥) الرعد : ٣٥ .

(٨) المعارج : ٣٢ و ٣٣ .

(٧) النساء : ١ .

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف فقامت فغطت وجه صنمها فقال يوسف : مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ؟ وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ليلاً فقالت : ألا تستحي ؟ فقال : ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ، فقالت : وأين مكوكبها . وقال رجل للجنيد بهم أستعين على غض البصر قال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حفظه من ربه عز وجل . وقيل : وفي الحديث القدسي : إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحلت أصلابهم من خشيتي ، و عزّتي وجلالي إنّي لأهمّ بعذاب أهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتني صرفت عنهم العذاب . و يروى أن الله عز وجل قال للملائكة : أنتم موكلون بالظواهر وأنا رقيب على البواطن .

❖ (بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها) ❖

إعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال : إنّه راقب فلاناً و راعى جانبه ، و نعني بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح و في القلب أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به و التفاته إليه وملاحظته إيّاه و انصرافه إليه ، وأمّا المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً يعني أنها إذا خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعات جانب الرقيب وصرف الهمّة إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقرّبون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ومراقبتهم على درجتين .

الدَّرَجَةُ الأولى مراقبة المقرَّبِينَ من الصِّدِّيقِينَ وهي مراقبة التعظيم والجلال وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرأتحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للانفتاح إلى الغير أصلاً ، وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فإنَّها مقصورة على القلب ، أمَّا الجوارح فإنَّها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات فإذا تحرَّكت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبُّر وتنبُّه في حفظها على سنن السداد بل تشتدُّ الرِّغْبَةُ بسداد الرِّاعِي فإذا صار مستوفى بالمعبود صار الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذي صار همُّه همّاً واحداً وكفاه الله تعالى سائر الهموم ومن نال هذه الدَّرَجَةَ فقد يغفل عن الخلق حتَّى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنَّه لاصمم به وقديمٌ على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتَّى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحرِّكني ، ولا تستبعد هذا فإنَّك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتَّى أنَّ خدام الملوك قد لا يحسبون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشغل القلب بهم خفير من مهمَّات الدُّنيا فيغوص الرَّجُل في الفكر فيه ويمشي فربَّما يخطي الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له ، وحكي عن بعضهم أنَّه قال : مررت بجماعة يتراقبون^(١) وواحد جالس بعيداً منهم فتقدَّمت إليه فأردت أن أكلِّمه فقال : ذكر الله أشهى لقلبي ، فقلت : إنَّك وحدك؟ فقال : ما أنا وحدي معي ربِّي وملكاي ، فقلت : من سبق من هؤلاء؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق؟ فأشار نحو السماء و قام ومشى ، وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلَّم إلَّا معه ولا يسمع إلَّا منه فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنَّها لا تتحرَّك إلَّا بما هو فيه ، وقيل : عليك بصحبة من يذكرُّك الله رؤيته ويقع هيبتُه على قلبك ويعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال و التعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدَّرَجَةُ الثانية مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وعم قوم غلب يقين اطلاع الله

(١) في الاحياء « يترامون ».

على ظواهرهم وبواطنهم و على قلوبهم و لكن لم تدهشهم ملاحظة الجمال والجلال بل بقيت قلوبهم على حدِّ الاعتماد المتسعة للتلفُّت إلى الأحوال والأعمال إلا أنَّها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة فيها ، نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون ولا يجمعون إلا بعد التثبت فيه و يمتنعون عن كلِّ ما يفتضحون به في القيامة فإنَّهم يرون الله تعالى في الدُّنيا مطَّلِعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة ويعرف اختلاف الدَّرجتين بالمشاهدات ، فإنَّك في خلواتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبيٌّ أو امرأة فتعلم أنَّه مطَّلِع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لأعن إجلال و تعظيم بل عن حياء فإنَّ مشاهدته و إن كانت لا تدهشك ولا تستغرك فإنَّها تهيج الحياء منك و قد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرك التعظيم حتَّى تترك كلَّ ما أنت فيه شغلاً به لحياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى و من كان في هذه الدَّرجة فيحتاج إلى أن يراقب جميع حرَّكاته و سكناته و خطراته و لحظاته و بالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل أمَّا قبل العمل فليُنظر أنَّ ما ظهر له وتحرك لفعله خاطره أهو الله تعالى خاصَّة أهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقَّف فيه ويتثبت حتَّى ينكشف له ذلك بنور الحقِّ فإنَّ كان لله أمضاء و إن كان لغير الله استحياء من الله و انكفَّ عنه ثمَّ لام نفسه على رغبته فيه و همَّها به و ميلها إليه و عزَّها على سوء فعلها و سعيها في فضيحتها فإنَّها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، و هذا التوقَّف في بداية الأمور إلى حدِّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنَّ في الخبر « أنَّه ينشر للمعبود في كلِّ حركة من حرَّكاته و إن صغرت ثلاثة دواوين الدِّيوان الأوَّل لم ، و الثاني كيف ، و الثالث لمن » فمعنى لم أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك ، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الدِّيوان الثاني كيف فعلت فإنَّ الله في كلِّ عمل شرطاً و حكماً لا يدرك قدره و وقته و صفته إلا بعلم فيقال : كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل و ظنٍّ ، فإن سلم من هذا نشر الدِّيوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال :

لمن عملت أوجه الله خالصاً ؟ وفاء بقولك « لا إله إلا الله » فيكون أجرك على الله أوطراً ، فخلق مثلك فخذ أجرك منه ، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفينا نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترقبه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعني أقول : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »^(١) « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه »^(٢) ويحك أما سمعني أقول : « ألا لله الدين الخالص »^(٣) وإذا عرف العبد أنه بصد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للمسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدى ، ولا يعيد إلا بعد التثبت ولا يحرّك جفنًا ولا أنملة إلا بعد التأمل .

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ : « إن العبد ليسأل عن كحل عينيه وعن فتنة الطين بأصبعيه وعن مله ثوب أخيه »^(٤) وقيل : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاها ، وفي حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عند همك إذا هممت » وقال محمد بن علي : « إن المؤمن وقاف متأن »^(٥) عند همه ليس يحاطب ليل . فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفوس ومكائد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربّه وعدوّه وهو الشيطان ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحب الله تعالى ويرضاه في نيّته وهمّته وفكرته وسكونه وحرّكه فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله عزّ وجلّ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فلا تظنّ أن الجاهل بما يقدر على التعلّم فيه يعذر بالجهل هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنّه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان ومواضع الغرور فيتقيها والجاهل

(١) الاعراف : ١٩٣ . (٢) العنكبوت : ١٧ . (٣) الزمر : ٣ .

(٤) لم أجده . (٥) أى لا يستعجل فى اموره .

لا يعرفها فكيف يحترز منها فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة
 فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهما رأس كل شقاوة و أساس كل خسران فحكم الله
 على كل عبد أن يراقب نفسه عند همته بالفعل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم
 وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس
 فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فإن الخطرة الأولى في الباطل
 إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد
 يورث الفعل والفعل يورث العقاب والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه
 الأول وهو الخاطر فإن جميع ماوراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت
 الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فيه بنور العلم ويستعين بالله من مكر الشيطان بواسطة
 الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر فيه بنفسه فليستضيء بنور علماء الدين و
 ليفر من العلماء المضللين المقبلين على الدنيا فراره من الأسد بل أشد فقد أوحى
 الله عز وجل إلى داود عليه السلام : « يا داود لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك
 عني وعن محبتي أولئك قطاع طريق عبادي » فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة
 الشر بها والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن مستضاء أنوار القلوب
 حضرة الربوبية وكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق ضدها
 وهي شهوات الدنيا فلتكن همّة المرید أولاً في أحكام العلم وفي طلب عالم معرض
 عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال
 عليه السلام : « إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات » (١) والعقل الكامل عند
 هجوم الشهوات جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن
 الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ، ولذلك قال عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه
 عقل لا يرجع إليه أبداً » (٢) فما قدر العقل الضعيف الذي يتصف الآدمي به حتى
 يعتمد إلى محوه ومحقه بمفارقة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين بن عمر العدني ضعفه

الجمهور كما في المتن . (٢) قد تقدم .

الأعمار فإنَّ الناس كلَّهم قد هجروا هذه العلوم و اشتغلوا بالتوسُّط بين الخلق في الخصومات النائرة من اتِّباع الشهوات وقالوا : هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدِّين من جملة العلوم وتجروا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرَّغ لفقه الدِّين وكان فقه الدنيا من الدِّين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر « أنتم اليوم في زمان خير كم فيه المسارع و سيأتي عليكم زمان خير كم فيه المتنبيّت » (١) فمن لم يتوقَّف عند الاشتباه كان متَّبِعاً لهواه معجباً برأيه . و كان ممَّن وصفه النبي ﷺ إذ قال : « فإِذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متَّبِعاً و إعجاب كلِّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك » (٢) و كلُّ من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى : « و لا تقف ما ليس لك به علم » (٣) و قوله ﷺ : « إياكم و الظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث » (٤) و أراد به ظنّاً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتَّبِع ظنّه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء بعض الصحابة « اللهمَّ أرني الحقَّ حقّاً و أرزقني اتِّباعه ، و أرني الباطل باطلاً و أرزقني اجتنابه و لا تجعله متشابهاً عليّ فأتَّبِع الهوى » و قال عيسى ﷺ : « الأمور ثلاثة أمر استبان لك رشده فاتَّبِعْه و أمر استبان غيِّه فاجتنبه و أمر أشكل عليك فكله إلى عالمه » (٥) . و قد كان من دعاء النبي ﷺ « اللهمَّ إِنِّي أعوذ بك من أن أقول في الدِّين بغير علم » (٦) فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم و كشف الحقِّ و الإيمان عبارة عن نوع كشف و علم و لذلك قال تعالى إِمْتَنَاناً على عبده : « و كان فضل الله عليك عظيماً » (٧) و أراد به العلم و قال تعالى : « فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا

(١) قال العراقي : لم أجده .

(٢) قد تقدم . (٣) الاسراء : ٣٦ .

(٤) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٧٧ والترمذي من حديث أبي هريرة . وقد تقدم .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس باسناد ضعيف و رواه الصدوق في الخصال

أبواب الثلاثة من حديث الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٦) النساء : ١١٢ .

(٧) قال العراقي : لم أجده .

تعلمون» (١) وقال : « إن علينا للمهدي » (٢) وقال : « ثم إن علينا بيانه » (٣) وقال :
« وعلى الله قصد السبيل » (٤).

قال علي عليه السلام : « الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة » (٥)
فأذن النظر الأول للمراقب نظره في الهمة والحركة أهى الله تعالى أول الهوى
وقد قال عليه السلام : « ثلاث من كن فيه فقد استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا
يرائي بشي من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة أثر
الآخرة على الدنيا » (٦) وأقله (٧) ما ينكشف له في حر كاته أن يكون مباحاً ولكنه
لا يعنيه فيتركه لقوله عليه السلام : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (٨).

❦ (النظر الثاني المراقبة عند الشروع في العمل)

و ذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله تعالى فيه ويحسن النية في إتمامه
ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه
لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله عز وجل في جميع ذلك
قدر على عبادة الله فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعداً مثلاً
فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ « خير المجالس ما استقبل به القبلة » (٩) ولا
يجلس متربعا إذ لا يجالس عند الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليك وإن كان

(٢) الليل : ١٢ .

(١) النحل : ٤٣ .

(٤) النحل : ٩ .

(٣) القيامة : ١٩ .

(٥) شطره الاول في النهج كتابه عليه السلام الى ابنه الحسن (ع) وفيه « الهوى شريك
العناء » وفي بعض نسخه كما في المتن . ولم أجد شطره الثاني .

(٦) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة . (المعنى)

(٧) وفي بعض نسخ الاحياء « وأكثر » .

(٨) تقدم في آفات اللسان .

(٩) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٢٧٠ من حديث ابن عباس هكذا « ان

لكل شيء شرفاً و أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » .

ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها ، فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لا دابه وفاء بالمراقبة ، فاذن لا يخلو العبد إمّا أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة لا بدّ له من الصبر عليها أو نعمة لا بدّ له من الشكر عليها ، وكل ذلك من المراقبة ، بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إمّا فعل يلزمه مباشرته ، أو محذور يلزمه تركه ، أو ندب حثّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله ويسابق به عباده ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » فينبغي أن يتفكّد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة ، فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا من الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لا آخرته كما قال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » (١) وكل ذلك إنّما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب على العبد فيها كيف ما انقضت في مشقة أو في رفاة ، وساعة مستقبلية لم تأت بعد ولا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربّه ، فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسّر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقّه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمّله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته وكأنّه في آخر أنفاسه فلعلّه آخر أنفاسه وهو لا يدري ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة

ويكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبوذر^(١) من قوله ﷺ: « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذّة في غير محرم^(٢) » وما روي أيضاً عنه في معناه « على العاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربّه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فإنّ في هذه الساعة عوناً له على بقيّة الساعات^(٣) » ثمّ هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو فيها عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذّكر والفكر فإنّ الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكّر فيه وفطن له لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون بعين التبصّر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعها وكيفيّة ارتباط قوام الحيوانات بها وكيفيّة تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المستخرّة للشهوة فيها كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودّهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مستخّرين لشهوته وهذا مقام الزّاهدين ، وقسم يرون في الصنعة الصانع ويترقّون منها إلى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكّر أبواب من الفكر تفتح عليهم بسببه وهو أعلى مقامات العارفين وعلامات المحبّين إذا لمحبّ إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكلّ ما يتردّد العبد فيه هو صنع الله تعالى فله في النظر منها إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدّاً ، وقسم رابع ينظرون فيه بعين الرّغبة والحرص فيتأسّفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من

(١) رواه الصدوق في الفقيه ص ٢٢١ وفي الخصال أبواب الثلاثة عن الصادق ﷺ

و فيها في حكمة آل داود ﷺ وقد تقدم وأخرجه ابن حبان وأحمد والحاكم وصححه أنه قال صلى الله عليه وآله : انه في صحف موسى عليه السلام .

(٢) هذا تنمة حديث أبي ذر المتقدم ، وروى الصدوق في معاني الاخبار وكمال الدين

نحوه وقد تقدم .

بجلته و يذمّون منه ما لا يوافق هواهم و يعيبونه و يذمّون فاعله فيذمّون الطبيخ و الطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته و علمه هو الله تعالى وإن من ذمّ شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذمّ الله ولذلك قال ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »^(١) فهذه هي المراقبة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال و شرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

﴿ المراقبة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ﴾

و لنذكر فيها فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها . أمّا الفضيلة فقد قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد »^(٢) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضى من الأعمال ولذلك قيل : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل أن توزنوا »^(٣) و في الخبر أنه ﷺ جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني فقال : أمستوص أنت ؟ قال : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيياً فأنته عنه »^(٤) و في الخبر « ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه » وقال الله عز وجل : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون »^(٥) و التوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال ﷺ : « إنني لأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه في اليوم مائة مرة »^(٦) و قال تعالى : « إنّ الذين اتّقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون »^(٧) و عن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أتمّ من محاسبة

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٥ من حديث أبي هريرة بسند صحيح .

(٢) الحشر : ١٨ .

(٣) رواه الكليني في الروضة ص ١٤٣ دون قوله « وزنها قبل أن توزنوا » و ذكره المجلسي في الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر من البحار ص ٤٢ بتمامه و زيادة عن كتاب محاسبة النفس عن النبي صلى الله عليه وآله مرسل .

(٤) النور : ٣١ .

(٥) تقدم ص ١٥٤ .

(٦) الاعراف : ٢٠٠ .

(٧) تقدم غير مرة .

شريكة و الشريك انما يتحاسبان بعد العمل ^(١) ، وقال بعضهم : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله و انما خف الحساب في الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا و انما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة ثم فسّر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجأ بالشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبني و إنك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما ذا أردت بهذا و الله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

أقول : و معاني أكثر هذه الأخبار واردة من طريق الخاصة أيضاً وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فان عمل حسناً استزاد الله تعالى وإن عمل سيئاً استغفر الله منه و تاب إليه » ^(٢) و عن الصادق عليه السلام « أقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فان نفسك رهينة بعملك » ^(٣) و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « لولم يكن للحساب مهولة الأحياء للعرض على الله عز وجل و فضيحة هناك السر على المخفيات لحق للمرء أن لا يهبط من رؤس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها و شدائد قائمة في كل نفس ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعو و في غمراتها مسؤول قال الله عز وجل : « إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ^(٤) وقال بعض الأئمة

(١) في المجلد الخامس عشر من البحار الجزء الثاني منه ص ٤٢ نقل عن يحيى بن الحسين بن هارون العسني في كتاب أماليه بإسناده عن الحسن بن علي عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لا يكون العبد - الخ » وأما ميمون بن مهران كان من الذين عنونهم الشمراني في الطبقات الكبرى المسمى بلواقع الانوار في طبقات الاخيار . وكان من عاصر الحسن البصري ، و قيل : لقي علياً عليه السلام ولم يثبت .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٥٣ تحت رقم ٢ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥٥ تحت رقم ٨ . (٤) الانبياء : ٤٧ .

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم بميزان الحياء قبل أن توزنوا» وقال أبوذر - رحمه الله - : ذكر الجنة موت و ذكر النار موت فواعجبا لنفس يحيى بن موتين و روى عن يحيى بن زكريا عليه السلام أنه كان يفكر في طول الليل في أمر الجنة والنار فيسهر ليلته ولا يأخذه النوم ثم يقول عند الصباح : اللهم أين المفر وأين المستقر اللهم إلا إليك ، (١).

❖ (بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل) ❖

إعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيها نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب النفس فيها ويحاسبها على جميع حرركاتها و سكناتها وكذلك يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته و لو حصل ذلك لهم لكان لا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة و السعادة أبد الآباد ، ما هذه المساهلة إلا من الغفلة و الخذلان و قلة التوفيق نعوذ بالله منه . و معنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال و في الربح و الخسران ليتبين له الزيادة و النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه و شكره و إن كان من خسران طالبه بضمائه و كلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض و ربحه النوافل و الفضائل و خسارته المعاصي و موسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الامارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولاً فإن أدتها على وجهها شكر الله عز وجل عليه و رغبها في مثلها و إن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء فإن أدتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل و إن ارتكبت معصية اشتغل بعتابها و تعذيبها و معاقبتها و استوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه و كما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة و القيراط فيحفظ مداخل الزيادة و النقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غائلة النفس و مكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة

فليطالبها أولاً بتصحیح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره و ليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة و هكذا عن نظره بل عن خواطره و أفكاره و قيامه و قعوده و أكله و شربه و نومه حتّى عن سكوته أنّه لم سكت و عن سكونه أنّه لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس و صحّ عنده قدر ما أدّى الحقّ فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي عليه فليثبت عليه و ليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي هو على شريكه على قلبه و على جريدته ثمّ النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون أمّا بعضها فبالغرامة و الضمان و بعضها بردّ عينه و بعضها بالعقوبة لها على ذلك و لا يمكن شيء من ذلك إلّا بعد تحقيق الحساب و تمييز الباقي من الحقّ الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة و الاستيفاء و ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر على يوم يوم و ساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة و الباطنة و عن معصيته بالقلب و الجوارح في كلّ ساعة و لورمى بكلّ معصية حجراً في صحن داره لا متلأت داره في مدّة قريبة من عمره و لكن يتساهل في حفظ المعاصي و الملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله و نسوه .

❦ (المرابطة الرابعة معاقبة النفس على تقصيرها) ❦

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية و ارتكاب تقصير في حقّ الله فلا ينبغي أن يهملها فإنّه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي و أنس بها و عسر عليه فطامها و كان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع و إذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر و كذلك يعاقب كلّ طرف من أطراف بدنه بمنعه من شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة . و عن طلحة قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه و تمرّغ في الرّمضاء و كان يقول لنفسه ذوقي و عذاب جهنّم أشدّ حرّاً أجيفة بالليل بطالة بالنهار قال : فبينما هو كذلك إذا بصر النبيّ ﷺ في ظلّ شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبيّ ﷺ : ألم يكن لك بدّ من الذي صنعته أما لقد فتحت لك أبواب السماء و باهى الله عزّ و جلّ بك الملائكة ثمّ قال لأصحابه : تزوّدوا من

أخبركم فيجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لي : يا فلان ادع لي فقال ﷺ : عنهم فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي ﷺ يقول : اللهم سدّده فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأبهم^(١) . أقول : قد مضى هذا الحديث من طريق الخاصة في كتاب الخوف على اختلاف في ألفاظه^(٢) .

قال أبو حامد : « و عن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زمناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة ثمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت لوفيك خيراً لا أعطيت فنزل إليه ملك و قال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك ، فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم .

و العجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك و ولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم من يدك و بغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة ، وأشدّ طغياناً عليك و ضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا و لو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغمص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها .

❦ المراقبة الخامسة المجاهدة ❦

وهي أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدي بها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه (ص) وهذا منقطع أو مرسل (المعنى) ورواه الصدوق بإسناده عن ليث بن أبي سليم قال : سمعت رجلاً من الانصار يقول راجع مجالس الصدوق المجلس الرابع والخمسين .

(٢) ص ٣٠٨ ج ٧ .

منه وتدار كماً لما فرط فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى فقد عاقب بعضهم نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها ما ثمة ألف درهم ، وكان بعضهم إذا فاتته صلاة في جماعة أحيى تلك الليلة ، وأخّر ليلة صلاة المغرب حتّى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات من ابن ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة ، وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحجّ ماشياً أو التصدّق بجميع ماله كل ذلك مراعاة للنفس و مؤاخذه لها بما فيه نجاتها .

أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « طوبى لعبد جاهد الله نفسه وهواه ، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله ، ومن جاوز عقله نفسه الأمانة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى ، وليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع والظما بالنهار والسهر بالليل فإن مات صاحبه مات شهيداً وإن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرضوان الأكبر قال الله عز وجل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » (١) وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبّخ نفسك ولهما و غيرهما تحثيثاً على الازدياد عليه واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي وسقها كالرأئض للفلاة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلّا وقد صحّح أولها وآخرها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي حتّى يتورّم قدماء ويقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أراد أن يعتبر به أمته فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبّد والرياضة بحال إلّا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتهما واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت إرباً إرباً فما أعرض من أعرض إلّا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق ، قيل لربيعة بن خثيم : مالك لا تنام بالليل ؟ قال : لا نسي أخاف البيات » (٢).

قال أبو حامد : فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد والمرابطة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : علاجها أن تسمعها ما ورد في الأخبار من

فضل المجتهدين و من أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أحواله و تقتدي به ، فكان بعضهم يقول : إذا عتري تنبي فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهداه في العبادة فعملت على ذلك أسبوعاً . إلا أن هذا العلاج قد تعدد إذ فقد في عباد الله من يجتهد في عبادة الله اجتهد الأولين فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد و قد انقضى تعبهم و بقي ثوابهم و نعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم و ما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فتمتّع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكذّرة ثم يأتيه الموت و يحال بينه و بين كل ما يشتهيهِ أبداً بادنعود بالله منه ، ونحن نورد من أوصاف المجتهدين و فضائلهم ما يحرر كُرْبَةً المرّدين في الاجتهاد اقتداءً بهم فقد قال عليه السلام : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى و ما هم بمرضى » (١) قيل : أجهدتهم العبادة ، قال الله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة » (٢) قيل : يعملون ما عملوا من أعمال البرّ و يخافون أن لا يقبل و أن لا ينجزهم ذلك من عذاب الله ، و قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : « طوبى لمن طال عمره و حسن عمله » (٣) و يروى أن الله عزّ وجلّ يقول لملائكته : « ما بال عبادي مجتهدين فيقولون : إلها خو فتمهم شيئاً فخافوه و شوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تعالى : فكيف لو رأي عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً . و قال بعض السلف : أدركت أقواماً و صحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كلّها طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قطّ ولا جعل بينه و بين الأرض شيئاً قطّ و أدركتهم عاملين بكتاب ربهم و سنة نبيهم إذا جنّهم الليل فقيام على أقدامهم يفترون

(١) لم أجده بهذا اللفظ وفي كلام أمير المؤمنين في خطبته التي وصف فيها المتقين

لهم « ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى و ما بالقوم من مرض » .

(٢) المؤمنون : ٦١ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن بسر .

وجوهرهم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها^(١) وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتمهم و سألوا الله أن يغفرها لهم ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر : يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال : سألتك بالله إلا صدقتني فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت له ليلي وقليل كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظم الله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطائب الكلام كما ينتقى أطائب التمر . و قيل : إن قوماً أرادوا سفراً فجادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب إننا قد أخطأنا الطريق فكيف هو فأومأ برأسه إلى السماء فلم يعلم الناس ما أراد ، فقالوا : يا راهب إننا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثرُوا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فتعجب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب على م يحشر الخلق غدأ عند مليكهم فقال : على نياتهم ، فقالوا : أوصنا فقال : تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد ابن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجب فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمته في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم و ليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة

(١) أي جدوا وتمبوا واستمروا عليه .

الجبار فذاك هو الرُّاهِبُ فأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ، فقلت : يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه ؟ فقال : يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حبُّ الدنيا وزينتها لأنَّها محلُّ المعاصي والدُّنوب فالعاقل من رمى بها عن قلبه و تاب إلى الله من ذنبه و أقبل على ما يقرُّ به من ربِّه . وكان أويس القرني يقول : هذه ليلة الرُّكوع فيحيى الليلة كلها في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود فيحيى الليلة كلها في سجدة . و يروى عن رجل من أصحاب عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام أَنَّهُ قال : « صليت خلف عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام الفجر فلما سلم انقلت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً أصفرأ قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله عزَّ وجلَّ يراوحن بين أقدامهم وجباههم فكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الرِّيح وهملت أعينهم حتى ابتلَّ ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله . وقال عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام : « سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر و عمش العيون من البكاء و ذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين » ^(١) و قيل بعض السلف : ما بال المتجهِّدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : إنَّهم خلوا بالرَّحمن فألبسهم نوراً من نوره . و كان عامر بن عبد قيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني و تميتني ولا تعلمني و خلقت معي عدواً و جعلته يجري منِّي مجرى الدَّم و جعلته يراني و لا أراه ثم قلت لي استمسك ، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي في الدنيا الهموم والأحزان و في الآخرة العقاب والحساب فأين الرَّاحة والفرح ، وقال بعض الحكماء : إنَّ لله عزَّ وجلَّ عباداً أنعم عليهم فعرفوه و شرح صدورهم فأطاعوه و توكَّلوا عليه فسلموا الخلق و الأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين و بيوتاً للحكمة و توابيت للعظمة و خزائن للقدره فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون و قلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بحجب الغيوب ثم ترجع ومعها طرائف من لطيف الفوائد ما لا يمكن واصفاً أن يصفه

(١) روى الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ نحوه .

فهم في باطن الأمورهم كالدِّيباج حسناً وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً .
 وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء ، و
 قال بعض الصالحين : بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد
 هنالك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال فأتبعت الصوت فإذا
 أنا بروضة عليها شجر ملفف ، وإذا أنا برجل قائم يردد هذه الآية « يوم تجد كل
 نفس ما عملت من خير محضراً » إلى قوله : - ويحذركم الله نفسه ^(١) قال : فجلست
 خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خربها مغشياً عليه قلت :
 وا أسفاه هذا لشقائي ، ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول : أعوذ
 بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين ،
 ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فرغت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت
 قلوب العارفين ، ثم نقض يديه فقال : مالي وللدنيا وما للدنيا ولي عليك يادينا بأبناء
 جنسك وآلاف نعيمك إلى محبتك فاذهبي وإياهم فاخذي ثم قال : أين القرون
 الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب يبلون وعلى مر الزمان يفنون ، فناديتها
 عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات و
 تبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه أم كيف يفرغ من ذهب آثامه و بقيت آثامه ،
 ثم قال : أين أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لهي عني ساعة وقرأ « وبدالهم
 من الله ما لم يكونوا يحتسبون » ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشياً
 عليه منها فقلت : قد خرجت نفسه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول :
 ما أنا ما خطري هب لي إساءتي بفضلك وجللني بسترِكَ واعف عن ذنوبي بكرم وجهك
 إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك و تثق به إلا كلمتني فقال :
 عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنني لفي هذا الموضع منذ
 ما شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجدعونا علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك فأليك
 عني ياخذوع فقد عطيت علي لساني ومالت إلى حديثك شعبة من قلبي فأنا أعوذ بالله

من شرك ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل عليّ برحمته قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركتهم . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه فأتبعته فسمعته وهو يقول : « كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لي في الموت » فقلت : وفيما بعد الموت فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ، ثم قال : « يا من لوجه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملاً قلبي من المحبة لك وأجرتني من ذلة التوبيخ غداً عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الأعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعني أجلي ، و لولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملتي ، ثم مضى وتركتني وقد أنشدوا في هذا المعني :

نحيل الجسم مكنتب الفؤاد	✧	تراه بقنّة أو بطن واد
ينوح على معاصي فادحات	✧	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن حاجت مخاوفه و زادت	✧	فدعوته أغثنى يا عمادي
فأنت بما الاقية عليم	✧	كثير الصفح عن زلل العباد

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مراعاة النفس ومراقبتها فهم ما تهمدت نفسك عليك و امتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عزّ الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم يكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في غمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقع بالتشبه بالاغبياء . وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدثت نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهديات وقل لها : ألا تستنكفين يا نفس أن تكوني أقل من امرأة فأخس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهديات

فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلّت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ، ثم أقبلت على صلاتها فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت : إلهي هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهناً أو رددتها عليّ فأعزيّ وعزّتك لهذا دأبي و دأبك ما أبقيتني وعزّتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك .

و يروى عن عجرة أنها كانت تحبى الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالي ، يستبقون إلى رحمتك و فضل مغفرتك ، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليّين في درجة المقرّبين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرّحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ، فخرّت ساجدة فسمعت لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر .

و قال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة ^(١) فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرّفق بنفسها قال أنت و ذاك قال : فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً لكان ذلك أقوى على ما تريدين فبكّت ثم قالت : والله لوددت أن أبكي حتّى تنفد دموعي ثم أبكي دماً حتّى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنّى لي بالبكاء وأنّى لي بالبكاء ، فلم تزل تردّد « وأنّى لي بالبكاء » حتّى غشي عليها .

وقال محمد بن معاذ : حدّثني امرأة من المتعبّذات قالت : رأيت في منامي كأنني ادخلت الجنّة فإذا أهل الجنّة قيام على أبوابها فقلت : ما شأن أهل الجنّة قياماً؟ فقال لي قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها قلت : ومن هذه المرأة ؟ قيل : أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة قالت : فقلت : أختي

(١) في طبقات الشعراني نبذ بسير من حالاتها فراجع .

والله فبيننا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلمّا رأيتها ناديتها يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ، قالت : فتبسّمت إليّ وقالت : لم يأنّ لقودمك ولكن احفظي عني اثنتين ألزمني الحزن قلبك وقدّمي محبة الله على هواك ، ولا يضرّك متى مت .

وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية رومية و كنت بها معجباً و كانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتصّتها فلم أجدها فقمّت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول : بحبك لي إلّا غفرت لي ذنوبي ، فقلت لها : لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك ، فقالت : لا يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الاسلام و بحبه لي أيقظ عيني و كثير من خلقه نيام .

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة فنزلت في بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من الليل أنيناً و شهيقاً ، فقلت يوماً لخدم لي أشرف على هذه المرأة فانظر ما ذا تصنع ، فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنّها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة تقول : خلقت سريّة ثم غدت بها بنعمتك من حال إلى حال و كلُّ أحوالك لها حسنة و كلُّ بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرّضة لسخطك بالتؤبّب على معاصيها فلّمت بعد فلّمت ، أتراها تظنّ أنّك لا ترى سوء فعالها و أنت عليمٌ خبيرٌ و أنت على كلّ شيء قدير .

وقال ذو النّون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان فلمّا علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول : « و بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » و يبكي فلمّا قرب منّي السواد إذا هو امرأة عليها جبة صوف و بيدها ركوة فقالت لي : من أنت ؟ غير فزعة منّي قلت : رجلٌ غريبٌ ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الذي أبكاك ؟ قلت : وقع الدّواء على داء قد قرح فأسرع في نجاهه ، قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت ؟ قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت : لا ، قلت : و لم ذاك ؟ قالت : لأنّ البكاء راحة للقلب ، فسكت متعجباً من قولها .

وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت: لا تبرحي من مكانك حتى أنصرف إليك قال: فأنصرفت فلم أجدها في الموضع وأنصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت لي: يا مولاي لا تعجل علي إنك أجلسني في موضع لم أر فيه ذاكر الله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرّة فقالت: لي ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عمّ يقال لها: بريرة وتعبّدت وكانت تكثر القراءة في المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عينها من البكاء فقال بنو عمّها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذّلها في كثرة البكاء، قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة كيف أصبحت؟ فقالت: أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها: إلى كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرّهما ما ذهب منهما في الدنيا وإن كان لهما عند الله شرّ فبين أيديهما بكاء أطول من هذا وأعرضت، قال: فقال القوم: قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه.

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي وإذا جاء الليل تقول: هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محرابها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلمّا كان السحر قلت: ما جزاء من قوّا على قيام هذه الليلة قالت: جزاؤه أن نصوم له غداً.

وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا منك أجلي ولم يقرّ بني منك عمل فقد جعلت الاعتراف

بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوت فمن أولى بذلك منك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهي إنك لم تنزل لي برّاً أيام حياتي فلا تقطع عني برّك بعد مماتي و لقد رجوت ممن تولاني في حياتي با حسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه إلهي كيف أياس من حسن نظرك بعد مماتي و لم تولني إلا الجميل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله ، إلهي لو أردت إهانتني لما هديتني و لو أردت فضيحتي لم تسترني فمتّعني بما له هديتني و أدم لي ما به سترتني ، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري ، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

و قال الخوّا ص دخلنا على رحلة العابدة و كانت صامت حتى اسودّت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت فكانت تصلّي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفوليهون عليها الأمر قال : فشبهت ثم قالت : علمي بنفسي قرح فؤادي و كلم كبدي ، والله لوددت أن الله لم يخلقني و لم أك شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرّجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك و يزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، و حكايات المجتهدين غير محصورة و فيما ذكرناه كفاية للمريد ، و إن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبعدها أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثت نفسك بالنظر إلى أهل زمانك و قالت : إنمّا تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً و سخرؤا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمّت

طابت ، فأياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها و قل لها : أرايت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد و ثبتوا على مواضعهم و لم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال و قدرت على أن تفارقهم و تركبي سفينة تنجوبها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمّت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجھلهم في صنيعهم وتأخذين حذرهم مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يكون إلا ساعة فكيف لانهرين من عذاب الأبد و أنت متعرّضة له في كل حال و من أين تطيب المصيبة إذا عمّت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص و لم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون » فعليك إذا اشتغلت بمعاتبه نفسك أن تعتمد على الاجتهاد و إن استعصت فلا تترك معاتبته و توبيحها و تقريعها و تعريفيها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

﴿ المراقبة السادسة في توبيخ النفس و معاتبته ﴾

إعلم أن أعدى عدوك نفسك التي هي بين جنبيك و قد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشرّ فرّادة من الخير وأمرت بتزكيتها و تقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربّها و خالقها و بمنعها عن شهواتها و فطامها عن لذاتها فإن أهملتها شردت و جمحت و لم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبه والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللّوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفل ساعة عن تذكيرها و معاتبته ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك .

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس و إلا فاستحي مني » و قال تعالى : « و ذكر فإن الذّكرى تنفع المؤمنين » (١) و سبيلك أن تقبل عليها فتقرّر عندها جهلها و غباوتها فإنّها أبداً تتعزّز بفطنتها و هدايتها و تشدّ أنفثها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك

تدّ عين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشغلين باللّهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله تعالى قريباً أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت ، أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في سنّ الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبّ بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لاتستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى : « اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » (١) ولاهية قلوبهم » ويحك يا نفس جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقلّ حيائك ويحك لو واجهك أخ من إخوانك بل عبد من عبادك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأيّ جسارة تتعرّضين لمقت الله تعالى وغضبه و شديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيئات هيئات جرّبي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قرّبي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله عزّ وجلّ و فضله واستغنائك عن طاعتك و عبادتك فمالك لاتعولين على كرم الله في مهمّات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلمي به إلى كرم الله عزّ وجلّ ، وإذا أرهقك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا ممّا لا ينقضي إلا بالدينار والدّرهم فما لك تنزعين الرّوح في طلبه وتحصيله من وجوه الحيل ؟ فلم لاتعولين على كرم الله عزّ وجلّ حتّى يعينك على ذلك أو يستخرّ عبداً من عبيده ليحمل إليك حاجتك من غير سعيك و طلبك أفتحسبين

أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن الدنيا والآخرة واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، ويحك يانفس ما أعجب نف كثرة دعاويك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يسيّدك ومولاك : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ^(١) وقال في أمر الآخرة « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ^(٢) « فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة و » عن السعي لها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكاليين على طلبها تكالب المدهوش المدهم وكّل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما ه علامات الإيمان فلو كان الإيمان باللسان فلما ذا كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار . ويحك كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت إذا تخلّصت وهيهات أتحسبين أن تتركي سدى ، ألم تكوني نطفة من مني يمين كنت علقة فخلق فسوّى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فإن كان هذامن إنما أكرمك وأجهلك أما تتفكرين أنه مما داخلتك من نطفة خلقتك فقد السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك أفتكذب بينه في قوله « ثم إذا شاء أنشرك » ؟ تكوني مكذّبة فما بالك لا تأخذين حذرَكَ ولو أن يهودياً أخبرك في الذنأ بأنه يضرك في بدنك لصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه أفكان قول المؤمنين بالمعجزات وقول الله عز وجل في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ ! وأنه لو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتة في الحال من غير مطالبة له ودليل أكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك صبي من جملة الأغبياء ؟ أو صار حرج جهنم وصديدها وأغلالها وأنكالها وزن مقامعها وحديدتها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من لدع عقرب لا تحسبن يوماً أو أقل ؟ ما هذا من أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهايم حالك لضحكوا وسخروا من عقلك ، فإن كنت قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوّف

والموت لك بالمرصاد ولعلّه يختطفك من غير مهل فيما ذا أمنت استعجال الأجل . وهب
 إنك وعدت الإمهال ألف سنة أفطنّين أن من لا يعلف الدّابة في حضيض العقبة يفلح
 و يقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ، أرايت لو سافر رجل
 ليتفقّه في الغربة فأقام فيها سنين متعطّلاً بطّالاً يعد نفسه بالتفقّه في السنة الأخيرة
 من رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله و ظنّه أن تفقّيه النفس ممّا يطمع
 فيه بمدّة قريبة ، أو حسبانه أن منازل الفقهاء تنال من غير تفقّه اعتمداً على كرم
 الله سبحانه ، ثم هب أن الجهد في آخر العمر نافع و أنّه موصل إلى الدّجات العلى
 فلعلّ اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين به فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع لك
 من المبادرة و ما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهوتك
 لما فيه من التعب و الشقة أفنتنظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا
 يوم لم يخلقه الله و لا يخلقه و لا تكون الجنة قطّ إلا مخوفة بالمكاه ، و لا يكون المكاه
 قطّ خفيفة على النفوس و هذا محال وجوده ، أما تتأملين منذ كم تعدين نفسك و تقولين :
 غداً غداً ، فقد جاء الغد و صار يوماً فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذي جاء و
 صار يوماً كان له حكم الأمس لابل ما تعجزين عنه اليوم فأنّت غداً عنه أعجز و أعجز
 لأن الشهوة كالشجرة الرّأسخة التي تعبّد الرّجل على قلعها فإذا عجز عن قلعها
 للمضعف و أخّرها كان كمن عجز عن قلع شجرة و هو شاب قويّ فأخّرها إلى سنة أخرى
 مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوّة و رسوخاً و يزيد القالع ضعفاً و وهناً فما
 لا يقدر عليه في الشباب فلا يقدر عليه قطّ في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، و
 من التعذيب تهذيب الذّئب ، و القضيض الرّطب سهل الانحناء فإذا جفّ و طال عليه
 الزّمان لم يقبله ، فإذا كنت لا تفهمين هذه الأمور الجليّة و تركنين إلى التسويف
 فما لك تدّعين الحكمة و آية حماقة تزيد على هذه الحماقة و لعلّك تقولين ما يمنعني
 عن الاستقامة إلا حرصي على لذّة الشهوات و قلّة صبري على الآلام و المشقّات فما
 أحقّك و أقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التّنعّم بالشهوات الصافية عن
 الكدورات أبد الآباد و لا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لنفسك فالنظر

لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات، وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويتنهأ لشربه طول العمر وأخبر أنه إن شربه مرض مرضاً مزمناً و امتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيسر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمره بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طال مدتته، وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أم ألم النار في دركات جهنم؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغناؤه عن عبادتك مع أنك لاتعتمد على كرمه في لقمة من الخبز وحبّة من المال وكلمة واحدة تسمعيها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب حماقة من النبي ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان»^(١) ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فيما أمرك ولا تضيعي أوقاتك فإن الأتقاس معدودة وإذا مضى نفس منك فقد مضى بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب واللبد والحبّة ولا تتسكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع البرد عنك من غير حبّة ولبد وحطب فأنه قادر على ذلك، أفطنين أن زمهرير جهنم أخف برداً أو أقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن وتقدم غير مرة.

هيئات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبهة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار و بردها إلا بحصن التوحيد و خندق الطاعات و إنما كرم الله عز وجل في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لافي أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار و هداك لطريق استخراجها من بين حديدة و حجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك و كما أن شرى الحطب و الجبهة مما يستغنى عنه خالقك و مولاك و إنما تشتريه لنفسك إذ جعله سبباً لاستراحتك و طاعتك و مجاهدتك أيضاً هو مستغن عنها و إنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه و من أساء فعليها والله غني عن العالمين ، و يحك انزعجي عن جهلك و قيسي آخرتك بدنياك دفما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة و كما بدأكم تعودون» وسنة الله لن تجدلها تبديلاً ولا تحويلاً ، و ما أراك إلا ألقت الدنيا و أنست بها فعسرت عليك مفارقتها و أنت مقبلة على مقاربتها و تؤكدين نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله و ثوابه و عن أهوال يوم القيامة وأحوالها فما أنت موقنة بالموت المفروق بينك وبين محابك ، أفترى أن من دخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليم يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقتها أهو معدود من العقلاء أم من الحمقاء ، أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك و ما أنت فيها إلا مجتاز و كل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت و لذلك قال سيّد البشر ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أحب ما أحببت فأنتك مفارقه ، و عش ما شئت فأنتك ميّت ، و اعمل ما شئت فأنتك مجزي به ^(١) » أما تعلمين أن كل من التفت إلى ملاذ الدنيا و أنس بها مع أن الموت من ورائه فأنتما يستكثر من الحسرة عند المفارقة و إنما يترود من السم المهلك و هو لا يدري ، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا و علوا ثم ذهبوا و خلّوا ، و كيف أورث الله أرضهم و ديارهم أعداءهم ، أما تراهم كيف يجمعون ما لا يأكلون و يبنون ما لا يسكنون و يأملون ما لا يدركون ، يبني كل واحد قصرأ

(١) تقدم في العلم وغيره .

مرفوعاً إلى جهة السماء و مقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق و
انتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه و هو مرتحل عنها يقيناً و يخرب آخرته
و هو صائر إليها قطعاً ، أما تستحيين من مساعدة هؤلاء على حماقتهم و احسبي أنك
لست ذات بصيرة تهتدين إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء
فقيسي عقل الأنبياء و الحكماء و العلماء بعقل هؤلاء المكبّين على الدنيا و اقتدى
بين الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يانفس ما
أعجب أمرك و أشدّ جهلك و أظهر طغيانك ، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور
الواضحة الجليّة فلعلّك أسكرك حبّ الجاه و أدهشك عن فهمها أو ما تنفكرين
في أنّ الجاه لا معنى له إلا ميل قلوب الناس إليك فاحسبي أنّ كلّ من على وجه
الأرض سجدوا لك و أطاعوك أفما تعرفين أنّ بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد
منّ على وجه الأرض منّ عبدك و سجد لك و سيأتي زمان لا يبقى ذكرك و ذكر
من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحسّ منهم من أحد أو تسمع
لهم ركزا . فكيف تبيعين ما يبقى أبداً بآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة لو
بقي هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلّم لك الشرق و الغرب حتّى أذعنت
لك الرقاب و انتظمت لك الأسباب كيف و يأبى إدارك و شقاوتك أن يسلم لك
أمر محلّتك بل أمر دارك فضلاً عن محلّتك فإن كنت لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة
لجهلك و عى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفّعاً عن خسة شرّائها ، و تنزّها عن
كثرة عنائها ، و توقياً من سرعة فنائها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد
فيك كثيرها ، و مالك تقرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك عن جماعة من يهود
أو مجوس يسبقونك بها و يزدون عليك في نعيمها و زينتها فافّ لدنيا سبقك بها
هؤلاء الأخسّاء فما أجهلك وأخسّ همّتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في
زمرّة المقرّبين من الصديقين و النبيّين في جوار ربّ العالمين أبداً بدين لتكوني
في صفّ النعال من جملة الحمقى الجاهلين أيّاماً قلائل ، فيا حسرة عليك إذ خسرت
الدنيا والدين ، فبادري ويحك فقد أشرفت على الهلاك و اقترب الموت وورد النذير

فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت و من ذا يصوم عنك بعد الموت و من ذا يرضى ربك بعد الموت ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتّجرت فيها و قد ضيّعت أكثرها فلو بكيت بقيّة عمرك على ما ضيّعت منها لكنت مقصّرة في حقّ نفسك فكيف إذا ضيّعت البقيّة و أصررت على عادتك ، أما تعلمين أنّ الموت موعدك و القبر بيتك و التراب فراشك و الدّود أنيسك و الفزع الأكبر بين يديك . أما علمت أنّ عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك و قد آلوا كلّهم ^(١) على أنفسهم بالآيمان المغلظة أنّهم يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك إلى أنفسهم . أما تعلمين أنّهم يتمنّون الرّجعة إلى الدّنيا يوماً ليشغلوا بتدارك ما فرط منهم فأنت في أمنيّتهم و يوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخداخيرها لا شتره لو قدروا عليه و أنت تضيّعين أيامك في الغفلة و البطالة ، و يحكّ أما تستحيين تزيّنين ظاهرك للخلق و تبارزين الله تعالى بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ، و يحكّ أهو أهون الناظرين إليك و يحكّ أتأمرين الناس بالخير و أنت مطلّخة بالرّذائل تدعين إلى الله و أنت منه فارة و تذكرين الله و أنت له ناسية ، أما تعلمين أنّ المذنب أنتن من العذرة و أنّ العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطيب غيرك و أنت غير طيبة في نفسك و يحكّ لو عرفت نفسك حقّ المعرفة لظننت أنّ الناس لا يصيبهم بلاء إلا لشؤمك ، و يحكّ و قد جعلت نفسك حماراً لا إبليس يقودك إلى حيث يريد و يسخر بك و مع هذا فتعجبين بعملك و فيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لربحت فكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك . و قد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن كان عبده مائتي ألف سنة و أخرج آدم من الجنّة بخطيئة واحدة مع كونه نبيّه و صفيّه . و يحكّ يا نفس ما أعذرك ، و يحكّ يا نفس ما أوقحك ، و يحكّ يا نفس ما أجهلك و ما أجراك على المعاصي و يحكّ كم تعقدين فتنقضين ، و يحكّ كم تعهدين فتغدرين ، و يحكّ أتشغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا قد جمعوا كثيراً و بنوا شديداً و أمّلوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً و بنيانهم قبوراً و

(١) أى أقسموا و حلفوا على أنفسهم .

أملهم غروراً ، أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنّين أنّهم دعوا إلى الآخرة و
أنت من الخالدين هيهات هيهات ساء ما تتوهّمين ما أنت إلا في هدم عمرك منسقطت
من بطن أمك فأبني على ظهر الأرض قصرك فإنّ بطنها عن قليل يكون قبرك ، أما
تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان
و كلى الوجوه و بشّرك بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الهدم أو يقبل منك الحزن
أو يرحم منك البكاء ، و العجب كلّ العجب منك أنّك مع هذا تدّعين البصيرة و
الفطنة و من فطنتك أنّك تفرحين كلّ يوم بزيادة مالك و لاتحزين بنقصان عمرك
و ما نفع مال يزيد و عمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة و هي مقبلة
عليك و تقبلين على الدنيا و هي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لم يستكمل
و كم من مؤمل لغد لم يبلغه و أنت تشاهدين ذلك في إخوانك و أقاربك و جيرانك و ترين
تحسّرهم عند الموت ثمّ لا ترجعين عن جهالتك فاحذري يا مسكينة يوماً آلى الله
تعالى فيه على نفسه أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا و نهاه حتّى يسأله عن عمله
دقيقه و جليله سرّاً و علانيته ، فانظري بأيّ بدن تقفين بين يديه و بأيّ لسان
تجيبين و أعدّي للسؤال جواباً و للجواب صواباً و اعلمي بقيّة عمرك في أيام قصار
لأيّام طوال و في دار زوال لدار مقامة ، و في دار حزن و نصب لدار نعيم و خلود ،
و اعلمي قبل أن لا تعملني و اخرجني من الدّنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن
تخرجني منها على الاضطرار ، و لا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدّنيا قرب
مسرور مغبون و ربّ مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثمّ لا يشعر ، يضحك و يفرح
و يمرح و يأكل و يشرب و يلهو ، و قد حقّ له في كتاب الله أنّه من وقود النار ، فليكن
نظرك يا نفس إلى الدّنيا اعتباراً و سعيك لها اضطراراً و رفضك لها اختياراً و طلبك
للآخرة ابتداراً و لا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي و يبغى الزّيادة فيما
بقي و ينهى الناس و لا ينتهي ، و اعلمي أنّه ليس للدّين عوض و لا للإيمان بدل
و لا للجسد خلف و من كانت طيّته اللّيل و النهار فإنّّه يساه به و إن لم يسر ،
فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة و اقبلي هذه النصيحة فإنّ من رضى عن الموعظة

فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية وللهذه الموعدة واعية وإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعدة فاستعيني عليها بدوام التهجّد والقيام ، فإن لم تنزل فبالمواطبة على الصيام ، فإن لم تنزل فبقلة المخالطة والكلام فإن لم تنزل فبصلة الأرحام والمُطَف بالأيّام ، فإن لم تنزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً وكلّ ميسّر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للموعظ فاقنطري من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها ، فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيني بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثاة ولا تملي طول الشكاية لعلّه أن يرحم ضعفك ويغيثك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تعاقت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وزاحت عنك العلل فلامذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا منجاة ولا ملجأ إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرّع واجزعي في تضرّعك على قدر عظم جرمك وكثرة ذنوبك فإنه يرحم المتضرّع الدليل ويغيث الطالب المتلهّف ويحيب دعوة المضطرّ الدليل وقد أصبحت إليه مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدّت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ المطلوب منه كريم ، والمسؤول عنه جواد ، والمستغاث به برؤوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل وقولي : يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلیم يا كريم أنا المذنب المصّر أنا الجري الذي لا أقلع ، أنا المتماذي الذي لا استحي ، هذا المقام مقام المتضرّع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثنِي وفرجي وأرني آثار رحمتك

و أذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوَّة عصمتك يا أرحم الراحمين ، اقتداءً بأبيك
 آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله عزَّ وجلَّ آدم إلى الأرض من
 الجنة مكث لا ترقاً له دمة فأطلع الله عليه في اليوم السابع و هو محزون كئيب
 كظيم منكس الرأس فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال :
 يا ربُّ عظمت مصيبتني وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربِّي فصرت
 في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار التَّصب بعد الرَّاحة
 وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزَّوال بعد القرار وفي دار الموت و الفناء بعد
 الخلود و البقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه يا آدم ألم
 أصطفك لنفسي وأحللتك داري و خصصتك بكرامتي و حذرتك سخطي ؟ ألم أخلقك
 بيدي و نفخت فيك من روحي و أسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري و نسيت عهدي
 و تعرَّضت لسخطي فوعزَّتي و جلالي لوملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني
 و يسبِّحونني ثمَّ عصوني لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام .
 و كان عبید الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول الليلة : إلهي أنا الذي
 كلَّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الذي كلَّما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة
 أخرى ، و اعبيداه خطيئة لم تبلِّ وصاحبها في طلب أخرى ، و اعبيداه إن كانت
 النار لك مقبلاً و مأوى ، و اعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيئاً ، و اعبيداه قضيت
 حاجة الطالبين و لعلَّ حاجتك لا تنقضى .

و قال منصور بن عمار : سمعت بعض اللِّيالي بالكوفة عابداً يناجي ربَّه
 عزَّ وجلَّ و هو يقول : يا ربُّ و عزَّتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك و لا عصيتك إذ
 عصيتك و أنا بمكانك جاهل و لا لعقوبتك متعرِّض و لا لنظرك مستخفٍّ و لكن
 سَوَّلت لي نفسي و أعانني على ذلك شقوتي و غرَّني سترك المرخي عليَّ فأقدمت
 على معصيتك بجهلي و خالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو يحبل من
 أعنصم إن قطعت حبلك عنِّي واسواتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفِّين
 جوزوا ، وللمثقلين : حطوا ، أمع المخفِّين أجوز أم مع المثقلين أخط ، ويلي كلَّما

كبرت سنّي كثرت ذنوبي ، ويلي كلّما طال عمري كثرت معاصي ، فإلى متى أتوب
وفي كم أعود أما آن لي أن أستحي من ربّي .

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم و في معاتبة نفوسهم و إنّما مطلبهم من
المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة
لم يكن لنفسه مراعيّاً و يوشك أن لا يكون الله عنه راضياً .

تمّ كتاب المحاسبة و المراقبة من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء و لله
الحمد و المنة ، و يتلوّه إن شاء الله تعالى كتاب التفكّر و الحمد لله ربّ العالمين و
الصلوة و السلام على أنبيائه و أوليائه أجمعين سيّما أفضلهم و أكرمهم محمّد و آله
الطاهرين آمين .



كتاب التفكر

و هو الكتاب التاسع من ربيع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لم يقدر لانتها عزته نحواً ولا قطراً ، ولم يجعل لمراقبي أقدام
الأوهام و مرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمت مجرى ، و ترك قلوب الطالبين في
بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً ،
وإذا هممت بالانصراف آتسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ، ثم قيل لها
أجيلي في ذلّ العبودية منك فكراً لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقديري له
قدراً ، و إن طلبت وراء التفكر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله و أياديه كيف
توالت عليك تترى ، و جددي لكلّ نعمة منها ذكراً و شكراً ، و تأملي في بحار
المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً و شراً ، و نفعاً و ضرراً ، و عسراً و يسراً ،
و ربحاً و خسراً ، و جبراً و كسراً ، و طيباً و نشراً ، و إيماناً و كفراناً ، و عرفاناً
و نكراً ، و إن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً (١)
و خاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً و جوراً ، فقد انبهرت العقول دون
مبادي إشراقه و انتكصت على أعقابها اضطراراً و قهراً .

و الصلاة على محمد المصطفى إذ كان سيّد ولد آدم و لم يعدّ سيادته فخراً صلاة
تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة و ذخراً ، و على آله و أصحابه الذين أصبح كلّ
واحد منهم في سماء الدّين بدرأ و لطوائف المسلمين صدراً و سلّم .

(١) اى امرأ منكراً .

أما بعد فقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة (١) و أكثر الحث في كتاب الله عز وجل على التدبّر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدئ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضيلته ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته و مصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيما ذا يتفكر ولما ذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أو لثمرته تستفاد منه وإن كان لثمرته فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولاً فضيلة التفكير ، ثم حقيقة التفكير و ثمرته ، ثم مجاري الفكر ومسارحه إن شاء الله .

﴿ فضيلة التفكير ﴾

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى و أثنى على المتفكرين فقال تعالى : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً » (٢) ، وقد قال ابن عباس : إن قوماً تفكّروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ : « تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره » (٣) وعن النبي ﷺ « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكّرون فقال ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل ، قال : فكذلك فافعلوا تفكّروا في خلقه ولا تتفكّروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها و

(١) رواه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ « ستين سنة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث انس بلفظ « ثمانين سنة » ورواه أبو - الشيخ في كتاب العظمة من قول ابن عباس (المعنى) أقول : ورواه بلفظه العياشي في تفسيره من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام . كما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر من ١٩٥ .

(٢) آل عمران : ١٩١ .

(٣) رواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس كما في الجامع الصغير .

بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفه عين ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال : ما يدرون خلق الشيطان أم لا ، قالوا : من ولد آدم قال : لا يدرون خلق آدم أم لا^(١) و « عن عطاء قال : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا فقال قول النبي ﷺ : « زرعياً تزدد حباً » فقال ابن عمير : أخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال : فبكيت وقالت : كل أمره كان عجباً أثناني في ليلتي حتى مس جلدي جلده ثم قال : ذريني أتعبد لربّي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحبته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر فقال : ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار »^(٢) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »^(٣) .

وقيل للأوزاعي : ما غاية التفكير فيهن ؟ قال : تقرأهن وتعقلن .

أقول : ومن طريق الخاصة عن أمير المؤمنين عليه السلام « التفكير يدعو إلى البر والعمل به »^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام « أفضل العبادة إيمان التفكير في الله وفي قدرته »^(٥) .
وعنه عن علي عليه السلام « نبّه بالتفكير قلبك ، وجاف عن الليل جنبك ، واتق الله ربك »^(٦) .

(١) أخرج صدره ابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس كما في الدر المنثور ج ٢ ص ١١٠ وقال العراقي رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام .
(٢) آل عمران : ١٩٠ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التفكير وقد تقدم في كتاب الصبر والتسكير .

(٤) و (٥) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٥ و ٣ .

(٦) المصدر ج ٢ ص ٥٤ تحت رقم ١ .

وعن الرضا عليه السلام : « ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكير في أمر الله تعالى ^(١) » .

قال : أبو حامد : وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت : كان نهاده أجمع في ناحية البيت يتفكر . وقال بعض السلف : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال آخر : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقال آخر : الفكرة مخ العقل وقد قيل : إذا المرء كانت له فكرة ✽ ففي كل شيء له عبرة

وروي أن الحواريين قالوا لعيسى ابن مريم عليه السلام : هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم من كان منطقته ذكراً وصمته فكراً ونظيره عبرة فإنّه مثلي . وقال بعض السلف : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو . وفي قول الله عز وجل : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ^(٢) » قال : أمنع قلوبهم من التفكير في أمري .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعطوا أعينكم حظّها من العبادة ، قالوا : وما حظّها من العبادة يا رسول الله ؟ قال : النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه ^(٣) » .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت لوططالعت قلوب المتّقين بفكرها إلى ما قد ادّخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمرّ به مولاه فيقول : يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس لكان آنس لك ، فيقول

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٤ .

(٢) الاعراف : ١٤٥ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير ، و من طريقه ابو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة كما في المغنى .

لقمان : إن طول الوحدة أفهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة ، وقال وهب بن منبه : «ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل ، وعن ابن عباس ر كعتان مقتصرتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب ، وقال بعضهم : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلب ، وقال آخر : من العبرة يزيد العلم ومن الذكّر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف ، وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه ، ويروى أن الله عز وجل قال في بعض كتبه : إنني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همّه وهواه فإذا كان همّه وهواه لي جعلت صمته تفكيراً وكلامه محمداً وإن لم يتكلم . وقال بعض السلف : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكّر على الفكر وبالفكر على الذكّر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة ، وقال آخر : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسّم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبّة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن بالله تعالى ثم قال : يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألدّه طوبى لمن رزقه ، قال بعض السلف : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة ، وقال أيضاً : صحّة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والرؤية والفكر يكشفان عن الحزم والعظّة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ، ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تندم ، وقال أيضاً : الفضائل أربع إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، والثانية العفة وقوامها في الشهوة ، والثالثة القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحده في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

❖ (بيان حقيقة الفكر وثمرته) ❖

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار مغرقتين في النفس ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أن من مال إلى العاجلة و آثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف

أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار فية لئله ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرد قوله وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة والطريق الثاني أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقيق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً . أما التأمل والتدبر والتفكير فعبارات مترادفة على معنى واحد ليست تحتها معان مختلفة ، فأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحداً كما أن اسم الصارم والسيف والمهند يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه ، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنّه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة فإن لم يقع العبور ولم يكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار ، فأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكراً وفائدة التذكّر تكرار المعارف على القلب لترسخ وثبت ولا تنمحي عن القلب ، و فائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة وازدوجت مع معرفة أخرى حصل منها نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية وإنما ينسد طريق زيادة المعارف بالموت أو العوائق ، هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق زيادة المعارف وطريق التفكير ، فأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم

لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي منها تستثمر العلوم كالذي لابضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح ، فكذلك قد يكون له من المعارف ما هو رأس العلوم ولكنه ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتائج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبيا عليهم السلام وذلك عزيز جداً وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ، ثم المتفكر قد تحضر له هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنه لقلة ممارسته لصناعة التدبير في الإيراد فكمن إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالاثار علماً حقيقياً ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفة إلا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الأبقى أولى بالاثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالاثار فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأما ثمره الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرتها الخاصة العلم لاغير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال ، والحال تابع للعلم والعلم تابع للفكر والفكر إذن هو المبدء والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن في الفكر ذكراً وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فإن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وقيل : هو الذي ينتقل من المكاء إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل : هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى : « لعلهم يتقون » أو يحدث لهم ذكراً ^(١) ، وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالاثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في

قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في إطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات أولها الذكّر وهو إحضار المعرفتين في القلب ، وثانيها التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما ، والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها ، والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة ، والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحالة ، فكما تضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فيصير العين بها مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتمض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة^(١) هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه ، ثم تنتمض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتمض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانهاية لها والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ، فلهذا لو أراد مرید أن يحصى فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطاً جلياً فإن تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فإنها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط المجامع فيه ليحصل الوقوف على مجاري الفكر فيه .

(١) الزند هو العود الذي تقدح به النار جمعه زناد .

* (بيان مجارى الفكر) *

اعلم أن الفكر قديجري في أمر يتعلق بالدين وقديجري فيما يتعلق بغير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ولا يمكن أن يخرج من هذين القسمين وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظراً فيما هو محبوبٌ عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى وإما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون نظراً في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرضين وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو أن حال السائرين إلى الله والمشتاقين إلى لقاءه يضاوي حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثلاً فنقول : العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه ، فإن تفكر في معشوقه فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته ليتنعم بالفكر فيه ومشاهدته ، وإما أن يتفكر في أعماله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذته ومقوياً لمحبتة وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها أو في الصفات التي تقر به منه وتحببه إليه حتى يتصف بها فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق وهو نقصان فيه لأنّ العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستولى على القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره ، فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة فلنبداً بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا القسم هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصود هذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ، ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم

إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المنجيات والمهلكات . والطاعات والمعاصي تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار عن الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكاره التفكير في ثلاثة أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر ، والثاني التفكير في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه ، والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من هذه المحبوبات ينقسم هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى التفكير إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الأقسام يطول ولكن انحصر هذا القسم أعني قسم المعاملة في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المنجيات والمهلكات ، فلنذكر في كل نوع مثلاً ليقيس به المرید سائرهما وينفتح له باب الفكر ويتسع له طريقه .

النوع الأول المعاصي وينبغي أن يفتش العبد صبيحة كل يوم عن جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لا بسبها بالأمر فيتداركها بالترك والتقدم ، أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول : إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني إلى غير ذلك من المكاره فيقرر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منها ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ولا يضع حجرة في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له فهذا يكون الفكر

في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد ومن عمرو وأنه كيف ينبغي أن يحترز عنهم بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر مهما سمع ذلك ، ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله فيه بالأكل والشرب . إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروه عند الله عز وجل ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ويتفكر في طرق الحلال ومداخله ثم يتفكر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة عند الله مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله لا يقبل صلاة عبده في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به ^(١) فهكذا يتفكر في أعضائه . وفي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فمهما حصلت بالفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثاني وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما كتبه الله عز وجل عليه فيقول مثلاً : إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء وأزجره بذلك عن معصيته فلم لأفعله ، وكذلك يقول في سمعه : إنني قادر على استماع كلام الله أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فمالي أعطله وقد أنعم الله عز وجل علي به وأودعني لا شكره ، فمالي أكر نعمة الله فيه بتضييعه

(١) أخرج أحمد في مسنده ج ٢ ص ٩٨ من حديث ابن عمر عن نبي صلى الله عليه

وآله قال : «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله له مائة مادام عليه» .

وتعطيله ، وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمر والعالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإتيار أحوج مني إلى ذلك المال ، وهكذا يفتش عن أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلماحه وأولاده فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله عز وجل بها ويستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يدعوه إلى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى ينكبها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

وأما النوع الثالث فهو الصفات المهلكة التي محلها القلب فيعرفها بما ذكرناه في ربيع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فإن النفس أبدأ تعدد الخير من نفسها وتكذب فإذا ادّعت النواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن يجرب نفسه بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم ، وإذا ادّعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات ، وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولها علامات ذكرناها في ربيع المهلكات فإذا دلت العلامات على وجودها ففكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده ويتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة^(١) كما لورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول : إنما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي وكل ذلك ليس مني ولا إلي وإنما هو من خلق الله عز وجل وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق قدرتي وإرادتي وهو الذي حرّك

(١) دخلة الرجل - مثلثة - ودخلته نيتة ومنهجه وجميع أمره .

أعضائي بقدرته فكيف أعجب بعلمي أو بنفسي ولا قوام لنفسي بنفسي ، وإذا أحس في نفسه بالكبر قرّر على نفسه ما فيها من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو كبير عند الله وذلك ينكشف بعد الموت ، وكم من كافر في الحال يموت متقرّراً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيّاً بتغيّر حاله عند الموت بسوء الخاتمة ، فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالته بأن يتعاطى أفعال المتواضعين ، وإذا وحد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتّصف بهما البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد ، وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتّسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب .

وأما النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله عز وجل وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له ، وكل ذلك ذكرناه في هذا الرّبع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم وليلة في قلبه وما الذي يعوزه ^(١) من هذه الصفات التي هي المقرّبة إلى الله عز وجل ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار ، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش عن ذنوبه أوّلًا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيه وليحقّق عند نفسه أنه متعرّض لمقت الله عز وجل به حتّى ينبعث له حال الندم ، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك ، وإذا أراد حال المحبة والشوق

(١) أعوذ الرجل اعوازا افتقر ، وأعوذه الدهر أقمره

فليتفكر في جلال الله عز وجل وجماله وعظمته وكبريائه ، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنر من إلى طرف يسير منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم في المناقشة في الحساب والمضائق في النقيير والقطمير ، ثم في الصراط ودقته وحدته ، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين وينزل دار القرار ، ثم ليحضر أهول القيامة في قلبه من صورة جهنم ودركاتا ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقوماتها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صورة الزبانية الموكّلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا زفيرها وتغيظها وهلمّ جرّاً إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها ، وإذا أراد أن يستجلب حال الرّجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأثمارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر الاتّصاف بأحوال محبوبة أو التنزّه عن الصفات مذمومة وقد ذكرنا في كلّ واحدة من هذه الأفعال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر ، أمّا بذكر مجاميعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ففيه ما يورث الخوف والرّجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردّد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرّة بعد أخرى ولو مائة مرّة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمه بغير تدبّر وفهم وليتوقف في التأمل فيها ولو في ليلة واحدة فإن تحت كلّ كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلّا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار النبي ﷺ فقد أوتي جوامع الكلم ^(١) «كلّ كلمة من كلامه بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم

حقّ تأمله لم ينقطع فيها نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله عليه السلام : « إن روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فأنتك مفارقة وعش ماشئت فأنتك ميتة واعمل ما شئت فأنتك مجزي به » ^(١) فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم وحالات بينهم وبين التلقّات إلى الدنيا بالكلّية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة و صفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله أو مكروهة والمبتدي ينبغي أن يكون مستغرق الهم في هذه الأفكار حتّى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزّه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع أنّه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله وجماله واستغراق القلب بحيث يغنى عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته و صفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنّه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذّة العشاق فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال له : فيم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حالي في التوكّل قال : أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد . فالفناء في الواحد الحقّ هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين وأما التنزّه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح والاتّصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات يجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ، فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرّحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء زوجها فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدّين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد

السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجر ، فدونك وإتعب البدن بالأعمال الظاهرة فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة قوم آخرون ، فإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك في كل صباح ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبتعدة عن الله عز وجل وأحوالك المقرّبة إليه تعالى بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يكتب فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فإنه إن سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجيات عشر وهي الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص في العمل وحسن الخلق مع الخلق وحب الله والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشر منها مذمومة وعشر محمودة . فمهما كفي عن المذمومات واحدة فيخطئ عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله عز وجل على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسع البواقي وهكذا يفعل حتى يخطئ على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالانصاف بالمنجيات فإذا انصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً حفظ عليها واشتغل بالبواقي وهذا يحتاج إليه المريد المتشمر فأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جريدتهم المعاصي الظاهرة كالأكل بالشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمرأى والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاته الأولياء والمداينة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح من الآثام لا يمكنه الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من

الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها و تفكرهم فيها لا في معاصهم بمعزل عنها ، مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم و طلب الشهرة و انتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ و من فعل ذلك تصدّى لفئة عظيمة لا ينجو منها إلا الصّدّيقون فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لن ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزيين والتصنع وذلك من المهلكات وإن ردّ كلامه لم ينفك عن أنفة وغيظ وحقّد على من ردّه وهو أكثر من غيظه على من يردّ عليه كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنّه ردّ الحقّ وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يردّ عليه كلامه أو يردّ على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له إرتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الردّ والاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ و الايراد حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المنكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنّا حرصك على تحسين الألفاظ و التكلف فيها لينتشر الحقّ و يحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله عزّ وجلّ ، فإن كان فرحه بحسن الألفاظ وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنّا يدندن حول طلب الجاه و هو يظنّ أن مطلبه الدّين و مهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتّى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً و يكون بلفائه أشدّ استبشاراً ممّن يغلو في موالاته غيره و إن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاته ، و ربّما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنّه منتفع بغيره و مستفيد منه في دينه و كلّ هذا رشح الصفات المهلكات المستكنّة في سرّ القلب التي قد يظنّ العالم النجاة منها و هو مغرور فيها و إنّا ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة و هو إمّا مالك و إمّا هالك و لا مطمع له في سلامة العوام ، فمن أحسن في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة و طلب الخمول والمدافعة للفتاوي مهما سئل فقد كان المسجد يهوى جمعاً من أصحاب النبي ﷺ كلّهم مفتونون و

« كانوا يتدافعون الفتوى فكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذ قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الإسلام مستغن عني فإنه كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي ولومت لم تنهدم أركان الإسلام فالدّين مستغن عني وأما أنا فلست بمستغن عن إصلاح قلبي وأما إفضاء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حبّ العلو والرئاسة يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ^(١) » « وإن الله يؤيد هذا الدين بالرّجل الفاجر ^(٢) » فلا ينبغي أن يغترّ العالم بهذه التدبيسات ويشغل بمخالطة الخلق حتّى يتربّس في قلبه حبّ الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق قال النبي ﷺ : « حبّ المال و الجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ^(٣) » وقال ﷺ : « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريته غنم بأكثر فساداً فيهما من حبّ الجاه والمال في دين المرء المسلم ^(٤) » ولا ينقلع حبّ الجاه من القلب إلّا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في النقطتين لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منه وهذه وظيفة العالم المتّقّي ، فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكّرنا فيما يقوّى أيماننا بيوم الحساب إذ لو رآنا السلف الصّالحون لقالوا قطعاً إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أمثالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه ، وقد علمنا أن الهرب من

(١) و(٢) تقد ما عن البخارى فى صحيحه وابوعوانه فى مسنده .

(٣) تقدم فى المجلد السادس ص ٤٠ .

(٤) رواه أحمد والترمذى وقد تقدم فى المجلد السادس ص ٤١ .

النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي و نحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات و نحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا و التكاليف عليها و يقال : لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه منا فليتنا كنساً كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فيها ففسأل الله عز وجل أن يصلحنا و يصلح بنا و يوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم و ارتقوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والنعيم بمشاهدته بعين القلب و لا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات و الاتصاف بجميع المنجيات و إن ظهر منه شيء قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدرًا مقطوعاً و كان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه عقارب تلدغه مرة بعد أخرى فيتغنص عليه لذّة المشاهدة و لا طريق له في إكمال النعيم إلا باخراج العقارب من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكرهة عند ربه .

القسم الثاني الفكر جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامات :

المقام الأول وهو الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل : « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله » (١) وذلك لأن العقول تنحسر فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر إليه بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله كحال بصر الخفّاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنه لا يطيقه البتة بل يختفي نهاراً وإنما يتردّد دليلاً لينظر في بقيّة نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان بالنظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولكن لا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو

(١) تقدم في باب فضيلة التفكير .

أدام النظر إليها ونظره المختطف إليها يورث العمش وتضعف البصر وكذلك النظر إلى ذات الله عز وجل يورث الحيرة والدَّهْش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله وصفاته فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله عز وجل مقدس عن المكان ، منزّه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا إسماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسماً مشخّصاً له حجم ومقدار فأنكروا هذا فظنوا أن ذلك قدح في عظمتهم وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف إلا له فظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأجزاء وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ولا يستعظم إلا نفسه ، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه فعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريرته وبين يديه غلمان يمثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذئب باب عقل وقيل له : ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك ، وقال : كيف يكون خالقي انقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران ، أو يكون لي آلة وقدرة ولا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول أكثر الخلق قريبة من هذا العقل ، وإن الإنسان جهول ظلوم كفّار ولذلك أوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكرون ولكن أخبرهم عنّي بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله عز وجل وصفاته مخطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق بأن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر إلى أفعاله وعجائب صنعته وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فننظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لنطبق النظر إلى صفاته كما أننا [لا] نطبق النظر

إلى الأرض مهما استنار بنور الشمس ونستدل به على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الأثر يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنواره بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضئية بنفسها ومهما انكسف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طست ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها وكذلك الأفعال واسطة يشاهد فيها صفات الفاعل ولا يبهرننا نور الذات بعد أن تباعدنا عنه بواسطة الأفعال ، فهذا سر قوله ﷻ «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله».

✽ (بيان كيفية التفكير في خلق الله عز وجل) ✽

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله فعل الله عز وجل وخلقته وكل ذرة من الدرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي بل عشر عشر ذلك ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه . فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها ، وكم من الموجودات التي لانعلمها كما قال تعالى : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ^(١) » وقال « وننشئكم فيما لاتعلمون ^(٢) » وإلى ما يعرف أصلها وجللتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدر كناه بحس البصر وإلى ما لا ندر كنهه بالبصر أمّا ما لا ندر كنهه بالبصر فكلما لائكة والجن والشياطين وأمّا المدركات بحس البصر فهي السماوات السبع والأرضون وما بينهما والسماوات

(١) يس : ٣٦ .

(٢) الواقعة : ٦١ .

مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحر كبتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنها ها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، فهذه هي الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام وينشعب كل قسم إلى أصناف ولا نهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاتها وهياتها ومعانيها الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجالي الفكر فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ونبات وحيوان وفلك وكوكب إلا ومحركها هو الله عز وجل وفي حر كبتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال : « إن في خالق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الأبصار ^(١) » وكما قال « ومن آياته » و « من آياته » من أوّل القرآن إلى آخره فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات .

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنها فيأمن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ^(٢) وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة ، فقال تعالى : « قتل الإنسان إلاّ ناساً ما أكفره » من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسّره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ^(٣) وقال تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنمشون ^(٤) » وقال : « ألم يك نطفة من مني يمنى » ثم كان علقه فخلق فسوى ^(٥) وقال : « ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار

(٢) الذاريات : ٢١ .

(١) آل عمران : ١٩٠ .

(٤) الروم : ٢٠ .

(٣) عبس : ١٧ - إلى ٢٢ .

(٥) القيامة : ٢٧ و ٢٨ .

مكن^(١)، وقال : « أو لم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين^(٢) »
وقال : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه^(٣) » .

ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظماً وقال تعالى :
« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين^٥ » ثم جعلناه نطفة في قرار مكين^٦ ثم خلقنا
النطفة علقة - الآية^(٤) فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظها
ويترك التأمل في معناها فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة ولوتركت
ساعة يضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب
وكيف جمع بين الذكر والانثى ؟ وألقى الألف والمحبة في قلبهما ؟ وكيف قادهما
بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ؟ وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة
الوقاع ؟ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الأرحام ؟ ثم كيف
خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه ورباه وكيف جعل النطفة وهي
بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة
وهي متشابهة متساوية إلى العظم والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف
ركب من اللحم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر
والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع
بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة
والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ، بمقدار مخصوص لعمل
مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام آخر فركب العين من
سبع طبقات لكل طبقه وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقه منها أوزالت
صفة من صفاتها لتعطلت العين عن الإبصار ولودهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء
من العجائب والآيات لا نقصت فيه الأعمار ، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام
قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ،

(٢) يس : ٧٧ .

(١) المرسلات : ٢٠ و ٢١ .

(٤) المؤمنون : ١٢ و ١٣ و ١٤ .

(٣) الدهر : ٢ .

ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال متفاوتة فمنها صغيرٌ وكبيرٌ وطويلٌ ومستديرٌ ومجوفٌ ومصمتٌ وعريضٌ ودقيقٌ ، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملته بدنه و ببعض أعضائه للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينهما مفاصل حتى يتيسر بها الحركة وقدّر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق بالطرف الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرًا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد حركة جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولو لالمفاصل انتعذر عليه ذلك ، ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوت به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف ^(١) وأربعة عشر للحجى الأعلى والاثنيان للحجى الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للمقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ، ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات ^(٢) مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على البعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر .

وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ويتصل به من أسفله عظم العصعص ^(٣) وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدور وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ولانطول بذكر عدده ، ومجموع العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية

(١) القحف - بالكسر - : العظم فوق الدماغ .

(٢) يعنى بها فقرات الظهر .

(٣) العصعص - كقنفذ - : عصب الذنوب أى أصله .

و أربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة سخيقة رقيقة و ليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرّحون وإنما الغرض منها أن ينظر في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها و أقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالا على الإنسان و يحتاج إلى قلعه ، و لو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلّوا بها على جلاله خالقها ومصوّرها ، فشتان ما بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة والعضلة هي المركبة من اللحم والعصب والربط والأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها و لو نقصت واحدة من جملتها لاختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص و قدر مخصوص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرائين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، و شرحه يطول وللتفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في آحاد هذا الأعضاء ، ثم في جملة البدن وكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن ، و عجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته لترى فيها من الصنعة ما يقضي به العجب وكل ذلك صنع الله تعالى في قطرة ماء قدرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السماوات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ، ولا تظن أن ذرة من ملكوت السماوات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات ولذلك قال تعالى : « أنتم

أشدّ خلقاً أم السماء بناها ^(١) « فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وتأمل أنه لو اجتمع الانس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصرأ أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلدأ أو شعراً هل يقدرّون عليها بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفيّة خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنها فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنّق النقّاش ^(٢) في تصويرها حتّى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنّه إنسان عظم تعجّبك من صنعة النقّاش وحذقه وخفّة يده وتمام فطنته ولعظم في قلبك محله مع أنّك تعلم أنّ تلك الصّورة إنّما تمّت بالصّبغ والقلم والحائط واليد والقدرة والعلم والإرادة ، و شيء من ذلك ليس من فعل النقّاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنّما منتهى فعله الجمع بين الصّبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجّبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القدرة التي كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والشرائب ثمّ أخرجها منها وشكّلها وأحسن تشكيّلها وقدرها فأحسن تقديرها وصوّرها فأحسن تصويرها وقسم أجزائها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزيّن ظاهرها وباطنها ورتّب عروقه وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها وجعلها سمياً بصيراً عالماً ناطقاً ، فخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسّها ففتح العين ورتّب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ثمّ سماها بأجنان لتسترها وتحفظها وتصلقها وتدفع الأعداء عنها ، ثمّ أظهر في مقدار عدسة منها صورة السماء مع اتّساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها وشقّ أذنيه وأدوعهما ماءً مرّاً لحفظ سمعها ويدفع الهوامّ عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فتردّها إلى صماخها ولتحسّ بدبيب الهوامّ إليها وجعل فيها تجويفات وأعوجاجات لتكثر حركة ما يدبّ فيها ويطول طريقها

(١) النازعات : ٢٢ .

(٢) تأنّق في عمله أى عمله باتقان .

فينتبه عن النوم صاحبها إذا قصدته الدابة في نوم ، ثم رفع الأنف من وسط الوجه و أحسن شكله و فتح منخريه وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الرائحة على مطامحه و أغذيته و ليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه و ترويحاً لحرارة باطنه ، و فتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً و ترجماناً و معرباً عما في القلب و زين الفم بالأسنان و لتكون آلة للطحن و الكسر والقطع ، فأحكم أصولها وحد رؤوسها و حسن لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ، و خلق الشفتين و حسن لونها وشكلهما لتنطبقا على الفم و تسد منافذه و ليتم بهما حروف الكلام ، ثم خلق الحنجرة و هيئها لخروج الأصوات ، و خلق اللسان قدرة للحركات و التقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليمتدح طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق و السعة و الخشونة و الملاسة و صلابة الجوهر و رخاوته و الطول و القصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة ، ثم زين الرأس بالشعور و الأصداغ ^(١) ، و زين الوجه باللحية و الحاجبين ، و زين الحاجبين بدقة الشعر و استقواس الشكل و زين العينين بالأهداب ^(٢) ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لحالة الغذاء إلى الدم و الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمه بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمه لجذب الصفراء عنه ، والكلية تخدمه لجذب المائية عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه عن طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ، ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد و عرض الكف و قسم الأصابع الخمس و قسم كل أصبع بثلاث أنامل و وضع الأربع في جانب و الإبهام في جانب لندور الإبهام على الجميع و لو اجتمع

(١) هي الشعور المتدلية على الصدغين والصدغ ما بين العين والاذن .

(٢) جمع هدبة وآن بفارسي مرّة چشم است .

الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدرُوا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت إليه للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت آلة للضرب وإن ضمها ضمماً غير تام كانت مغرفة^(١) وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له^(٢)، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهرت به حكمة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقدّم شيء مقامه في حكم بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل، ثم خلق هذا كله في النطفة وهي في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا آله فهل رأيت مصوراً أفاعلاً لا يمس آله مصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيها، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه، ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لمّا كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبّر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والدّم خالصاً سائغاً، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت لهما الحلمة^(٣) على قدر ما ينطبق عليه فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص

(١) مغرفة هي ما يقال لها بالفارسية «چمچه».

(٢) جرف بالفارسي «كاويدن» ومجرفة بمعنى يبل است.

(٣) الحلمة - معركة - التؤلؤل في وسط الثدي وهو العبة على رأسه.

تدريجاً فإنَّ الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثمَّ كيف هداه إلى الإمتصاص حتَّى يستخرج من ذلك المضيّق اللَّبَن الكثير عند شدَّة الجوع ، ثمَّ أنظر إلى عطفه و رأفته كيف أخَّر خلق الأَسنان إلى تمام الحولين لأنَّه في الحولين لا يتغذَّى إلا باللَّبَن فيستغني عن السنِّ وإذا كبر لم يوافقَه اللَّبَن السَّخيف ويحتاج إلى الطعام الغليظ ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأُنبت له الأَسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة من اللَّسَّات اللَّيِّنة ثمَّ حنَّن قلوب الوالدين عليه للمقيام بتدبيره في الوقت الَّذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلو لم يسلِّط الله سبحانه الرَّحمة على قلبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثمَّ انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتَّى بلغ وتكامل فصار مرأهاً ثمَّ شاباً ثمَّ كهلاً ثمَّ شيخاً إمَّا كفوراً أو شكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى : «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً» إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكراً وَإِمَّا كَفُوراً^(١)» فانظر إلى اللَّطف والكرم ثمَّ إلى القدرة والحكمة تبهرك^(٢) عجائب الحضرة الرُّبوبيَّة ، والعجب كلُّ العجب ممَّن يرى خطأ حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فينصرف جميع همِّه إلى التفكير في الخطأ والنقاش وأنَّه كيف خطَّه ونقشه وكيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه ويقول ما أحذقه وما أبجل صنعته وأحسن قدرته ، ثمَّ ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ويغفل عن صانعه ومصوِّره ، فلا تدهشه عظمتُه ولا يحيره جلاله وحكمته ، فهذه نبذة من عجائب بدنك الَّتِي لا يمكن استقصاؤها ، وهي أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل وتشارك في معرفة ذلك البهائم والسَّباع كُلِّها وإنَّما خاصيَّة الإنسان الَّتِي حجبَت البهائم عنها معرفة الله عزَّ وجلَّ بالنظر في ملكوت السَّمَاوَات والأرض

(١) الدهر : ١ إلى ٣ .

(٢) بهر القمر غلب ضوؤه الكواكب .

وعجائب الآفاق والأفانفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّباً من حضرة ربّ العالمين ، وليست هذه الرتبة للبهايم ولا للإنسان إذا رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنّه شرٌّ من البهيمة بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك ، فأما هو فقد خلقت له القدرة ثمّ عطلها وكفّر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ، وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرّك ثمّ في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثمّ ارتفع منها إلى ملكوت السماوات .

اما الارض فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاءاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها وجعلها وقوراً لا تتحرّك وأرسى فيها الجبال أو تاداً لها تمنعها من أن تميد ، ثمّ وسّع أكنافها حتّى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالّت أعمارهم وكثرت تطوافهم فقال تعالى : « والسّماء بنيناها بأيدينا ولموسعون بها » والأرض فرشناها فنعم المهادون ^(١) ، وقال تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها » ^(٢) وقال : « الذي جعل لكم الأرض فراشاً » ^(٣) وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّاً للأحياء وبطنها للأموات ، ولذلك قال تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ^(٤) وأمواتاً » فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربّت واخضرّت وأنبئت عجائب النّبات وخرجت منها أصناف الحيوان ، ثمّ انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الرّاسيات الشوامخ الصّم الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ففجّر العيون وأسّال الأنهار تجري على وجهها وإنّما أخرج من الحجارة اليابسة

(٢) الملك : ١٥ .

(١) الذاريات : ٤٨ .

(٣) البقرة : ٢٢ .

(٤) المرسلات : ٢٥ و ٢٦ . وقوله تعالى « كفاتاً » قال البيضاوي : أي كافتة ، اسم لما يكفت أي يضم ويجمع ، كالضمام والجماع لما يضم ويجمع ، أو مصدر نعت به أو جمع كافت كصائم وصيام أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار انقطاعها .

ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً وجعل به كل شيء حياً^(١) فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والارائيح ففضل بعضها على بعض في الاكل تسقى جميعاً بماء واحد وتخرج من أرض واحدة ، فان قلت : إن اختلافها لاختلاف بذورها وأصولها فمتى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد^(٢) الرطب ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ثم انظر إلى أراضي البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتري بها تراباً متشابها فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعها وكيف أودع الله العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذي ، وهذا يقوّي ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يجمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما ، وهذا يستحيل دماً ، وهذا يصفّي الدم ، وهذا يفرح ، وهذا ينوم ، وهذا يقوّي ؛ وهذا يضعف فلم ينبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد منها يحتاج الفلاح في تربيتها إلى عمل مخصوص فالنخيل يؤبّر^(٣) والكرم يقطع والزّرع ينقى منه الحشيش والدغل^(٤)

(١) لعله مأخوذ من قوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ولا يخفى ان معنى الآية أن الله تعالى جعل كل شيء حي من الماء لا كل شيء حياً من الماء . وفي الاحياء طبيعته المختلفة بابران ومصر والهند كلها « وجعل به كل شيء حي » وهو العنقود .

(٢) جمع عنقود بمعنى خوشه .

(٣) الابار - بالكسر - هو ادخال شيء من طلع النخل الذكر في طلع الانثى فيعلق باذن الله . أبر النخلة وأبرة - بالتشديد - أى لقمه وأصلحه .

(٤) الدغل - معرّكة - : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك النبات .

وبعضها تستنبت ببث البذر في الأرض وبعضها تغرس الأغصان وبعضها تركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعها ومنافعها وأحوالها وعجائبها لانقضت الأيام في وصفها فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والنحاس والفضة والفيروزج واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق ^(١) كالذهب والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللؤلؤ ، وكيف هدى الله تعالى الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها ، ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقيز وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك عليها ، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيصير ملحاً مالحاً محرقاً بحيث لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فيتمتعاً عيشك ، وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا ضائعاً ولا هزلاً بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ، ولذلك قال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ما خلقناهما إلا بالحق ^(٢) .

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي ، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة ويشاهد ذلك في بعض الحشرات والديدان وانقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر وإلى

(١) المطرقة آلة الحدادين ، جمعها مطارق .

(٢) الدخان : ٣٩ و ٤٠ .

البهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشكُّ معها في عظمة خالقها وقدرته مقدِّرها وحكمة مصوِّرها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقَّة^(١) أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها زوجها وفي أدِّخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر ، فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثمَّ يبتدي فيلقي اللُّعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به فيعدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثمَّ يحكم كذلك ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينها متناسباً تناسباً هندسياً حتى إذا أحكم معاهد القمط^(٢) ورتب الخيوط كاللحمة فيشتغل بالتسدية فيلصق السدى إلى اللحمة ويحكم العقد على موضع التقاء السدى^(٣) باللحمة ويرعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقُّ والذباب ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع فيها بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصله بين طرفي الزاوية بخيط ثمَّ علّق نفسه منها بخيط آخر وبقي متنكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت ذبابة رمى بنفسه إليها فأخذها وأحكم خيطه على رجلها وأحكمها ثمَّ أكلها ، وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من هذه العجائب ما لا يحصى افترى أنَّه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمي أو علّمه إله لاهدائي له ولا معلّم أيشكُّ ذو - بصيرة في أنَّه مسكين عاجز ضعيف بل الفيل العظيم شخصه الظاهر قوَّته عاجز عن أمر نفسه فكيف بهذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بنفسه وشكله وصورته وحر كته

(١) هي ما يقال له بالفارسية « بشه » .

(٢) القمط - بكسر القاف - : حبل تشد به قوائم الشاة للذبح .

(٣) السدى - بفتح السين - : ضد اللحمة وهو ما يمد طولاً في النسيج واسديت الثوب

بالالف اقامت سداه ، ولحمة الثوب ما ينسج عرضاً .

وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ، فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحيّر فيه الأبواب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات ، وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإنّ الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنّما سقط تعجّب القلوب منها لأنّسها بكثرة المشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجددّ تعجّبه وقال : سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجّب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألّفها ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقها وأكنافاً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوناً لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبراري والمفاوز لا كثر الناظر التعجّب من حكمة خالقها ومصوّرها فإنّه ما خلقها إلاّ يعلم مفيد بجميع منافعها سابق على خلقه إيّاها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكّر ومن غير تأمّل وتدبّر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ولقد استخرج بأقلّ القليل ممّا خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلاّ الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف برؤوسيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن الذي يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنّما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يكرمنا بهدايته بمنّهِ ورأفته .

ومن آياته البحار العميقة المكننة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأخضر المحيط بجميع الأرض حتّى أنّ جميع المكشوف من البوادي والجبال بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي ﷺ : « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض ^(١) » فانسب اصطبلًا إلى جميع الأرض ، واعلم أنّ الأرض بالإضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب -

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً وقد تقدم .

الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فإن عجائب ما فيه من الحيوان و
الجواهر أضعاف عجائب ما نشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعتها
ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما يرى ظهورها في البحر فيظن أنها
جزيرة فينزل الركبان عليها فربما يحس بالنيران إذا اشتعلت فيتحرّك فيعلم
أنها حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقرة أو إنسان
إلا وفي البحر أمثاله وأصنافها ، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر قد ذكرت
أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بر كوب البحر وجمع عجائبه ، ثم انظر كيف
خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور
تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجرة تنبت من الحجر ، ثم تأمل ما عدها من
العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر ويستخرج منها ، ثم انظر إلى عجائب
السفن كيف أمسكها الله عز وجل على وجه الماء وسيّر فيها التجار وطلاب الأموال
وسخر لهم الفلك ليحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرف
الملاحين موارد الرياح ومهابتها ومواقيتها ، ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع
الله في البحر في مجلدات ، وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو
كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء
واحد لطيف التركيب سريع القبول للمتقطيع كأنه منفصل مسخر للتصرف وقابل
للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج
العبد إلى شربة ومنع لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثم إذا شربها
ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها فالعجب من الآدمي أن يستعظم
الدنيا والدّهر ونفائس الجواهر ويفغل عن نعمة الله عز وجل في شربة ماء ، إذا احتاج إلى
شربها وإخراجها لبذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار
ففيها متنوع للفكر ومجال وكل هذا شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة
بلسان حالها ، مفصحة عن جلالة بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب
القلوب بنعماتها ، قائلة : أما تراني وما ترى صورتي و تركيبي وصفاتي ومنافعي و

اختلاف حالاتي و كثرة فوائدي أظن أني تكوّنت بنفسي أو خلقتني أحد من جنسي أو ما تستحي تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها صنعة آدمي مريد عالم قادر متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحلّ الحظ ، ثم ينفك قلبك عن جلاله صانعه ، وتقول النطفة لأرباب السمع للذين هم عن السمع لمعزلون : توهموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقّاس حدقني وأجفاني ووجهي وخذني وشفتي فترى النقوش تظهر شيئاً فشيئاً ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجها ولا خبر منها لا لأب ولا لأم ولا لمنطقة ولا لرحم أفما هذا النقّاش بأعجب ممّن تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش الذي يعلم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للمنطقة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقّاش ومصوّر كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين والمباينة والتباعد ما بين الفاعلين ، وإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كلّ عجب فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه فسبحان من هدى وأضلّ وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه فشاهده في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلاؤه فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر ، لاراد لحكمه ولامعقّب لقضائه .

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدّب الأرض يدرك بحسّ اللمس عند هبوب الرّيح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجلته مثل البحر الواحد والطيور مخلّقة في جوّ السماء مسفحة سباحة فيها بأجنحتها كما تسبح حيوانات

البحر في الماء و تضطرب جوانبه و أمواجه عند هبوب الرِّياح كما تضطرب أمواج البحر فإذا حرَّك الله الهواء و جعله ريحاً هابّةً فإن شاء جعله بشري بين يدي رحمته كما قال : « و أرسلنا الرِّياح لواقع^(١) » فيصل بحر كنه روح الهواء إلى الحيوانات و النبات فتستعدُّ للنماء و إن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال : « إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر^٢ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر^(٢) » ثمَّ انظر إلى لطف الهواء ثمَّ شدّته و قوّته مهما ضغط في الماء فالزّق المنفوخ يتحمل عليه الرُّجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه و الحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته و بهذه الحكمة أمسك الله عزّ وجلّ السفن على وجه الماء و كذلك كلّ مجوّف فيه هوا لا يغوص في الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء و لا ينفصل عن السطح الدّاخِل في السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها و صلابتها معلّقة في الهواء اللّطيف كالّذي يقع في البئر ، فيتعلّق بذيل رجل قويّ ممتنع عن الهويّ في البئر و السفينة بمقرعها تتشبّث بأذيال الهواء القويّ حتّى يمتنع عن الهويّ و الغوص في الماء فسبحان من علّق المركب الثقيل من هوا لطيف من غير علاقة تشاهد و عقدة تشدّ ، ثمَّ انظر إلى عجائب الجوّ وما يظهر فيها من الغيوم والرّعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب و الصواعق و هي عجائب ما بين السماء و الأرض و قد أشار القرآن إلى جملته في قوله تعالى : « وما خلقنا السموات و الأرض وما بينهما لاعين^(٣) » و السحاب هو الذي بينهما وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال : « والسحاب المسخر بين السماء والأرض^(٤) وحيث تعرض للرّعد و البرق و السحاب و المطر . فإذا لم يكن لك حظّ من هذه الجملة إلّا أن ترى المطر بعينك و تسمع الرّعد بأذنك فالهيمّة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم

(١) الحجر : ٢٢ .

(٣) الدخان : ٣٨ .

(٢) القمر : ١٩ و ٢٠ .

(٤) البقرة : ١٦٤ .

البهائم إلى عالم الملائكة على فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة و انظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه و لا متمع في استيفائه ، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه تجمع في جو صاف لاكدورة فيه و كيف يخلقه الله عز وجل إذا شاء و متى شاء و هو مع رخاوته حامل للماء الثقيل و ممسك في جو السماء إلى أن يأذن الله عز وجل في إرساله الماء و تقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراد الله عز وجل و على الشكل الذي شاء فتري السحاب يرش الماء على الأرض و يرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى و لا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه و لا يتقدم المتأخر و لا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون و الآخرون على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن و الانس عنه فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها ، ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض و لكل حيوان فيها من طير و وحش و دود مكتوب على تلك القطرة بحظ إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدود الفلانية الذي هو في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف و في تناثر الثلوج كالقطن المندوف ، و من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر و قهر من الخلاق القاهر ، ما لأحد فيه شركة ولا مدخل بل ليس للمؤمن من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله و عظمته و الالتميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته و رجم الظن بذكر سببه و علته فيقول الجاهل المغرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، و إنما هذا سبب نزوله و يظن أن هذه معرفة انكشفت له و يفرح بها و لو قيل له : ما معنى الطبع ؟ و ما الذي خلقه ؟ و ما الذي خلق الماء الذي طبعه الثقيل ؟ و ما الذي يرقى الماء المصبوب في أسفل الاشجار إلى أعالي الأغصان و هي ثقيلة بطبعها فكيف هوت إلى أسفل ثم ارتفعت إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى و لا يشاهد

حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيغذى كل جزء من كل ورق و يجري إليه في تجاويف عروق شعريّة صغار يروّي منها العرق الذي هو أصل الورق ، ثمّ ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر ينشعب عنه جداول ثمّ ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثمّ ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورق فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويربّيها وتبقى طراوتها و نضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه ، فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك بجذب فما الذي سخر ذلك الجاذب فإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السماوات والأرض و جبار الملك و الملوك فلم لا يحال عليه في أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل .

ومن آياته ملكوت السماوات وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله و من أدرك الكلّ و فاتته عجائب السماوات فقد فاتته الكلّ تحقيقاً ، فالأرض و البحار و الهواء و كل جسم سوى السماوات بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر أو أصغر ، فانظر كيف عظم الله أمر السماوات و النجوم في كتابه فما من سورة إلا و تشتمل على تفخيمها في مواضع و كم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى : « و السما ذات البروج ^(١) » « و السماء و الطارق » و ما أدريك ما الطارق النجم الثاقب ^(٢) « و السماء ذات الحجب ^(٣) » « و السماء و ما بناها ^(٤) » و قوله : « و الشمس و ضحيتها ^(٥) » « فلا أقسم بالخنس » الجوار الكنس ^(٦) « و النجم إذا هوى ^(٧) » « فلا أقسم بمواقع النجوم » و إنه لقسم لو تعملون عظيم ^(٨) « و قد علمت أن عجائب النطقة القذرة عجز عن معرفتها الأولون و الآخرون و ما أقسم الله

(٢) الطارق : ١ و ٢ و ٣ .

(١) البروج : ١ .

(٤) و (٥) الشمس : ١ و ٥ .

(٣) الذاريات : ٧ .

(٧) النجم : ١ .

(٦) التكوير : ١٥ و ١٦ .

(٨) الواقعة : ٧٦ و ٧٧ .

عز وجل بها فكيف ظنك بما أقسم الله عز وجل به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال : « وفي السماء رزقكم وما توعدون ^(١) » وأثنى على المتفكرين فيه فقال : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ^(٢) » وقال النبي ﷺ : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سيلته ^(٣) » أي تجاوزها من غير فكرة . وذم المعرضين عنها فقال : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ^(٤) » فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب والسموات شداد صلاب محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله عز وجل محفوظاً فقال : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ^(٥) » وقال : « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ^(٦) » وقال : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ؟ رفعت سمكها فسويناها ^(٧) » فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفريقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله إبراهيم بقوله : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ^(٨) » لا بل كل ما تدركه بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء . وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول ، فأطل أيها الغافل فكرك في الملكوت فعسى أن يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة من قال : « رأى قلبي ربي » وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى ، وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض

(١) الذاريات : ٢٢ .

(٢) آل عمران : ١٩١ .

(٣) قد تقدم .

(٤) و(٥) الانبياء : ٣٢ .

(٦) النبأ : ١٢ .

(٧) النازعات : ٢٧ و ٢٨ .

(٨) الانعام : ٧٥ .

التي هي مقرّك ، ثمّ الهواء ، المكتنف لك ، ثمّ النبات و الحيوان و ما على وجه الأرض ، ثمّ عجائب الجوّ و هو ما بين السّماء و الأرض ، ثمّ السماوات السبع بكواكبها ثمّ الكرسيّ ثمّ العرش ثمّ الملائكة الذين هم حملة العرش و خزّان السماوات ثمّ منه تجاوز النظر إلى ربّ العرش والكرسيّ و السماوات والأرض و ما بينهما فبينك و بينه هذه المفاوز الفيح^(١) والمسافات الشاسعة و العقبات الشاهقة^(٢) و أنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، و هي معرفة ظاهر نفسك ، ثمّ صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدّعي معرفة ربّك و تقول : قد عرفته و عرفت خلقه ففيما ذا أتفكر وإلى ما ذا أنطلع ؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها و في دورانها و طلوعها و غروبها و شمسها و قمرها و اختلاف مشارقها و مغاربها و دوّوبها في الحركة^(٣) على الدّوام من غير فتور في حرّكتها و من غير تغيير في سيرها بل يجري جميعها في منازل مرتّبة بحساب مقدّر لا يزيد و لا ينقص إلى أن يطويها الله عزّ وجلّ طيّ السّجلّ للكتب ، فتدبّر عدد كواكبها و كثرتها و اختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة ، و بعضها إلى البياض ، و بعضها إلى اللّون الرّصاصي ، ثمّ انظر إلى كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب و بعضها على صورة الحمل و الثور و الاسد و الإنسان ، و ما من صورة في الأرض إلّا ولها تمثال في السماء ، ثمّ انظر إلى مسير الشمس في فلّكها في مدّة سنة ثمّ هي تطلع كلّ يوم و تغرب بسير آخر سخّر لها خالقها و لو لا طلوعها و غروبها لما اختلف اللّيل و النهار و لم تعرف المواقيت و لأطبق الظلام على الدّوام أو الضياء على الدّوام و كان لا يتميّز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل اللّيل لباساً و النوم سباتاً و النهار معاشاً ، و انظر إلى إيلاجه اللّيل في النهار و النهار في اللّيل و إدخاله الزّيادة و النقصان عليهما على ترتيب مخصوص و انظر إلى إمالاته مسير الشمس عن وسط السماء حتّى اختلف بسببه الصّيف و الشتاء و الرّبيع و الخريف

(١) مغازة فيحاء أى واسعة . والجمع فيح .

(٢) الشاسعة البعيدة ، والشاهقة : المرتفعة (المصحح) .

(٣) الدووب الجد و الحركة .

فإذا انخفضت الشمس عن وسط السماء في مسيره برد الهواء فظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإن كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السماوات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق التفكير واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكيم كثيرة في خلقه، ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه، ثم في وضعه في السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي بجانبه وبعده وقس ذلك بما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء، لافي كبر جسمه ولا في كثرة معانيه، وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة معانيه بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدور بجوانبها وقد اتفق المهندسون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيّفاً وستين مرة^(١)، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها والكواكب التي تراها أصغرها هي مثل الأرض ثمان مائة وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها فللبعد صارت ترى صفاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: «رفع سمكها فسويها»^(٢) وفي الأخبار أن «بين كل سماء إلى أخرى مسيرة خمسمائة عام»^(٣) فإذا كان هذا مقدار كوكب واحد من الأرض فانظر إلى كثرة الكواكب ثم

(١) هذا على مذهب بطليموس وأتباعه وأما قبله يعني عصره فيرقلس الفيلسوف اعتقدوا بأن جرم الشمس لا يزيد عما نشاهده بالابصار كما في كتاب مشهد الكائنات ص ٨٣ وأما اليوم فزعموا أن جسامة الشمس بالنسبة إلى الأرض تزيد من ألف ألف مرة إلى ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ مرة والله أعلم.

(٢) النازعات: ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال: غريب. و قال المراقبي: ويروى عن أيوب و يونس بن عبيد و علي بن زيد قالوا: و لم يسمع الحسن من أبي هريرة، و رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية أبي نصر عن أبي ذر و رجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصر سماع من أبي ذر.

انظر إلى السماء التي الكواكب مراكوزة فيها وإلى عظمتها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً من أن تدرك سرعتها لكن لا تشك في أنه في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه ، وانظر كيف عبّر جبرئيل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ : « هل زالت الشمس ؟ فقال : لا ، نعم ، فقال كيف تقول : لا نعم فقال : من حيث قلت « لا » إلى أن قلت « نعم » سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام ^(١) » فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينك نحوها فترى جميعاً فهذه السماء لعظمتها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها تتدلى بها فكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك إنك تدخل بيت غني فترأى مزوقاً ^(٢) بالصبغ مموهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك عنه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ، ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وتزيينه وأنت قد نسيت نفسك وربك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بلسانهم بين يديك

(١) قال العراقي : لم أجاهله أصلاً .

(٢) أي منقشاً .

ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وإن صدّقوك في مودّتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حيوة ولا نشوراً وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذه الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السماوات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والمملك وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثّل النملة تخرج من الحجر الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والثقائس وإفئتها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا من بيتها وغذائها وكيفية إذّ خاها فأما حال القصر والمملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكّانه فأنت غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكّان سماواته فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السماوات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكّان بيتك نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه فأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنها ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنّه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضّل الله عزّ وجلّ علينا بمعرفته وكلّ ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة الأولياء والعلماء ، وما عرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه نبيّنا ﷺ وما عرفه نبيّنا قليل بالاضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كجبرئيل وإسرافيل وغيرهما صلوات الله عليهم ثمّ جميع علوم الملائكة والجنّ والانس إذا اُضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحقّ أن يسمّى علماً ، هو إلى أن يسمّى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ثمّ قال مخاطباً جميعهم : « وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً » (١)

فهذا بيان معاهد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله عز وجل
وليس فيها فكر في ذات الله ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لالحالة معرفة الخالق
وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك
بجلاله وعظمته أتم وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه فلا يزال تطلع
على غريبه من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيراً وتعظيماً
واحتراماً حتى أن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده
محلاً في قلبك ويستدعي التعظيم له من نفسك ، فهكذا تأمل في خلق الله وتصنيفه
وتأليفه . وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه فالنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً
وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ولننصف إلى هذا ما
قصصناه في كتاب الشكر فإننا نظرنا في ذلك الكتاب إلى فعل الله من حيث هو
إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث أنه فعل الله فقط
وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته
والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا
والله تعالى فيه حكم يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ومن نظر في هذه الأمور
من حيث أنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله وعظمته واهتدى به
ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها
بمسبب الأسباب فقد شقي وتردئ فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا منزلة
أقدام الجهال بمنه وفضله إنه على ما يشاء قدير .

ثم كتاب التفكر من ربح المنجيات من المحجبة البيضاء في تهذيب الأحياء
بحمد الله ومنه على يد أحقر العباد وأضعفهم محسن بن مرتضى جعله الله من المتفكرين
في ملكوت السماوات والأرض بمنه وكرمه .
ويتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده إن شاء الله العزيز والحمد لله وحده والصلاة
على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر آخر كتب الأرباع الأربعة من المحججة البيضاء، في تهذيب الأحياء،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة و كسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آجال القياصرة الذين لم تنزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فإذا هم في الحافرة فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالشراب إلى التمرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً أو اتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً ، وأبصر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ، فسبحان من تفرّد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصاً للاتقياء وموعداً في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعيم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السماوات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة وعلى آله وأصحابه وسلم كثيراً .

أمّا بعد فجدير بمن الموت مصرعه ، و التراب مضجعه ، والدود أنيسه ، و منكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، و القيامة موعده ، و الجنة أو النار موردته أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا لأجله ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حوم إلا حوله ، ولا انتظار

ولا تتربّص إلا له ، و حقيقٌ بأن يعدّ نفسه من الموتى ويرأها في أصحاب القبور فإن كل ما هو آت قريب ، و البعيد ما ليس بآت و قد قال عليه السلام : « الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت » و لن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب و لا يتجدّد ذكره ، إلا عند التذكّر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبّهات عليه و نحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته و لواحقه و أحوال الآخرة و القيامة و الجنة و النار ما لا بدّ للعبد من تذكره على التكرار و ملازمته بالافتكار و الاستبصار ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد فقد قرب الرّحيل فما بقي من العمر إلا قليلٌ و الخلق غافلون و اقترّب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . و نحن نذكر ما يتعلّق بالموت في شطرين .

الشرط الأوّل في مقدّماته و توابعه إلى نفخة الصور و فيه ثمانية أبواب :
الباب الأوّل في فصل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في طول الأمل وقصره .
الباب الثالث في سكرات الموت و شدّته و ما يستحبّ من الأحوال عند الموت .
الباب الرابع في وفاء النبي صلى الله عليه وآله . الباب الخامس في كلام المحتضرين من الصالحين .
الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر و حكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت و ما يلقيه الميّت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن في ما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

❖ (الباب الأول) ❖

في فضل ذكر الموت و الترغيب فيه أعلم أن المنهمك في الدّنيا المكبّ على غرورها المحبّ لشهواتها يغفل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره و إذا ذكر به كرهه و نفر منه أولئك هم الذين قال الله تعالى فيهم : « قل إن الموت الذي تفرّون منه فأنّه ملائكتكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ^(١) » و الناس إمّا منهمك أو تائب مبتدئ . أو عارف منته ، أمّا المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره ليتأسّف على دنياه و يشغل بمنمّته و هذا يزيد ذكر الموت من الله بعداً ، و أمّا التائب فإنّه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف و الخشية

فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزَّاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »^(١) فإن هذا ليس يكره الموت و لقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره و تقصيره ، و هو كالذي يتأخَّر عن لقاء الحبيب مشغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه فلا يعدُّ كارهاً للقاءه و علامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء و إلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، و أمَّا العارف فإنَّه يذكر الموت دائماً لأنَّه موعِد للقاءه لحبيبه والمحب لا ينسي قطُّ موعِد لقاء الحبيب ، و هذا في غالب الأمر يستبطنه مجيئ الموت و يحبُّ مجيئه ليتخلَّص من دار العاصين و ينتقل إلى جوار ربِّ العالمين كما روي عن حذيفة - رضي الله عنه - أنَّه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، اللهمَّ إن كنت تعلم أن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة والموت أحبُّ إليَّ من الحياة فسهِّل عليَّ الموت حتَّى ألقاك فإنَّ الثائب معذوري كراهة الموت و هذا معذور في حبِّ الموت و تمنّيه وأعلى رتبة منهما من يفوِّض أمره إلى الله فصار لا يختار لنفسه موتاً و لا حياة بل يكون أحبُّ الأشياء إليه أحبُّها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحبِّ و الولاء إلى درجة التسليم والرِّضا و هو الغاية والمنتهى و على كلِّ حال ففي ذكر الموت ثواب و فضل ، فإنَّ المنهمك في الدنيا أيضاً يستفيد بذكر الموت التَّجافي عن الدنيا إذ يتغنَّص عليه نعيمه و يتكدَّر عليه صفو لذَّته و كلُّ ما يكدر على الانسان اللذَّات والشهوات فهو من أسباب النِّجاة .

❖ بيان فصل ذكر الموت كيف ما كان ❖

قال النبي ﷺ : « أكثر و اذكر هاذم اللذات الموت »^(٢) أي نفِّصوا به اللذات

(١) أخرجه البخاري ٨ ص ١٣٢ من حديث عبادة بن صامت ومسلم ج ٨ ص ٦٥

من حديث عائشة .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٨ . والنسائي والترمذي أيضاً وقال السيوطي

« هاذم » بالذال المعجمة أى قاطعها ، ويحتمل أن يكون بالذال المهملة والمراد على

التقديرين الموت .

حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى .

وقال عليه السلام : « لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمياً ^(١) »
وقالت عائشة : « يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكر
الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة ^(٢) » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر
الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضي الاستعداد للآخرة والغفلة عن ذكر
الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا .

وقال عليه السلام : « تحفة المؤمن الموت ^(٣) » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن
المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ،
فالموت إطلاقه له من هذا العذاب والإطلاق تحفة في حقّه .

وقال عليه السلام : « الموت كفارة لكل مسلم ^(٤) » وأراد بهذا المسلم حقاً المؤمن
صدقاً الذي سلم المسلمون من لسانه ويده وتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس
من المعاصي إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره و يكفره بعد اجتنابه الكبائر
 وإقامته الفرائض .

وقال عطاء الخراساني : « مر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك
فقال : شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ، قالوا : وما مكدر اللذات ؟
قال : الموت ^(٥) » .

وقال النبي ﷺ : « أكثروا ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة .

(٢) قال العراقي : تقدم . وما حضرني الآن متى تقدم .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن عمر ورجاله ثقات كما في

مجمع الزوائد ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند صحيح من حديث أنس

كما في الجامع الصغير .

(٥) قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في الموت مرسل .

الدُّنْيَا ^(١) ، وقال عليه السلام : « كفى بالموت واعظاً ^(٢) » .

و خرج النبي ﷺ إلى المسجد فإذا قومه يتحدثون و يضحكون فقال :
« اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم
كثيراً ^(٣) » و ذكر عند النبي ﷺ رجل فأحسنوا الشاء عليه فقال : « كيف كان
ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ، قال : فإن صاحبكم
ليس هنالك ^(٤) » .

وسئل « من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : أكثرهم ذكراً
للموت وأشدُّهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنْيَا وكرامة
الآخرة ^(٥) » .

أقول ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي عبيدة قال : قلت لأبي -
جعفر عليه السلام : « حدثني ما أنتفع به فقال : يا أبا عبيدة أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر
ذكره إنسان إلا زهد في الدُّنْيَا ^(٦) » .

و عن أبي بصير قال : « شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام الوسواس فقال : « يا
أبا محمد اذكر تقطع أوصالك في قبرك ، ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك ،
وخرج بنات الماء من منخريك ، وأكل الدُّود لحملك فإن ذلك يسلي عنك ما أنت
فيه ، قال أبو بصير : فوالله ما ذكرته إلا سلى عنِّي ما أنا فيه من هم الدُّنْيَا ^(٧) » .

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(١) أخرجه العوث بن أبي اسامة في مسنده بسند ضعيف من حديث أنس (المعنى)

(٢) أخرجه الطبراني من حديث عمار والبيهقي في الشعب بسند ضعيف وهو مشهور

من قول فضيل بن عياض راجع جامع الصغير حرف الكاف .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بسند ضعيف كما في المعنى .

(٤) كالذي قبله .

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا بتمامه باسناد جيد كما في الترغيب والترهيب ج ٤

ص ٢٣٨ .

(٦) و(٧) المصدر ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ١٨ و ٢٠ .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين ، وكان مأجوراً كلماً نظر إليه ^(١) » .

وعنه عليه السلام قال : « ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفّحهم كل يوم خمس مرّات ^(٢) » .

وعنه عليه السلام قال : « إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل فانظر ماذا تستأنف ، قال : ثم قال : عجب لقوم حبس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم الرّحيل وهم يلعبون ^(٣) » .

وعنه عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غداً من أجله ، قال : وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل ، وكان يقول : لورأى العبد أجله وسرّعه إليه لأبغض العمل من طلب الدنيا ^(٤) » .

و عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سئل النبي صلى الله عليه وآله : « أي المؤمنين أكيس قال : أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم له استعداد ^(٥) » وفي مصباح الشريعة ^(٦) عن الصادق عليه السلام قال : « ذكر الموت يميّز الشهوات في النفس ويقطع منابت الغفلة ويقوّي القلب بمواعيد الله ويرقّ الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطفي نار الحرص ويحقّر الدنيا وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : فكر ساعة خير من عبادة سنة ، وذلك عند ما يحلّ أطناب خيام الدنيا ويشدّها في الآخرة ولا يسكن نزول الرّحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة ، ومن لا يعتبر بالموت وقلة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر وتحيرّه في القيامة فلا خير فيه ، قال النبي صلى الله عليه وآله : أكثروا ذكر هاذم اللذات قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الموت فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا

(١) و(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥٦ تحت رقم ٢٣ و ٢٢ .

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٥٨ تحت رقم ٢٩ .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٥٩ تحت رقم ٣٠ .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٥٧ تحت رقم ٢٩ .

(٦) المصدر الباب الثالث والثمانون .

ضاقت عليه الدنيا ولا في شدة إلا اتسعت عليه ، و الموت أول منزل من منازل الآخرة و آخر منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأولها وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها ، و الموت أقرب الأشياء من ابن آدم و هو يعدّه أبعد فما أجراً إلا إنسان على نفسه و ما أضعفه من خلق و في الموت نجاة المخلصين و هلاك المجرمين و لذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت و كره من كره قال النبي ﷺ : من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، و من كره لقاء الله كره لقاء الله .

قال أبو حامد : وكان الربيع بن خثيم حفر قبراً في داره فكان ينام في اللحد كل يوم مرّات ليستديم به ذكر الموت و كان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد ، وقال : ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت .

❖ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت ❖

إعلم أن الموت هائل وخطره عظيم و غفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه و ذكرهم له و من يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء ، إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكّر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه و عند ذلك يقل فرحه و سروره بالدنيا و ينكسر قلبه و أوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله و أقرانه الذين مضوا قبلة فيتذكّر موتهم و مصرعهم تحت التراب و يتذكّر صورهم في مناصبهم و أحوالهم و يتفكّر كيف محا التراب الآن حسن صورتهم و كيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم و كيف أرملوا نساءهم و أيتموا أولادهم و ضيعوا أموالهم و خلت منهم مساجدهم و مجالسهم و انقطعت آثارهم و أوحشت ديارهم فمهما تذكر رجلاً رجلاً و فصل في قلبه حاله و كيفية حياته ، و توهم صورته ، و تذكر نشاطه ، و تردده و أمله في العيش و البقاء ، و نسيانه للموت و انخداعه بمؤااة الأسباب ، و ركونه إلى القوة و الشباب ، و ميله إلى الضحك و اللهو و غفلته عما بين يديه من الموت الذريع و الهلاك السريع ، و أنه كيف كان يتردد و الآن قد تهدمت رجلاه

و مفاصله ، و أنه كيف كان ينطق و قد أكل الدود لسانه ، و كيف يضحك و قد أكل التراب أسنانه ، و كيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشرين في وقت لم يكن بينه و بين الموت إلا شهر و هو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك و قرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم و غفلته كغفلتهم و ستكون عاقبته كعاقبتهم . قال أبو الدرداء : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . و قال ابن مسعود : السعيد من وعظ بغيره . و قال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو راجعاً إلى الله عز وجل تضعونه في صدع الأرض قد توسد التراب و خلف الأحاب و قطع الأسباب . فملازمة هذه الأفكار و أمثالها مع دخول المقابر و مشاهدة المرضى هو الذي يجد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له و يتجافى عن دار الغرور و إلا فالذكر بظاهر القلب و عذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير و التنبيه و مهما طاب قلبه بشيء من الدنيا فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها .

نظر ابن مطيع يوماً إلى داره فأعجبه حسناتها بكى و قال : والله لو لا الموت لكنت بك مسروراً ، و لو لا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته .

❖ (الباب الثاني في طول الأمل) ❖

❖ (و فضيلة قصر الأمل و سبب طوله و كيفية معالجه) ❖

فضيلة قصر الأمل : قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، و إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح و خذ من دنياك ولا آخرة و من حياتك لموتك و من صحبتك لسقمك فإنيك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً ^(١) » و روى علي بن أبي طالب أنه ﷺ قال : « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى

(١) أى حتى أو ميت . و أخرجه ابن حبان و رواه البخاري في آخر حديث « كن في

الدنيا كأنك غريب » من قول ابن عمر (المعنى) .

وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق، وأما طول الأمل فإنه يجب الدنيا، ثم قال: ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان إلا أن للدنيا أبناء و للدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية إلا إن الآخرة قد أتت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل^(١) « وقالت أم المنذر: « اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: أيها الناس أما تستحيون من الله عز وجل؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: تجمعون ما لا تأكلون وتأمّلون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون^(٢) ».

وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت النبي ﷺ يقول: « ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت أنني واضعه حتى أقبض، و لالقمتم لقمة إلا ظننت أنني لا أسيغها حتى أغص بهامن الموت، ثم قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين^(٣) ».

و « روي أنه عليه السلام أخذ ثلاثة أعواد فغرر عوداً بين يديه و آخر إلى جنبه و أمّا الثالث فأبعده فقال: هل تدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: هذا الإنسان و ذلك الأجل و ذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم و يختلجه الأجل دون الأمل^(٤) ».

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنعوه و كلاهما ضعيف كما في المعنى .

(٢) رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر كما في الترغيب و التهيب

ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب وابن أبي الدنيا في قصر الأمل

كما في الترغيب و التهيب ج ٤ ص ٢٣٢ .

(٤) قال العراقي أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له و ←

وقال عليه السلام : « أكلّكم يحبُّ أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : قصر وامن الأمل واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حقّ الحياء ^(١) . »
 وكان عليه السلام يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خيراً الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خيراً المماتة ، وأعوذ بك من أمل يمنع خيراً العمل ^(٢) . »
 وقال سلمان الفارسي : « ثلاث أعجبني حتى أضحككني مؤمل الدنيا و الموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض عنه ، وثلاث أحزننتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي ربي لأدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . »
 وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى في المنام بعد موته فقلت : أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل .

❖ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه ❖

إعلم أن طول الأمل له سببان أحدهما الجهل والآخرة حب الدنيا أمّا حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والإنسان مشغوف بالأمان الباطنة فيمنّي نفسه أبداً بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقرّره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف وعد نفسه وقال : الأيام بين يديك فإلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير

← الرامهرمزي في الامثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري واسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلًا . (٢)
 (١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث الحسن مرسلًا (المغني) .
 (٢) ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب .

شيخاً وإذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار و عمارة هذا الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد و جهازه و تدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك ولا يزال يسوّف و يؤخّر ولا يخوض في شغل إلّا و يتعلّق با تمام ذلك الشغل عدّة أشغال أخر وهكذا على التدرّج يؤخّر يوماً و يفضي به شغل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لا يحسبه فتطول عند ذلك حسرته ، وأكثر أهل النار صياحهم من سوف يقولون و اخرناه من سوف ، و المسوّف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً و إنّما يزداد بطول المدّة قوّة و رسوخاً و يظنّ أنّه يتصوّر أن يكون للخائض في الدنيا و الحافظ لها فراغ قط و هيهات فما يفرغ منها إلّا من أطحها . كما قيل :

فما قضى أحد منها لبانته * و ما انتهى أرب إلّا إلى أرب

و أصل هذه الأما ني كلّها حبّ الدنيا و الأنس بها و الغفلة عن معنى قوله ﷺ «أحبب ما أحببت فأنتك مفارقه» و أمّا الجهل فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب و ليس يتفكّر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقلّ من عشر أهل البلد و إنّما قلّوا لأنّ الموت في الشبان أكثر ، و إلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي و شاب ، وقد يستبعد الموت لصحته و يستبعد الموت فجأة و لا يدري أنّ ذلك غير بعيد و إنّ كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، و كلّ مرض فأنما يقع فجأة و إذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكّر هذا الغافل و علم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب و شيب و كهولة و من صيف و شتاء و خريف و ربيع و من ليل و نهار لعظم اشتغاله بالاستعداد له و استشعاره و لكنّ الجهل بهذه الأمور و حبّ الدنيا دعواه إلى طول الأمل و إلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظنّ أنّ الموت يكون بين يديه و لا يقدّر نزوله و وقوعه فيه ، و يشيّع الجنائز و لا يقدّر أن يشيّع جنازته لأنّ هذا قد تكرر عليه و ألفه و هو شاهد موت غيره فأما موت نفسه فلم يألّفه و لا يتصوّر أن يألّفه فإنّه لم يقع و إذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده فهو الأوّل و هو الآخر و سبيله أن يقيس نفسه بغيره و يعلم أنّه

لا بدّ وأن يحمل جنازته و يدفن في قبره و لعلّ اللّبن الذي يغطّي به لحدّه قد ضرب و فرغ منه و هو لا يدري فتسويفه جهل محض و إذا عرفت أن سببه الجهل و حبّ الدّنيا فعلاجه دفع سببه أمّا الجهل فيدفع بالفكر الصّافي من القلب الحاضر و بسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة و أمّا حبّ الدّنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد و هو الذّاء العضال الذي أعيى الأوّلين و الآخرين علاجه و لاعلاج له إلّا الإيمان باليوم الآخر و ما فيه من عظيم العقاب و جزيل الثواب و مهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حبّ الدّنيا فإنّ حبّ الخطير هو الذي يمحو من القلب حبّ الحقيير فإذا رأى حقارة الدّنيا و نفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدّنيا كلّها و إن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب فكيف و ليس لكلّ عبد من الدّنيا إلّا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها و يترسّخ في القلب حبّها مع الإيمان بالآخرة . فنسأل الله تعالى أن يرينا الدّنيا كما أراها الصّالحين من عباده و لاعلاج في تقرير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران و الأشكال و أنّهم كيف جاء هم الموت في وقت لم يحتسبوا أمّا من كان مستعدّاً له فقد فاز فوزاً عظيماً ، و أمّا من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراً مبيناً ، و لينظر الإنسان كلّ ساعة في أطرافه و أعضائه و ليتدبّر أنّها كيف تأكلها الدّيدان لا محالة و كيف تنفقت عظامها ، و ليتفكّر أن الدّود يبدأ بحدقته اليمنى أو لا أو باليسرى فما على بدنه شيء إلّا و هو طعمة الدّود و ماله من نفسه إلّا العلم والعمل الخالص لوجه الله عزّ وجلّ و كذلك يتفكّر فيما سيورده من عذاب القبر و سؤال منكر و نكير و من الحشر و النّشر و أهوال القيامة و فزع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

❖ (بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره) ❖

إعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال

الله تعالى : « يودُّ أحدُهم لو يعمّر ألف سنة ^(١) » ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحبُّ الدنيا حبّاً شديداً قال النبي ﷺ : « حبُّ الشيخ شابٌّ في طلب الدنيا وإن التفتت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتَّقوا وقليلٌ ما هم ^(٢) » ، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولا يقدّر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف وإذا جمع ما يكفيه لسنة اشتغل بالعبادة ، ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء فلا يدّخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعدّ إلا لنهاره فأما للغد فلا .

قال عيسى عليه السلام : « لا تهتمّوا برزق غد فإن يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتمّوا لأرزاق غيركم » .
ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال النبي ﷺ : « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح ^(٣) » ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنّه واقع وهو ينظره وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودّع . فهذه مراتب الناس ولكلّ درجات عند الله وليس من أمله مقصوراً على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ثمّ يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل وكلّ إنسان يدّعي أنّه قصير الأمل وهو كاذب وإنّما يظهر ذلك بأعماله فإنّه يعتني بأسباب ربّها لا يحتاج إليها في سنة فيدلّ ذلك على طول أمله ، وإنّما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيه لا يغفل عنه ساعة فيستعدّ للموت الذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى

(١) البقرة : ٩٦ .

(٢) أخرجه صدره مسلم والبخارى في الصحيح ج ٨ ص ١١١ ولم أجده بتمامه .

(٣) أخرجه الترمذی ج ٩ ص ٢٠٣ والبيهقي وغيره من حديث ابن عمر قال صلى الله

عليه وآله له .

على طاعته و فرح بأنّه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظّه و ادّخره لنفسه ثمّ يستأنف مثله إلى الصّباح وهكذا إذا أصبح ، ولا يتيسّر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سرّ بحسن الاستعداد ولذّة المناجات فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت علىّ بالك يامسكين فإنّ السير حادّ بك وأنت غافل عن نفسك ولعلّك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكلّ نفس امهلت فيه .

❦ (بيان المبادرة الى العمل حذر آفة التأخير) ❦

إعلم أنّ من له إخوان غائبان و ينتظر قدوم أحدهما في غد و ينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعدّ للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنّما يستعدّ للمنتظر قدومه غداً فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدّة ونسي ما وراء المدّة ، ثمّ يصبح كلّ يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي انقضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنّه أبداً يرى لنفسه متسّعاً في تلك السنّة ويؤخّر العمل كما قال النبي ﷺ : « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماء مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدّجال فالدّجال شرّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر » (١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شباهك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (٢) .

(١) أخرجه الترمذی ج ٩ ص ١٨٥ من رواية معمر بن هارون عن عبدالرحمن الاعرج ، عن أبي هريرة وقال : حديث حسن . وقوله : « هرماء مفنداً » أي مبلغاً إلى اذل العمر . وقوله « موتاً مجهزاً » أي قاضياً على العبد بالفناء ، يقال : أجهزت على فلان ، إذا عجلت قتله وأسرت بذهاب نفسه .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٢٠٦ وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وقال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ^(١) ، أي أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما .
وقال ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ^(٢) » .

وقال النبي ﷺ : « جاءت الرأجفة تتبعها الرأدفة جاء الموت بما فيه ^(٣) »
وكان ﷺ إذا أحس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع « أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة ^(٤) » .

وقال النبي ﷺ : « أنا النذير والموت المغير والساعة الموعود ^(٥) » .
وقال ابن عمر : خرج علينا النبي ﷺ والشمس على أطراف السقف فقال :
« ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ^(٦) » .
وقال ﷺ : « مثل الدنيا مثل ثوب يشق من أوله إلى آخره فبقي معلقاً
بنخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع ^(٧) » وقال جابر : كان النبي ﷺ
إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته وأجرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول : « صبيحتكم
ومسيبتكم بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه - ^(٨) » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تلا النبي ﷺ « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » فقال : « إن النور إذا دخل الصدر انفسح فليل : يا رسول الله هل

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٠ والحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٣٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذی ج ٩ ص ٢٧٧ والحاكم بسند حسن من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه الترمذی وحسنه من حديث أبي بن كعب .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الامل من حديث زيد السلمي مرسل (المغنى) .

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في قصر الامل وأبو القاسم البغوي أيضاً (المغنى) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا أيضاً والترمذی نحوه من حديث أبي سعيد الخدري

باسناد حسنه .

(٧) ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث أنس ولا يصح .

(٨) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٠٩ بنحوه وابن أبي الدنيا في قصر العمل بلفظه كفاي المغنى .

لذلك من علامة تعرف ؟ فقال : نعم التجافي عن دار الغرور ، والاناة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله ^(١) .

❦ (الباب الثالث) ❦

❦ (في سكرات الموت وشدة ما يستحب من الأحوال عند الموت) ❦
إعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتغنص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكرته ويعظم له استعداد لاسيما وهو في كل نفس بصده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك ، وقال لقمان لابنه : يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعداد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

واعلم أن شدة الألم في سكرات النزع لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدرکها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح تألم ، فالمدرک للألم هو الروح فمهما أصاب العضو الذي فيه الروح جرح أو حرق سرى الأثر منه إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم والمؤلم ينقرق على اللحم والدّم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الأثر فإذا كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشرة في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجد إنما يجري في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وابن أبي الدنيا في قصرالأمم وقد تقدم .

جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسّه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي يمسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجدوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من القرن إلى القدم فلا تسأل عن كربيه وألمه حتى قالوا: إن الموت أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما لم يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وإنما يستغيث المضرب ويصيح لبقاء قوته وتساعد في قلبه وشراسيفه ^(١) وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميّت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وغلب على كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغاثة أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزوع الروح وجذبها خوارجاً وغرغرة في حلقة صدره وقد تغير لونه واربداً حتى كأنه قد ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي جفونه ، وتنقلب الشفتان واللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله ، فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجدوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجدوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ؟ ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرّد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة

(١) الشرسوف : طرف الضلع المشرف على البطن ، جمعه شراسيف .

وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله ﷺ : « تقبل توبة العبد ما لم يغرغر ^(١) » .

أقول : ثم ذكر أبو حامد عن السلف أخباراً في شدة الموت وسكراته وخوف الأنبياء والأولياء منه وشدة عليهم حتى ذكر أنه لما مات الخليل ﷺ قال الله تبارك وتعالى : كيف وجدت الموت يا خليلي فقال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب ولما مات الكليم ﷺ سأل فقال : كشاة حية تسلخ بيد القصاب . وإنه ﷺ قال : وجدت نفسي كالصفور حين يقلى على المقلى لا هو يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وبالجمل ما لا يشبه أخبار أهل البيت ﷺ بل يشم منه رائحة الكذب إلا حديثاً واحداً رواه عن أمير المؤمنين ﷺ أنه كان يحرق على القتال ويقول : « إن لم تقتلوا تموتوا فوالذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش » وهذا الحديث مروى عنه من طريق الخاصة أيضاً فلنطو سائر ما ذكره ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصة في هذا الباب وهو ما أورده الشيخ الصدوق رحمه الله في اعتقاداته ^(٢) قال : « قيل لأمر المؤمنين عليّ ﷺ : صف لنا الموت فقال ﷺ : « على الخير سقطتم الموت هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه إما بشارة بنعيم الأبد وإما بشارة بعذاب الأبد وإما بتخويف وتهويل لا يدري من أيّ الفرق هو ، أما ولينا المطيع لأمرنا فهو المبشر بنعيم الأبد ، وأما عدونا المخالف لأمرنا فهو المبشر بعذاب الأبد ، أما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثم لن يسوّه الله بأعدائنا ويخرجه من النار بشفاعتنا ، فاحتملوا وأطيعوا ولا تتكلموا ولا تستصغروا عقوبة الله فإن من المسرفين من لا يلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة » وسئل عن الحسن بن عليّ ﷺ : « ما الموت الذي جهلوه ؟ فقال : أعظم سرور يرد على المؤمنين إذ نقلوا عن دار النكد إلى النعيم الأبد ،

(١) أخرجه الترمذی وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٣ من حديث ابن عمر وقد تقدم .

(٢) ص ١٧٧ الذي طبع مع باب حادي عشر وهكذا رواه في معاني الاخبار ص ٢٨٧ .

و أعظم ثبور يرد على الكافرين إذ نقلوا عن جنّتهم إلى نار لا تبديد و لا تنفد^(١) .
 « ولما اشتدّ الأمر على الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنّهم كانوا إذا اشتدّ بهم الأمر تعيَّرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلّت قلوبهم ووجبت^(٢) جنوبهم وكان الحسين عليه السلام وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدي جوارحهم وتسكن نفوسهم فقال بعضهم لبعض : انظروا إليه لا يبالي بالموت فقال الحسين عليه السلام : صبراً بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضّرّ إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة فأبيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وهو لأعدائكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم ، إنّ أبي حدّثني بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنّاتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت^(٣) .

وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام ما الموت ؟ قال : « للمؤمن كنز ثياب وسخة قملة^(٤) وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب وآنس المنازل ، وللکافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن المنازل الأنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب^(٥) » .

وقيل لمحمد بن عليّ الباقر عليه السلام : « ما الموت ؟ قال : هو النوم الذي يأتيكم في كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه إلى يوم القيامة فمنهم من رأى في منامه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره ومنهم من رأى في منامه من أصناف الاهیال ما لا يقادر قدره فكيف حال فرحه في الموت ووجله فيه هذا هو الموت فاستعدّوا له^(٦) » .

(١) رواء الصدوق أيضاً في معانی الاخبار ص ٢٨٨ تحت رقم ٣ .

(٢) وجب وجباً ووجيباً ووجباناً : رجف وخفق .

(٣) معانی الاخبار ص ٢٨٨ .

(٤) ثوب وسخ : علاه الدرن لقلة تمهده بالماء : و « قمل » ای كثير فيه القمل و

هزدوبية معروفة .

(٥) و (٦) معانی الاخبار ص ٢٨٩ .

وقيل للمصدق عليه السلام : صف لنا الموت فقال : « هو للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس ^(١) لطيبه فيقع التعب والألم كله عنه ، و للكافر كلدغ الأفاعي وكلسع العقارب وأشد ، قيل : فإن قوماً يقولون : إنه هو أشد من نشر بالمنشير ، وقرض بالمقاريض ، ورضخ بالحجارة ، وتدوير قطب الأرحية ^(٢) في الأحداق ؟ فقال كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين ، ألا ترون منهم من يعاين تلك الشدائد فذلكم الذي هو أشد من هذا إلا من عذاب الآخرة ، فهذا أشد من عذاب الدنيا . قيل : فما بالناس كافرأ يسهل عليه النزاع فينطفي وهو يتحدث ويضحك ويتكلم وفي المؤمنين من يكون أيضاً كذلك وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد ؟ فقال : ما كان من راحة هناك للمؤمنين فهو عاجل ثوابه وما كان من شديدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليرد إلى الآخرة نقياً نظيفاً مستحقاً لثواب الله ليس له مانع دونه وما كان من سهولة هناك على الكافرين فليوقى أجر حسناته في الدنيا ليرد إلى الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب وما كان من شدة هناك على الكافرين فهو ابتداء عقاب الله له بعد نفاذ حسناته ذلكم بأن الله عدل لا يجور ^(٣) . »

و دخل موسى بن جعفر عليه السلام على رجل قد عرق في سكرات الموت وهو لا يجيب داعياً فقالوا له : يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف حال صاحبنا وكيف الموت ؟ فقال : إن الموت هو المصفاة يصفى المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم وكفارة آخر وزر عليهم و يصفى الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذة أو نعمة أو رحمة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم ، وأما صاحبكم هذا فقد تخلى من الذنوب و صفى من الآثام تصفية وخلص حتى نقي كما ينقي الثوب من الوسخ و صلح لمعاشرتنا أهل البيت وفي دارنا دار الأبد ^(٤) .

(١) في بعض نسخ المصدر [فيتنفس] .

(٢) الرضخ : الرمي . والأرحية : جمع الرحي وهي الطاحون .

(٣) معاني الاخبار ص ٢٨٧ .

(٤) معاني الاخبار ص ٢٨٩ .

ومرض رجل من أصحاب الرضا عليه السلام فعاده فقال : « كيف تجدك فقال : لقيت الموت بعدك - يريد به ما لقيه من شدة مرضه - فقال : كيف لقيته قال : أليماً شديداً ، فقال : ما لقيته إنما لقيت ما ينذرك به ويعرفك بعض حاله إنما الناس رجالان مستريح بالموت ومستراح به منه فجذب الاليمان بالله والنبوة والولاية لنا تكن مستريحاً ففعل الرجل ذلك - والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة (١) » .

وقيل لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام : « ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت فقال : لأنهم جهلوه وكرهه ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله حقاً لأحبوه ولعلموا أن الآخرة خير لهم من الدنيا ، ثم قال : « يا أبا عبد الله ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدهن والنافي للآل لم عنه؟ فقال لجهلهم بنفع الدواء قال : والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن من قد استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع لهم من هذا الدواء لهذا المعالج ، أما إنهم لو علموا ما يؤدّي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشد مما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامة (٢) » .

ودخل علي بن محمد عليه السلام على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع عن الموت فقال له : « يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه رأيته إذا اتسخت وتقذرت وتأذيت بما عليك من الوسخ والقذر عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أن الغسل في الحمام يزيل عنك ذلك كله أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك؟ أو ماتكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟ قال : بلى يا ابن رسول الله ، قال : فذلك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك عن سيئاتك فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كل غم وهم وأذى ووصلت إلى كل سرور وفرح فسكن الرجل ونشط واستسلم وغمض عين نفسه ومضى لسبيله (٣) » .

« وسئل الحسن بن علي عليه السلام عن الموت ما هو فقال : هو التصديق بما لا يكون ^(١) »
 إن أبي حدثنني بذلك عن أبيه ، عن جدّه عن الصادق عليه السلام أنّه قال : إن المؤمن
 إذا مات لم يكن ميتاً وإن الكافر هو الميت ، إن الله عز وجل يقول : « يخرج الحي من
 الميت ويخرج الميت من الحي » ^(٢) ، يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ^(٣) ،
 وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ما بالي لا أحب الموت ؟ فقال : لك
 مال ؟ قال : نعم ، قال : قد قدمته قال : لا قال : فمن ثمة لا تحب الموت ^(٤) .
 وقال رجل لأبي ذرّ رحمة الله عليه : « ما بالناس نكروا الموت ؟ فقال : لأنفسكم
 عمرتم الدنيا وخرتم الآخرة فتكروها أن تنتقلوا من عمران إلى خراب وقيل له
 كيف ترى قدمنا على الله قال : أمّا المحسن فكأن غائب يقدم على أهله وأمّا المسيء
 فكأنّ بقى يقدم على مولاه ، قيل : فكيف ترى حالنا عند الله قال : عرضوا أعمالكم على
 الكتاب إن الله عز وجل يقول : « إن الأبرار لفي نعيم » وإن الفجار لفي
 جحيم ^(٥) » قال الرجل : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين « إلى هنا
 كلام الصدوق طاب ثراه ^(٦) .

(١) أي هوامر ، التصديق به تصديق بما لا يكون إذا المؤمن لا يموت بالموت والكافر
 أيضاً كذلك لأنه كان ميتاً قبله (قاله العلامة المجلسي - رحمه الله) وله معنى آخر يأتي بعد
 تمام الحديث .

(٢) الروم : ١٩ .

(٣) معاني أخبار ص ٢٩٠ . قوله : « التصديق بما لا يكون » الظاهر أن المعنى أن
 التصديق بما لا يكون أي الأمر المحال هو بمنزلة الموت وهو فعل الاحق الذي لا عقل له
 وقد روى عن الصادق عليه السلام أنه قال : إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد
 فحدثه في خلال حديثك بما لا يكون فإن أنكره فهو عاقل وإن صدقه فهو احمق . وقال
 أمير المؤمنين عليه السلام : « فقد لعقل فقد الحياة ولا يقاس إلا بالاموات » ويؤيد هذا المعنى ذيل
 الخبر أيضاً وعليه لا يناسب ذكر الخبر في هذا المقام .

(٤) رواه الصدوق أيضاً في الخصال ج ١ ص ١٠ .

(٥) الانفطار : ١٣ و ١٤ .

(٦) راجع كل ذلك في كتاب الاعتقادات له - رحمه الله - ص ٧٧ إلى ٨١ .

قال أبو حامد : فهذه سكرات الموت على أوليائه وأحبائهم فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي ويتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاثة الأولى شدة النزاع كما ذكرناه ، الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الرُّوع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته التي عليها يقبض روح العبد المذنب أعظم الرِّجال قوة أم يطق رؤيته فروي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر ؟ قال : فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الرائحة أسود الثياب يخرج من فيه ومنخره لهب النار والدخان فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه ^(١) . وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجلها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم صلوات الله عليه كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ، فقال : أدخلنيها ربها فقال : أنا ربها قال : أدخلنيها من هوأملك لها مني ومنك فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت فقال : فهل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمنين ؟ قال : نعم فأعرض عني فأعرض عنه ، ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال : يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه . ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له الملكان الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالوا له : جزاك الله عني خيراً فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح قد أحضرنا وإن كان فاجراً قالوا : لا جزاك الله عني خيراً فرب مجلس سوء قد أجلسنا وعمل غير صالح قد أحضرنا وكلام قبيح قد أسمعنا فلا جزاك الله عني خيراً ^(٢) . فذلك حين شخوص بصر الميت

(١) جامع الاخبار فصل ١٣٥ .

(٢) راجع جامع الاخبار فصل ١٣٣ في القبر .

إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً . الداهية الثالثة مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فإنهم في حال السكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولم يخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشارتين إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة . وعن هذا الخطر كان خوف أرباب القلوب والألباب وقال عليه السلام : « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ^(١) » .

وقال عليه السلام : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلنا نكره الموت ، قال : ليس ذاك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ^(٢) » .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن الله تعالى إذا رضي عن عبد قال : يا ملك الموت اذهب إلى عبدي فلان فأتني بروحه لا ريحه حسبني من عمله قد بلوته بالسراء فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الریحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشّره ببشارة سوى بشارة صاحبه ويقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الریحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما ترون ما أعطي هذا العبد من الكرامة أين كنتم عن هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به ولكنّه كان معصوماً ^(٣) » .

قال بعض السلف : لراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كان راحته في لقاء الله فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه .

أقول وفي الكافي عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « جعلت »

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي عليه السلام موقوفاً .

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت .

(٣) قال العراقي : أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري

باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع .

فذاك يا ابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت : يا وليّ الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً لا نأبر بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتتح عينك فانظر قال : وتمثّل له رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام فقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك ، قال : فيفتح عينه فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمّد وأهل بيته ارجعي إلى ربك راضية بالولاء مرضية بالشواب ، فادخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته ، وادخلي جنتي فما شيء أحبّ إليه من استئلال روحه واللحوق بالمنادي ^(١) .

وعنه عليه السلام « إن الرّجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى ، قلت : جعلت فذاك وما يرى ؟ قال : يرى رسول الله فيقول له رسول الله : أنا رسول الله أبشر ، قال : ثمّ يرى عليّ بن أبي طالب فيقول : أنا عليّ بن أبي طالب الذي كنت تحبّه أنا أنفعلك اليوم قال : قلت له أيكون أحد من الناس يرى هذا ثمّ يرجع إلى الدنيا قال : قال : لا إذ رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك ، قال : وذلك في القرآن قول الله تعالى : « الذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشري في الحيوة الدّنيا وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله » ^(٢) .

وعن ابن أبي يعفور قال : « كان خطّاب الجهنّي خليطاً لنا وكان شديد المنصب لآل محمّد عليهم السلام وكان يصحب نجدة الحرورية قال : فدخلت عليه أعوده للخلط والتقية فاذا هو مغمى عليه في حدّ الموت فسمعتة يقول : مالي ولك يا عليّ فأخبرت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام : رآه وربّ الكعبة رآه وربّ الكعبة رآه وربّ الكعبة ^(٣) .

(١) الكافي ج ٣ ص ١٢٨ تحت رقم ٢ والاستئلال من السل وهو النزاع .

(٢) المصدر ج ٣ ص ١٣٣ تحت رقم ٨ والآية في سورة يونس : ٦٤ و٦٣ .

(٣) المصدر ج ٣ ص ١٣٣ تحت رقم ٩ .

قال أبو حامد : وخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهي من الدِّهْ واهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدّة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرَّجاء وهو لائق بهذا الموضوع ولكننا لانطول بذكره وإعادته .

❦ (بيان ما يستحب من احوال المحتضر عند الموت) ❦

اعلم أنَّ المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظنَّ بالله تعالى ، أمّا الصّورة فقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « راقبوا الميّت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبدت شفتاه فهي من رحمة الله تعالى قد نزلت به ، وإذا غطَّ غطيّط المخنوق^(١) واجرَّ لونه واربدَّت شفتاه فهو من عذاب الله تعالى قد نزل به^(٢) .
أقول ومن طريق الخاصّة ما رواه في الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : « إذا رأيت المؤمن قد شخص ببصره وسالت عينه اليسرى وشرح جبينه وتقلّصت شفتاه وانتثر منخراه فأبى ذلك رأيت فحسبك به^(٣) .

وعنه عليه السلام في الميّت تدمع عيناه عند الموت وإنَّ ذلك عند معاينة رسول الله ﷺ فيرى ما يسره ، ثمَّ قال : أمّا ترى الرُّجل يرى ما يسره وما يحبُّ فتدمع عيناه ويضحك^(٤) .

وعنه عليه السلام « إنَّ وليَّ عليّ عليه السلام يراه في ثلاثة مواطن حيث يسره عند الموت وعند الصراط وعند الحوض ، وملك الموت يدفع الشيطان عن المحافظ على الصلوات ويلقّنه شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله في تلك الحالة العظيمة^(٥) .
وقال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم » لا إله إلا الله فإنَّ من كان آخر كلامه « لا إله إلا الله » دخل الجنّة^(٦) .

(١) غط الجمل يغط - من باب ضرب - غطيّطاً : صوت في الشقيقة . و غط النائم يغط غطيّطاً أيضاً تردد نفسه صاعداً الى حلقه حتى يسمعه من حوله .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذی فی نوادر الاصول من حديث سلمان .

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) المصدر باب غسل الميت تحت رقم ٢٠ و١٩ و٢٧ و٣٠ .

قال أبو حامد : وأما انطلاق لسانه بكلمتي الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(١) » ، وفي رواية حذيفة « فَأَنْسَاهَا تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْخَطَايَا ^(٢) » .
وقال عثمان قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ ^(٣) » .

وينبغي للملقن أن لا يلح بالتلقين ولكن ينلطف فربما لا ينطلق لسان المريض فيشق عليه ذلك و يؤدي إلى استئقاله التلقين و كراهيته للكلمة و يخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه غير الله تعالى فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشعوباً بالدنيا ملتفتاً إليهما تناسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله بالقبول .

أقول : « وعن الصادق عليه السلام » ما من أحد يحضره الموت إلا وكل به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حتى يموتوا . وفي رواية أخرى قال : « فلقنهم كلمات الفرج والشهادتين وتسمى له الاقرار بالائمة عليهم السلام واحداً بعد واحد حتى ينقطع عنه الكلام ^(٤) » .
وعن أبي بكر الحضرمي قال : « مرض رجل من أهل بيتي فأتيته عائداً له فقلت له : يا ابن أخ إن لك عندي نصيحة أتقبلها ؟ فقال : نعم ، قلت : قل : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » فشهد بذلك فقلت : قل « وأن محمداً رسول الله »

(١) أخرجه أحمد ومسلم وقد تقدم .

(٢) تقدم أيضاً . (٣) تقدم أيضاً .

(٤) الوافي ج ٣ باب تلقين المحتضر .

فشهد بذلك ، فقلت : إن هذا لا ينتفع به إلا أن يكون منك على يقين فذكر أنه منه على يقين ، فقلت : أشهد أن علياً ولي الله ووصيه وهو الخليفة من بعده والامام المفترض الطاعة من بعده . فشهد بذلك ، فقلت له : إنك لا تنتفع بذلك حتى يكون منك على يقين ، فذكر أنه منه على يقين ، ثم سميت له الأئمة عليهم السلام رجلاً رجلاً فأقر بذلك وذكر أنه على يقين ، فلم يلبث الرجل أن توفي فجزع أهله عليه جزعاً شديداً قال : فغبت عنهم ، ثم أتيتهم بعد ذلك فرأيت عزاء حسناً فقلت : كيف تجدونكم كيف عزاؤك أيتها المرأة ؟ قالت : والله لقد أصبنا بمصيبة عظيمة بوفاة فلان - رحمه الله - وكان مماسخاً بنفسي لرؤيا رأيته الليلة ، فقلت : وما تلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت فلاناً يعني الميت - حياً سليماً ، فقلت : فلان ؟ فقال : نعم ، فقلت له : أما كنت ميتاً ؟ فقال : بلي ولكن نجوت بكلمات لقننيهن أبو بكر ولولا ذلك لكنت أهلك ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام « لو أدركت عكرمة عند الموت لنفعتها ، فقليل للصادق عليه السلام بماذا كان ينفعه ؟ قال : يلتقنه ما أنتم عليه ^(٢) » .

وعن الصادق عليه السلام « والله لو أن عابد وثن وصف ما تصفون ^(٣) عند خروج نفسه ما طعمت النار من جسده شيئاً أبداً ^(٤) » .

وعنه عليه السلام « أعقل ما يكون الرجل المؤمن عند موته ^(٥) » .

وقال عليه السلام : « اعتقل لسان رجل من أهل المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه الذي مات فيه فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له قل : « لا إله إلا الله » فلم يقدر عليه فأعاد عليه فلم يقدر عليه ، وعند رأس الرجل امرأة فقال لها : هل لهذا الرجل

(١) هكذا في الوافي وفي الكافي ج ٣ ص ٢٢ باختلاف في اللفظ .

(٢) الكافي ج ٣ ص ١٢٢ تحت رقم ٣ .

(٣) أي اقر بما تقرون به من أمر الإمامة .

(٤) حمل على عدم معاينة الآخرة . والخبر في الكافي ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ٨ .

(٥) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٤ .

أم؟ فقالت : نعم يا رسول الله أنا أمه فقال لها : أفرضيت أنت عنه أم لا ؟ فقالت : لا بل ساخطة ، فقال لها رسول الله : فإنني أحب أن ترضين عنه فقالت : قد رضيت عنه لرضاك يا رسول الله فقال : له قل : « لا إله إلا الله » فقال : « لا إله إلا الله » فقال : له قل : « يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل مني اليسير واعف عني الكثير إنك أنت العفو الغفور » فقال لها ، فقال له : ماذا ترى ؟ قال : أرى أسودين قد دخلا عليّ قال : أعدهما فأعادهما فقال : ماذا ترى ؟ قال : قد تباعدا عني ودخل أبيضان وخرج الأسودان فما أراهما ودنا الأبيضان مني الآن يأخذان بنفسي . فمات من ساعته (١) . قال الصادق عليه السلام : « إذا حضرتم ميتاً فقولوا له هذا الكلام ليقوله (٢) » .

قال أبو حامد : وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرّجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن « دخل وائلة بن أسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله فقال : أغرقتني ذنوب أشرفت على الهلكة ولكنني أرجو رحمة الله فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره ، وقال : الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » (٣) .

ودخل ﷺ على شاب وهو يموت فقال : « كيف تجدك قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوقت إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف » (٤) .

ومرض أعرابي فقيل له : إنك تموت قال : أين يذهب بي ؟ قالوا : إلى الله قال : فما كراحتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه .

❦ (بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها) ❦

أقول : قد ذكر أبو حامد أولاً كيفية قبض الأرواح ثم أورد الحكايات

(١) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٥ ، وفي الكافي نحوه .

(٢) هذه الزيادة في الكافي ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ١٠ .

(٣) أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم ، واحمد والبيهقي في الشعب به جميعاً .

(٤) تقدم .

ونحن نذكر الأول من طريق الخاصة ثم نكتفي ببعض ما أورده فعن الصادق عليه السلام
 « قيل لملك الموت : كيف تقبض الأرواح وبعضها في المشرق في ساعة واحدة ؟ فقال :
 أدعوها فتجيئني قال : وقال ملك الموت : إن الدنيا بين يدي كالقصة بين يدي
 أحدكم يتناول منها ما شاء ، والدنيا عندي كالدّرهم في كفّ أحدكم يقلّب كيف
 يشاء » (١) وقيل للصادق عليه السلام : « يعلم ملك الموت نفس من يقبض ؟ قال : لا إنما هي صكاك
 تنزل من السماء أقبض نفس فلان بن فلان » (٢) .

قال أبو حامد : قال وهب بن منبه : كان ملك من ملوك الأرض أراد أن يركب
 إلى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتّى لبس ما أعجبه بعد
 مرّات وكذلك طلب دابة فلم يعجبه حتّى أتى بدوابّ فركب أحسنها فجاء إبليس
 فنقخ في منخرية نفخة فملاه كبراً ثم سار وسارت معه الجنود ، وهو لا ينظر إلى
 الناس كبراً فجاءه رجل رث الهيئة فسلم عليه فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابّته
 فقال : أرسل اللّجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً ، وقال : إن لي إليك حاجة قال : اصبر
 حتّى أنزل قال : لا الآن فقهره على لجام دابّته فقال : اذكرها ، قال : هي سرّ
 فأدنا إليه رأسه فسارّه فقال : أنا ملك الموت فتغيّر لون الملك واضطرب لسانه ،
 ثم قال : دعني حتّى أرجع إلى أهلي فأقضي حاجتي وأودّعهم قال : لا والله لا ترى
 أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخر كأنه خشبة ، ثم لقي عبداً مؤمناً في تلك
 الحال فسلم عليه فردّ السلام فقال : إن لي إليك حاجة اذكرها في اذنك فقال :
 هات فسارّه فقال : أنا ملك الموت فقال : مرحباً وأهلاً بمن طالت غيبته عليّ فوالله
 ما كان في الأرض غائب أحبّ إليّ أن ألقاه منك فقال : ملك الموت اقض حاجتك
 التي خرجت لها ، فقال : مالي حاجة كبر عندي ولا أحبّ إليّ من لقاء الله ، قال :
 فاختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك فقال : تقدر على ذلك ؟ قال : نعم إنّي
 أمرت بذلك ، قال : فدعني حتّى أتوضأ وأصلي ركعتين فأقبض روحي وأنا ساجد

(١) الفقيه ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ٢١ .

فقبض روحه وهو ساجد .

وقال بكر بن عبد الله المزني : جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلماً أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأثني بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلماً نظر إليه بكى تحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال : ما يبكيك فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك ، قال : فالمهلة حتى أفرقه قال : هيهات انقطعت عنك المهلة فهلاً كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه . وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة : لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال : أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتهما وقد ولدت مولوداً فرحمتهما لغربتهما ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متمدن له بها فقالت له الملائكة : الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لما يشاء .

وقال يزيد الرقاشي : بينا جبار من الجبابرة من بني إسرائيل كان جالساً في منزله فدخل ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل إلى باب بيته فنار إليه فزعاً مغضباً فقال : من أنت ومن أدخلك داري ؟ قال : أمّا الذي أدخلني الدار فربها أمّا أنا فالذي لا يمنعني الحجاب ولا أستاذن على الملوك ولا أخاف سطوة السلاطين ولا يمتنع عني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد ، قال : فسقط في يدي الجبار وأرعد حتى سقط منكباً لوجهه ، ثم رفع إليه رأسه مستعظماً متذلاً فقال له : أنت إذا ملك الموت ، قال : أنا هو ، قال : فهل أنت مهملي حتى أحدث عهداً ، قال : هيهات انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال : فإلى أين تذهب بي ؟ قال : إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهّدته ، قال : فإني لم أقدم عملاً صالحاً ولم أ مهّد بيتاً حسناً ، قال : فإلى لظى ، نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط بين أهله فمن صارخ وباك .

وقال يزيد الرقاشي : لو تعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر .

وعن الأعمش عن خيثة قال : « دخل ملك الموت على سليمان بن داود صلوات الله عليهما فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلمّا خرج قال الرجل لسليمان عليه السلام : من هذا قال : هذا ملك الموت قال : لقد رأيته ينظر إليّ كأنّه يريدني ، قال ، فماذا تريد ؟ قال : أريد أن تخلّصني عنه فتأمر الرّيح حتّى يحملني إلى أقصى الهند ، فأمر سليمان عليه السلام الرّيح ففعل الرّيح ذلك ، ثمّ قال سليمان عليه السلام ملك الموت بعد أن أتاها ثانية : رأيته تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال : نعم كنت أتعجب منه لأنّي كنت أشرت أن أقبض روحه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجّبت من ذلك .

❦ (الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله) ❦

أقول : ولنعرض الآن عمّا ذكره أبو حامد من طريق العامة في هذا الباب فإنّ أكثره من مفتريات سلفهم لترويج أغراضهم الفاسدة . ولنذكر ما روتّه أصحابنا من مآخذهم الصحيحة قال : بعض علمائنا في كتاب له صنفه (١) في ذكر وفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسبب اختلاف الصحابة بعده بعدما ذكر حديث حجة الوداع ووصية يوم الغدير وما يتعلّق بذلك ما هذا لفظه « ثمّ إنّ عليه السلام تحقّق من دنوّ أجله فخاف توثّب المنافقين ومن والاهم على هذا الأمر وكانوا ألف رجل فعقد لأسامة بن زيد فولاء الرّاية وأمره على أكثر المهاجرين والأنصار وندبه إلى الخروج بهم إلى الوجه الذي قتل أبوه فيه من بلاد الرّوم لكيلا يبقى بالمدينة بعد وفاته من يطمع في الإمارة فيستتمّ الأمر لأمر المؤمنين عليهم السلام فلا ينازعه هناك منازع ، فأمر أسامة فعسكر على أميال من المدينة ورسول الله صلّى الله عليه وآله يحثّ الناس على الخروج إلى أسامة والمسير معه ، فبينما هو كذلك إذ عرض له المرض الذي توفيّ فيه فلمّا أحسّ بالمرض أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وتبعه جماعة من

(١) الظاهر أن هذا الكتاب تأليف أحد علماء البحرين ويسمى «التهاب نيران الاحزان»

و على ما سمعت في مكتبة الامام امير المؤمنين عليه السلام العامة في النجف الاشرف نسخة مخطوطة منه .

المهاجرين والأنصار ، فقال ﷺ : إنني أمرت بالاستغفار لأهل البقيع فلمّا جاءهم قال : السلام عليكم يا أهل القبور ليهنّئكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه الناس ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها ، فاستغفر لهم كثيراً ، ثمّ أقبل على أمير المؤمنين ﷺ فقال له : يا أخي إن جبرئيل ﷺ كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة وقد عرضه عليّ في هذا العام مرّتين ولا أراه إلّا لحضور أجلي ، ثمّ قال : يا عليّ إنني خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها وبين لقاء ربّي والجنة فاخترت لقاء ربّي والجنة خالداً فيها ، فإذا أنا مت فغسلني وستر عورتني فإنّه لا يراها أحد إلّا أكرمّه الله تعالى ، ثمّ عاد إلى منزله فمكث ثلاثة أيّام موعوكاً ، ثمّ إنّه خرج إلى المسجد معتمداً على أمير المؤمنين ﷺ حتّى صعد المنبر وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : معاشر الناس قد حان منّي خفوق ما بين أظهركم ، فمن كان له عندي عدة فليأتني أعطه إياها ومن كان له عندي دين فليخبرني به ، فقام رجل وقال ؟ يارسول الله إن لي عندك عدة إنني تزوّجت فوعدتني أن تنحلني ثلاث أواق ، فقال له : أنحلّتها وأفضل ، ثمّ قال : معاشر الناس إنّه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه شراً إلّا العمل ، والذي بعثني بالحق لا ينجي إلّا العمل مع رحمة الله ولو عصيت لهويت ، ثمّ نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة ، ودخل بيته وكان في بيت أمّ سلمة فجاءت عائشة فسألته أن ينتقل إلى البيت الذي هي فيه فانتقل إليها وجاءت الأنصار من غد فأحدقوا بالباب وقالوا للغلام : استأذن لنا على رسول الله ، فقال الغلام : إنّه مغشيّ عليه فجعلوا يبهكون ، ثمّ إنّه ﷺ أفاق فسمع البكاء فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : الأنصار فقال : من ههنا من أهل بيتي ؟ فقالوا : عليّ والعباس فدعا بهما وخرج متوكّئاً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده واجتمع الناس حوله ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : معاشر الناس إنّه لم يمّت نبي قط إلّا خلف تركة وقد خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسّكوا بهما فمن ضيّعهما ضيّعه الله ، ألا وإنّ الأنصار كرشي وعيبتني التي أوى إليها أوّصيكم بتقوى الله والإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم ، وجعل الناس ممّن لم يكن

في جيش أسامة يعودون رسول الله ﷺ ، ثم ينصرفون إلى سعد بن عباد و يعودونه
ثم إن رسول الله ﷺ دعا أسامة بن زيد وقال له : سر على بركة الله حيث أمرتك
بمن أمرتك عليه وكان قد أمره على جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر
وعمر وأبو عبيدة وغيرهم وأمره أن يعبر على قرية وادي فلسطين وهو الموضع الذي
قتل فيه أبوه زيد ، فقال أسامة : بأبي أنت وأمي يا رسول الله تأذن لي بالمقام حتى
يشفيك الله فإني متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي قرحة ،
فقال : أنفذ يا أسامة لما أمرتك فإن القعود عن الجهاد لا يحب فخرج أسامة من
يومه ذلك فعمسك على رأس فرسخ من المدينة فنأدى منادي رسول الله : ألا لا يتخلف
عن أسامة أحد ممن أمرته عليه ، قال : فلما رأى رسول الله ﷺ تتأقل الناس
عن الخروج أمر قيس بن سعد بن عباد وكان سياف رسول الله ﷺ والخباب بن
المنذر أن يخرجوا في جماعة من الأنصار وأن يرحلوا القوم إلى عسكرهم فأخرجهم
قيس وأصحابه حتى لحقوا بالعسكر وقالوا لأسامة : إن رسول الله ﷺ لم يرخص
لك في التأخير فسر من قبل أن يعلم بتأخرك فارتحل بهم أسامة وانصرف قيس ومن
معه إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بمسير القوم فقال رسول الله ﷺ : إن القوم غير سائرين ،
فلما نزلوا أتى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة نحو أسامة وقالوا له : أين تذهب وتخلّي
المدينة ونحن أحوج من كل أحد إلى المقام بها ، فقال أسامة : وما ذاك ؟ قالوا :
إن رسول الله ﷺ قد نزل به الموت والله لئن خلى المدينة ليلين الأمر علي بن
أبي طالب وما وجهنا محمد إلى هذا الوجه البعيد إلا لنخلّي المدينة لعلي بن أبي
طالب فيبايع له الناس ويستتم الأمر له ويفسد علينا جميع ما أبرمناه ، قال : فرجع
القوم إلى المنزل الأول فأقاموا به وبعثوا رسولا يتعرف لهم الخبر وعلة رسول الله
فأتى الرسول إلى عائشة وسألها عن ذلك سرّا فقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر
وقل له : إن رسول الله قد ثقل حاله وازداد مرضه فلا يبرح أحد منكم وأنا أعرفكم
الخبر وقتاً بعد وقت ، فلما اشتدت علة رسول الله ﷺ دعت عائشة صهيب الرومي
وقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر وأعلمهما أن رسول الله ﷺ في حال الإياس وقيل له :

يدخل هو وعمر وأبو عبيدة بالليل ، فأتاهم صهيب وأخبرهم برسالة عائشة فأخذوا بيده وادخلوه على أسامة وأخبروه بما أرسلت عائشة واستأذنوه في الدخول فأمرهم وقال : لا يملنَّ بكم أحدٌ فإن عوفي رسول الله رجعتكم إلى معسكركم وإن قبض رسول الله عرفت فوني ذلك فأدخل فيما دخل فيه الناس ، فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً إلى المدينة ورسول الله ﷺ مغشي عليه فلما أفاق قال : والله لقد طرق المدينة هذه الليلة شرٌ عظيم ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الذين أمرتهم بالخروج في جيش أسامة رجع منهم قوم إلى المدينة مخالفين لأمري ألا وإني إلى الله منهم بريء ، ويحكم نفذوا جيش أسامة - ثلاثاً - لعن الله من تخلف عنه ، حتى قالها - ثلاثاً - . قال : وكان علي بن أبي طالب والفضل بن عباس لا يفارقانه في مرضه .

وكان بلال المؤذن يأتي في وقت كل فريضة إلى النبي ﷺ فيقول : الصلاة يا رسول الله ، فإن قدر على الخروج صلى بالناس وإن لم يقدر أمر علي ابن أبي طالب أن يصلي بهم فلما أصبح رسول الله من ليلته التي قدم فيها القوم إلى المدينة أثناء بلال يؤذن بالصلاة فوجده قد ثقل عن الخروج فنادى الصلاة برحمتكم الله فأومى رسول الله ﷺ بيده - وكان رأسه في حجر علي - أن يصلي بالناس بعضهم فأنني مشغول بنفسي ، فقالت عائشة : مروا بأبا بكر يصلي بهم ، وقالت حفصة : مروا عمر ، فلما سمع رسول الله ﷺ كلامهما ورأى حرص كل واحدة على تقديم أبيها قال لهن : اغفني ، ثم أغمني عليه فقالت عائشة لبلال : إن رسول الله قد أغمني عليه ورأسه في حجر علي فلا يقدر على مفارقتهم فمر أبا بكر فليصل بالناس فظن بلال أن ذلك عن رسول الله فقال للناس : قدّموا أبا بكر وكان أبو بكر وعمر ومن معهم قد دخلا المسجد فارسلت عائشة صهيب الرومي إلى أبي بكر قد أمرت بلال يقول للناس صلّوا بصلوة أبي بكر فتقدّم حتى يأتيك بلال بالأمر فتقدّم أبو بكر إلى المحراب فلما كبر أفاق رسول الله من غشوته فسمع التكبيرة فقال لعلي من يصلي بالناس قال : يا رسول الله إن عائشة وحفصة أمرتا بلالاً أن يأمر أبا بكر أن يصلي بالناس فقال : سنّوني وأخرجوني إلى المسجد فقد نزلت والله بالإسلام فتنة

ليست بهيئة ، ثم نظر إلى عائشة وحفصة نظر المغضب ، وقال : أما إنكن كصويحبات يوسف ، يريد بذلك أن صويحبات يوسف قد كذبن عليه وأردن مراد الشيطان الغوي من يوسف فشبه رسول الله ﷺ عائشة وحفصة بهن حيث كذبن عليه لقولهن لبلال : إن رسول الله ﷺ مشغول بنفسه وعلي لا يقدر على مفارقتي فأمر أبا بكر أن يصلي بالناس ، ثم خرج علياً معصب الرأس يتهدى بين علي وبين الفضل بن العباس ورجلاه يخطآن إلى الأرض من الضعف فلمّا رأى المسلمون رسول الله قد دخل المسجد على تلك الحالة عظم ذلك عليهم ، فتقدّم علياً ونحى أبا بكر عن المحراب وصلى بالناس جالساً وبلال يسمع التكبير حتى أكمل رسول الله صلاته ثم التفت فلم ير أبا بكر فقال : أيها الناس ألا تمجبوا من ابن أبي قحافة وأصحابه أنفذتهم تحت راية أسامة إلى الوجه الذي وجهتهم له فرجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة ألا وإن الله أركسهم فيها عرجوا بي إلى المنبر فقام منهو كاً حتى أجلسوه على أدنى مرقاة منه فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس إنني مخلف فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنيهما لن يفترقا حتى يردها علي الحوض فتمسكوا بهما ولا تتفرقوا ولا تنفدوا أهل بيتي فتمرقوا ولا تتأخروا عنهم فترهقوا وأوفوا بعدي ولا تنكثوا بيعتي التي بايعتموني عليها اللهم إنني قد بلغت ما أمرتني به ونصحت لهم ما استطعت وما توفيتني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ثم قام فدخل حجرته ، ثم أمر من استدعى له أبا بكر وعمر ومن كان بالمسجد فقال لهم : ألم أمركم أن تنفذوا مع جيش أسامة فقال أبو بكر : إنني كنت قد خرجت ثم عدت لأجد بك عهداً وقال عمر : إنني لم أخرج لأنني لم أحب أن أسأل عنك الركب ، فقال رسول الله ﷺ نقذوا جيش أسامة - يكررها ثلاثاً - لعن الله على من تأخر عن أمره ، ثم أغمى عنه لعظم مالحقه من التعب والأسف على من تأخر عن أمره فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده .

ثم أفاق فنظر إليهم وقال : ائذوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لن تضلوا

بعدي ، ثم انغمي عليه فقام بعض من حضريأتي بالدّواة والكنف فقال له عمر : ارجع فانّ النبيّ يهجر ، ثم تلاوموا بينهم فقال بعضهم : أطيعوا رسول الله وأتوه بالدّواة والكنف ، وقال آخرون : أطيعوا عمر ، وقال آخرون : إنّنا لله وإنّا إليه راجعون ، لقد أشفقنا من مخالفتنا لرسول الله . فلمّا أفاق قال بعض : ألانأتيك بالدّواة والكنف يا رسول الله ؟ فقال : أمّا بعدالذي قلتم لا ، ولكنني اوصيكم بأهل بيتي خيراً ، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا ، وقال بعض العارفين في هذا المعنى :

أوصي النبيّ فقال قائلهم ☆ قد ضلّ يهجر سيّد البشر

ورأي أبا بكر أصاب ولم ☆ يهجر وقد أوصى إلى عمر

قال الرّاوي : و بقي عند الرّسول ﷺ عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وأهل بيته ، فقال العبّاس : يا رسول الله إن يكن هذا الأمر فينامستقرّاً فبشّرنا وإن كنت تعلم أنّنا نغلب عليه فأوص بنا ، فقال : أنتم المستضعفون من بعدي وصمت ، فنهضوا وهم يبكون وقد آيسوا من النبيّ ﷺ فلمّا خرجوا من عنده قال لهم : ردّوا عليّ بن أبي طالب وعمّي العبّاس فلمّا حضروا قال للعبّاس : يا عمّ تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ؟ قال العبّاس : يا ابن أخي عمّك شيخ كبير ذو عيال كثيرة وأنت تباري الرّيح سخاء وكرماً وعليك وغد لا ينهض به عمّك ، فأقبل بوجهه على أمير المؤمنين ع قال : يا أخي تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ، وتقوم بأمر أهلي من بعدي ؟ قال : نعم يا رسول الله فذاك أبي وأمي فقال له رسول الله ﷺ : أدن منّي ، فدنا منه فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وتعانقا وبكى كلّ منهما ثمّ نزع خاتمه من أصبعه ، وقال له : خذ هذا فضعه في يدك ودعا بسيفه ودرعه ولأمة حربته وفرسه وناقته وبغلته والتمس عصابته الّتي كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج إلى الحرب ، فدفع ذلك كلّهُ إليه ، وقال : امض به على بركة الله إلى منزلك .

قال الرّاوي : واستأذن ابن عبّاس على رسول الله ﷺ فأذن له فلمّا دخل عليه قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد دنا أجلك ؟ قال : نعم ، قال : يا رسول الله فما

تأمرني به ؟ قال : يا ابن عباس خالف من خالف علياً ولا تكن لهم ظهيراً ولا ولياً ، فقال ابن عباس : يا رسول الله فلم لا تأمر الناس بترك مخالفته فبكى عليه السلام حتى انغمي عليه فلما أفاق قال : يا ابن عباس سبق الكتاب فيهم وعلم ربّي والذي بعثني بالحق نبياً لا يخرج أحدٌ ممن خالفه من الدنيا وأنكر حقه حتى يغيّر الله ما به من نعمة ، يا ابن عباس إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راض فاسلك طريق علي بن أبي طالب ومل معه حيث ما مال وارض به إماماً وعاد من عادته ووال من والاه ، يا ابن عباس احذر أن يدخلك شكٌ فيه فإنّ الشك في علي كفر بالله .

ثم دخل عليه أصحابه يعودونه فلما اجتمعوا قام أبو بكر وقال : يا رسول الله متى الأجل ؟ قال : قد حضر ، قال أبو بكر : فإلى أين المنقلب ؟ قال : إلى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والرقيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والعيش المهنئ ، قال أبو بكر : فمن يلي غسلك منّا ؟ قال : رجلٌ من أهل بيتي الأدنى فالأدنى قال أبو بكر : ففيمّا نكفّك ؟ قال : في ثيابي هذه أو في حلّة يمانية أو في بياض مصر ، قال أبو بكر : فكيف الصلاة عليك ؟ قال : فارتجّت الأرض بالبكاء فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله : مهلاً عفا الله عنكم فإذا غُسلت وكفّنت فضعوني على سريرتي في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإنّ الله تعالى أوّل من يصلي عليّ ، ثمّ الملائكة ، ثمّ ادخلوا عليّ زمرة زمرة وليبدأ بالصلاة عليّ الأدنى من أهل بيتي ، ثمّ النساء ، ثمّ الصبيان زمراً زمراً ، قال : فمن يدخلك في قبرك ؟ قال : الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع الملائكة لا ترونهم ، فقوموا عني فأذنوا علي من ورائكم ، فقاموا .

ثم استأذن عليه جماعة أخرى فسلموا عليه فردّ عليهم السلام ورحّب بهم فقام من بينهم عمّار بن ياسر - رضي الله عنه - وقال : فداك أبي وأُمّي يا رسول الله من يغسلك منّا إذا فارقت الدنيا ؟ فقال صلى الله عليه وآله : أخي وابن عمّي علي بن أبي طالب ألا إنّهم لا يهيم بعضهم منّي إلا أعانته الملائكة عليه فقال له : فداك أبي وأُمّي يا رسول الله فمن يصلي عليك منّا ؟ فقال : يا عمّار - يرحمك الله - ثمّ قال : أين أخي وابن عمّي علي بن أبي طالب فأجابه بالتلبية لبّيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا ابن عمّي

أجلسني وسند ظهري فأجلسه وسند صدره ، ثم قال : يا ابن العم إذ انزل بي الموت فضع رأسي في حجرِكَ فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ، ثم وجهني إلى القبلة ، ثم غسّلني وكفّني في طبري هاتين أو في بياض مصر أو حبرة ، ولا تغال في كفني ، ثم صلّ عليّ أول الناس ، واعلم أنّ أول من يصلّي عليّ الجبار جلّ جلاله ثم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ، ثم الحاقون بالعرش لا يحصي عددهم إلا الله ثم سكّان أهل كلّ سماء فسماء ، ثم أهل بيتي يؤمون إيماء ما ويسلموا تسليماً ، لا تؤذوني بصوت ناد ولا مرزبة (١) ، ثم قال : يا بلال عليّ بالعبّاس فلمّا اجتمعوا قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب : اقعدني على مرتفع وسندني فأقامه وهو معصب الرأس حتّى أجلسه على كرسيّ وعليّ بن أبي طالب لازم بمنكبيه فحمد الله وأثنى عليه وذكر نفسه المقدّسة ونعاه.

ثم قال : معاشر الناس أيّ نبيّ كنت لكم ؟ قالوا بأجمعهم : خير نبيّ ، قال : ألم أجاهد بين أظهركم ؟ ألم تكسر رباعيتي ؟ ألم يغفر جبنيني ؟ ألم تسلّ الدماء على وجهي حتّى وقعت لجنبي ؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي ؟ ألم أربط حجر المراجعة على بطني ؟ قالوا بأجمعهم : بلي يا رسول الله لقد كنت على اليلاء صابراً ، ولنعمائ شاكراً ، وعن المنكر ناهياً ، وبالمعروف آمراً ، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء ، قال : وأنتم جزاكم الله خيراً ، ثم قال : أيّها الناس لانبيّ بعدي ولا سنّه بعد سنّتي فمن ادّعى ذلك فهو في النار ، أيّها الناس أحيوا القصاص ، أحيوا الحقّ لصاحب الحقّ ولا تفرّقوا وسلموا تسليماً « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز » أيّها الناس إنّ ربّي حكم وأقسم أن لا يجاوز ظلم ظالم إلا بعفو أو قصاص فأنشدكم بالله أيّ رجل كانت له من قبل عُدّ مظلمة أو قصاص إلا قام فيقتصّ منّي فإنّ القصاص في الدنيا أحبّ إليّ من القصاص في الآخرة على رؤوس الأشهاد ، قال : فقام إليه رجل يقال له : سودة بن قيس فقال : فذاك أبي وأمي يا رسول الله

(١) المرزبة بالباء الموحدة وهي عصية من حديد وفي بعض النسخ [مرزنه]

أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق
فرفعت القضيب وأنت تريد الناقة فأصاب بطني فلا أدري عمداً أو خطأ فقال : معاذ الله
ياسودة أن أكون تعمّدت ، ثم قال : يا بلال قم إلى ابنتي فاطمة وأتني بالقضيب
الممشوق فخرج بلال ينادي في شوارع المدينة من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه
قبل يوم القيامة ، ثم أتى فاطمة عليها السلام فقال : يا فاطمة قومي فناوليني القضيب
الممشوق فإن رسول الله ﷺ يريد فاطمة ما يصنع رسول الله بالقضيب
الممشوق وليس هذا يوم القضيب ؟ فقال بلال : يا فاطمة أما علمت أن أباك خطب
الناس ونعى نفسه فقد ودّع أهل الدّين والدنيا ، فصاحت فاطمة وقالت : واحزنه
عليك يا أبتاه من للفقر والمسكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب ، ثم
إنّها ناولت بلال القضيب فخرج به حتّى ناوله رسول الله فقال ﷺ : أين الشيخ
فقال الشيخ : ها أنا ذا يا رسول الله ، فقال له : قم فاقصص منّي حتّى ترضى قال
الشيخ : يا رسول الله اكشف لي عن بطنك فكشف ﷺ عن بطنه فقال الشيخ : بأبي
أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ قال ﷺ : قد أذنتك
فوضع الشيخ فمه على بطن رسول الله فقال : أعوذ بطن رسول الله من النار يوم القيامة
فقال ﷺ لسودة : أتغفوا تقصص فقال الشيخ : بل أعفو يا رسول الله فقال ﷺ :
اللهم اغفر عن سودة بن قيس ممّا عفا عن نبيك .

ثم جعل ﷺ يوصي أصحابه بالتمسك بسنته والاقتداء بعترته ويحدّثهم
مخالفة أهل بيته ، ثم إنّه أمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يضعه على فراشه . وقام
القوم عنه وقد آيسوا منه فلمّا كان من الغد حُجِبَ الناس عنه وكان عليّ عليه السلام لا يفارقه
فخرج ﷺ لحاجة ، فدخل عليه نساؤه فأفاق فافتقد عليّاً عليه السلام فقال لأزواجه :
ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت عائشة : ادعوا له أبا بكر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض
بوجهه عنه فقام أبو بكر وقال : لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال :
ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت حفصة : ادعوا له عمر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض
بوجهه عنه فانصرف ، وقال : لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال :

ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت أم سلمة : ادعوا له علياً فوالله ما يريد غيره فدعي علياً عليه السلام فلمّا رآه أوى إليه فانكبّ عليه من تحت ثوبه فناجاه طويلاً ثمّ قام عليه السلام ناحية فقال له الناس بعد ذلك : ما الذي أوعز إليك قال : علّمني ألف باب من العلم انفتح لي من كلّ باب ألف باب وأوصاني بما أنا عامل به إن شاء الله ، ثمّ إن أم سلمة استأذنت على رسول الله ﷺ فأذن لها فدخلت وسلمت عليه ، ثمّ قالت : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله أراك متغيّراً قال : نعبت إليّ نفسي فسلام لك منّي فلا تسمعون بعد اليوم صوت محمد أبداً ، فقالت أم سلمة : واحزاناه لاتدركه الندامة عليك يا محمد ، فقال : يا أم سلمة ادعي لي حبيبتي وقرّة عيني وثمرّة فؤادي المظلومة بعدي فاطمة . فلمّا رآته قبّلت رأسه وخذّيه وقالت : نفسي لنفسك الفداء واكرهه لكرهك يا أبتاه ففتح ﷺ عينيه وقال : يا بنيّة لا كرب على أبيك بعد اليوم فقالت : يا أبتاه إنّي أراك مفارق الدنيا فقال لها : بنيّة إنّي مفارقك فسلام لك منّي فقالت : يا أبتاه فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال : عند الحساب ، قالت : فإن لم ألقك هناك ، قال : فعند الشفاعة لمحبيّك ، قالت : فإن لم ألقك عند الشفاعة قال : عند الصراط جبرئيل عن يميني وميكائيل عن شمالي وبعلك عليّ بن أبي طالب أمامي بيده لواء الحمد والملائكة من خلفي ينادون ربّ سلّم أُمّة محمد من النار ويسرّ عليهم الحساب قالت : فأين أمّي خديجة قال : في قصر من لؤلؤة بيضاء له أربعة أبواب . ثمّ أغمى عليه ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب عليه السلام فانكبّت عليه تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وهي تقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ☆ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك ^(١) من آل هاشم ☆ فهم عنده في نعمة وفواصل

قال : ففتح رسول الله ﷺ عينيه وقال لها بصوت ضعيف : يا بنيّة هذا قول عمك أبي طالب لا تقولينه ولكن قوليني « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ^(٢) ، فبكت طويلاً ، ثمّ إنّه ﷺ أومأ إليها

بالدُّنو منه ، فدنّت منه حتّى أدخلها تحت رداءه فناجاها فرفعت رأسها وعينها
تهلان دموعاً ثمّ قال لها : اداني منّي فدنّت منه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك
فتعجب الحاضرون من ذلك ، فقالت : نعمى إليّ نفسه فبكيت ، ثمّ قال لي : يا بنيّة
لا تجزعي على أبيك من الموت فإنّي سألت ربّي أن يجعلك أوّل أهل بيتي لحوقاً
بي وأخبرني ربّي أنّه استجاب لي فضحك لي فضحك ، ثمّ قال : يا بنيّة ادعي لي ولديّ
الحسن والحسين . فدعت بهما فلمّا رأهما قبلهما وشمّهما وجعل يترشّفهما وعيناه
تهلان دموعاً ، ثمّ انغمي عليه فصاح الحسن والحسين عليهما وقالوا : يا جداه أنفسنا
لنفسك الفداء ووجهنا لوجهك الوقاء وجعلنا يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول
الله ﷺ ، فأراد عليّ عليه السلام أن ينحنيهما عنه فأفاقهما وقال : يا عليّ تنحني
عني ابني ؟ دعني أشمّهما ويشمّاني وأنزود منهما ويتزودان منّي فهذا وداد
لا تلاق بعده أما إنهما سيظلمان بعدي ويقتلان ظلماً فلعنة الله قاتلهم وظالمهم ، ثمّ
قال : أما أنت يا أبا عبد الله فتقتل مسموماً مخذولاً مضطهداً ، وأما أنت يا أبا عبد الله
فتقتل عطشاناً غريباً فلعنة الله على أمة قتلوك يا بنيّ .

قال : وكان جبرئيل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في مرضه في كلّ يوم وليلة
فيقول : السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك وه
أعلم بك ولكنّه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك وأراد أن يكون عياد
المريض سنة في أمّتك فإن كان النبيّ موجّباً أي حاله خفيف قال : أجدني موج
فيقول له جبرئيل أحمد الله تعالى على ذلك فإنّه يحبّ أن يحمد ويزيد في شكره
وإن كان وجعاً قال : أجدني وجعاً فيقول جبرئيل : يا عبد الله إنّ ربّك لم يشدّ عليك
وما من أحد من خلقه أكرم عليه منك ولكن أحبّ أن تحمده وتشكره حتّى تلتق
مستوجباً للدرجة العليا والثواب الدائم والكرامة على جميع الخلق . قال أمير المؤمنين
عليه السلام : وإنّ جبرئيل نزل على رسول الله ﷺ في الوقت الذي ينزل عل
فيه فلمّا حسست بنزوله قلت لمن كان في البيت أن يتنحى فلمّا دخل على رسول
الله ﷺ جلس عند رأسه ، ثمّ قال عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرؤ

السلام ويسألك كيف تجدك وهو أعلم بك فقال له : أجدني ميتاً ، فقال جبرئيل :
يا محمد أبشر فإن الله تعالى إنما أراد أن يبلغك بما تجده ما أعد لك من الكرامة .
قال أمير المؤمنين عليه السلام : ثم إن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ فخرجت إليه
وقلت له : ما الذي تريد ؟ قال : أردت الدخول على رسول الله ﷺ فقلت : لست تصل
إليه فما حاجتك ؟ فقال الرجل : إنه لا بد من الدخول عليه فدخل علي ﷺ واستأذن
رسول الله ﷺ فأذن له فدخل الرجل وجلس عند رأسه ، ثم قال : السلام عليك يا
رسول الله فقال له : وعليك السلام فما حاجتك ؟ فقال الرجل : إني رسول الله إليك ،
فقال ﷺ : وأي رسل الله أنت ؟ فقال : أنا ملك الموت أرسلني إليك ربك وهو يقرئك
السلام ويخبرك بين لقائه وبين الرجوع إلى الدنيا فقال ﷺ : أمهلني حتى ينزل
جبرئيل ﷺ فيسلم علي وأسلم عليه وأستشيره فخرج ملك الموت من عنده واستقبله
جبرئيل في الهواء فقال : يا ملك الموت قبضت روح محمد ؟ قال : لا يا جبرئيل سألني
أن لا قبضه حتى تأتيه فتسلم عليه ويسلم عليك ويستشيرك فقال جبرئيل : يا ملك
الموت أما ترى أبواب السماء مفتحة لروح محمد ؟ أما ترى الحور العين قد تزيّنت
لمحمد ، ثم نزل جبرئيل على النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك
يا محمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، فقال : وعليك السلام يا حبيبي جبرئيل إن ملك
الموت استأذن علي فأذنت له فأراد قبض روحي فاستنظرته مجيئك ، فقال له جبرئيل :
يا محمد إن ربك مشتاق وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد
بعدك فقال النبي ﷺ : يا جبرئيل إن ملك الموت قد خيرني عن ربي بين لقائه
وبين الرجوع إلى الدنيا فما ترى يا حبيبي جبرئيل ؟ فقال جبرئيل : يا محمد
« والآخرة خير لك من الأولى » ولسوف يعطيك ربك فترضى « لقاء ربك خير لك
فقال النبي ﷺ : لقاء ربي خير لي ، لا تبرح يا حبيبي جبرئيل حتى يجيء ملك
الموت فما كان إلا ساعة حتى نزل ملك الموت فقال : السلام عليك يا محمد ، فقال :
وعليك السلام يا ملك الموت ، ما تريد أن تصنع ؟ قال : قبض روحي ، فقال : إمض
لما أمرت به ، فقال جبرئيل : يا محمد هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الدنيا فقال ﷺ

يا حبيبي جبرئيل أدن منّي فدنا منه فكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله وملك الموت قابض لروحه المقدسة فقال جبرئيل : يا ملك الموت لا تعجل حتّى أعرج إلى ربّي وأهبط ، فقال ملك الموت : قد صارت روحه في موضع لا أقدر على تأخيرها فعند ذلك قال جبرئيل : يا محمد هذا آخر هبوطي إلى الدنيا إنّما كنت حاجتي فيها والآن أعود إلى السماء ولا أنزل إلى الأرض أبداً ، ثمّ إنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام : أدن منّي يا أخي فقد جاء أمر الله فدنا منه حتّى أدخله تحت ثوبه الذي عليه ووضع عليه فاه في أذنه ففاجاه طويلاً حتّى خرجت نفسه الطيبة ﷺ وكان عليه السلام كلما كشف الثوب عن وجهه نظر إلى جبرئيل عليه السلام فقال : عند الشدائد لم تأخذني يا حبيبي فقال جبرئيل يا محمد « إنّك ميت وإنهم ميتون » « كل نفس ذائقة الموت » ثمّ قال جبرئيل : يا محمد احفظ وصيّة الله في روح محمد ، فلمّا قضى نحبّه ويد عليّ تحت حنكه الشريف ففاضت نفسه الشريفة فيها فمسح بها وجهه ووجهه إلى القبلة وغمّض عينيه ثمّ أنسل عليه السلام من تحت الثوب المغطّى به وهو يبكي وقال لمن حضر : أعظم الله أجوركم في نبيّكم فقد قبضه الله إليه .

قال : فارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنحيب ، ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام استدعى الفضل بن عباس وأمره أن يناوله بعد أن عصب عينيه ثمّ غسله صلوات الله عليه كما أمره فلمّا فرغ من غسله حنطه وكفّنه ، واختلف أصحابه وأهل بيته في أفضل البقاع وإنّي لدافنه في البيت الذي قبض فيه ^(١) ، ثمّ إنّ العباس بن عبد المطلب بعث إلى عبدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكّة القبور وضرّح وكان ذلك عادة أهل مكّة وبعث عليّ عليه السلام يزيد بن سهل يحفر له لحدّاً في حجرته ، ثمّ إنّ عليّاً عليه السلام وضع رسول الله على سريره على شفير قبره ، ثمّ إنّّه صلى عليه وحده لم يشرك أحد في الصلاة عليه فكان المسلمون يخوضون فيمن يؤمّمهم في الصلاة عليه وأين يدفن فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى من كان في المسجد من بني هاشم والمهاجرين والأنصار ممّن لم يحضر السقيفة وقال : إنّ رسول الله ﷺ إمامنا حيّاً

(١) كذا . وفي بعض النسخ [انى لادفنه] .

وهيئاً فليدخل إليه منكم فوج فوج فيصلّون عليه وإن الله تعالى لم يقبض نبياً من أنبيائه في مكان إلا ارتضاه لرمسه فيه وإنّي لدافنه في حجرته التي قبض فيها فأطاعه القوم ورضوا بقوله ، ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام نزل القبر هو والعبّاس ابن عبد المطلب والفضل بن عبّاس فنادت الأنصار من وراء البيت : يا عليّ إنّنا نذكرك الله وحقّقنا اليوم من رسول الله ﷺ أن يذهب أدخل منا رجلاً يكون لنا حظاً في مواراة رسول الله فقال عليه السلام : ليدخل أويس بن خولي وكان بدريةً فاضلاً من الخزرج ، فلمّا دخل قال له عليّ عليه السلام : انزل القبر فنزل فوضع أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله على يديه ودلاه في حفرته فلمّا حصل في الأرض قال له : أخرج يا أويس فخرج ونزل عليّ عليه السلام القبر وكشف عن وجه رسول الله ﷺ ووضع خده الأيمن على الأرض موجّهاً إلى القبلة ، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب . وكان وفاته ﷺ يوم الاثنين ليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . وفات أكثر الناس الصلاة عليه ولم يحضروا دفنه واشتغلوا بأمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة واغتنم أبو بكر الفرصة لعلمه أنّه لو تواني عن طلب الخلافة حتّى يفرغ أمير المؤمنين من تجهيز رسول الله ﷺ قبل أن يحكموا أمرهم لم يستتمّ لهم ما يريدون فسبقوا إلى ولاية الأمر وذلك لاختلاف الأنصار فيما بينهم وكرهية الطلقاء والمنافقين والمؤلّفة قلوبهم لأمر المؤمنين عليه السلام وعلموا إنّ تأخّر الأمر حتّى يفرغ بنو هاشم من تجهيز رسول الله ﷺ استقرّ الأمر مقرّه ويتولّى الأمر أمير المؤمنين عليه السلام فيخيبوا ممّا أمّلوه ولذلك سابعوا إلى طلب الخلافة - القصّة بطولها أخذنا منها موضع الحاجة ممّا يتعلّق بوفاته ﷺ دون ما يتعلّق بأمر الخلافة فإنّه ليس هنا محلّ ذكر ذلك .

❖ (الباب الخامس) ❖

❖ (في كلام المحتضرين من الصّالحين) ❖

أقول : وقد ذكر أبو حامد في هذا الباب أقاويل الصّحابة والتابعين وطائفة من الصوفيّة عند موتهم وبكاء بعضهم حينئذ وضحك بعضهم ونسب إلى بعضهم الطرب

والاستبشار والسرور عند موته مع أنه ذكر في باب وفاة رسول الله ﷺ أنه اشتد في النزاع كربيه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه و عرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، ولم يمهله ملك الموت ساعة وذكر في الحكايات السابقة أن ملك الموت أمهل رجلاً حتى توضع وصلى ركعتين وذكر في شأن الخليل والكليم في باب سكرات الموت ما سمعت وهذا من أعجب العجائب ولنطوما ذكره في هذا الباب طياً فإن بعضه كلمات لا طائل تحتها وبعضه رعونات ودعاوي ، ينادي أكثرها بالاعجاب .

قال في آخر الباب : فهذه أقاويلهم وإنما اختلف بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد من مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

❦ (الباب السادس) ❦

❦ (في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور) ❦
إعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الفطنة فأما أهل الغفلة فإنه لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز كلهم هكذا كانوا يحسبون فبطل حسابانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظرون عبد إلى جنازة إلا وينبغي أن يعد نفسه محمولا عليها فإنه محمول عليها على القرب وكأن قد ولعله في غد أو بعد غد فروي عن بعضهم أنه كان إذا رأى جنازة قال : امض و أنا على الأثر .

ثم ذكر أبو حامد مقالات قوم على الجنائز من هذا القبيل ، ثم قال : فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه

وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حملت عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قساوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاءهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت لأنهم بالبكاء على أنفسهم أخرى من البكاء على الميت .

فمن آداب حضور الجنائز التفكير والتنبه والاستعداد والمشي على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فإن الخاتمة مخطرة لا يدري حقيقتها ، ولذلك روى عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليه فلمّا أدلى في قبره وقف على قبره وقال : رحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالنوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا : مذنب وذو خطايا فمن منّا غير مذنب وغير ذي خطايا ، وحكي أن رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر به أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملوه إلى المصلّى فما صلى عليه أحد فحملوه إلى الصحراء للدفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرآه كالمُنظر للجنازة فقص أن يصلي عليه فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلّوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال لهم : قيل لي في المنام : انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها إلا امرأة فصلّ عليه فإنّه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وإنه كيف كانت سيرته ، قالت : كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر ، فقال : انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير ، قالت : نعم ثلاثة أشياء كان كلّ يوم يفيق عن سكره وقت الصبح فيبدّل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح بالجماعة

ثمَّ يعود إلى الماخور ويشغل بالفسق . والثاني أنه كان أبداً لا يخلو بيته عن يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول : يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ويعني به نفسه فانصرف الزاهد وارتفع إشكاله في أمره .

❖ (بيان أحوال القبر وأقاربهم على القبور) ❖

قال الضحاك : قال رجل يا رسول الله : « من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى ، وترك فضل زينة الدنيا ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد غداً من أيامه ، وعدّ نفسه من أهل القبور ^(١) »

وقيل لعليّ عليه السلام : ما شأنك جاورت المقبرة قال : « إنني أجدهم خير جيران إنني لأجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مارأيت منظرأ إلا والقبر أفضع منه ^(٢) » .

وقال أبو ذرّ : ألا أخبركم بيوم فقري يوم اوضع في قبري ^(٣) .

و كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور و قيل له في ذلك ، قال : أجلس إلى قوم يذكرّوني معادي ، وإن قمت لم يغتابوني ^(٤) .

وقال أبان بن أبي عبيّاش التيمي : حضر الحسن مع أصحابه في جنازة النواء بنت أعين بن صبيعة عبيّاش التيمي للرغبة في الخير أو رهبة من لسان الفرزدق فلمّا صلّوا عليها أتوا بها فجلس الحسن ناحية وأصحابه والفرزدق ناحية وأصحابه ، فقال الفرزدق للحسن : يا أبا سعيد يزعم الناس أنه حضر في هذه الجنازة خير الناس وشرّ الناس ، فقال الحسن : ومن يعنون به يا أبا فراس ؟ قال الفرزدق : يعنون أنّي شرّ الناس وأنك خير الناس فقال الحسن : كلاّ ما أنا بخير الناس ولا أنت بشرّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في القبور مراسلا كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦٧ من حديث عثمان بن عفان .

(٣) و(٤) تقدما في المجلد الثالث ص ٤١٨ .

الناس ، ثم قال : يا أبا فراس ما قدمت لهذه الحفرة ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله
ثمانون سنة ، فقال الحسن : خذوها من غير فقيه ، ثم قال : يا أبا فراس هذا العمود
فأين الأطناب ؟ يعني هذا القول فأين العمل ؟ ثم قال : الفرزدق : يا أبا سعيد
أبيات عرضت لي تسمعتها فقال : هات فإنك تحسن أن تقول فأنشأ ويقول :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ☆ أشد من القبر إلهاباً وأضيحا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ☆ عنيف وسوقا يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ☆ إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يقاد إلى نار الجحيم مسربلاً ☆ سراويل قطران لباساً محرقاً
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ☆ يذوبون في حرّ الصديد يمزقاً
قال : فما رجع الناس إلا باكين من قول الفرزدق حتى خضبوا لحاهم وقد

أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ☆ من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها ☆ قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي القبور فواحد ☆ لا يستبين الفضل في درجاتها
لوجاوبوك لأخبروك بالسن ☆ تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة ☆ يفضي إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب ☆ في حفرة يأوي إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ☆ في شدة التعذيب من لدغاتها
أقول : ثم ذكر أبو حامد كلمات طائفة من هذا القبيل ثم ذكر أبيات

وجدت مكتوبة على القبور ، منها :

تناجيك أجدث وهن سكوت ☆ وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة ☆ لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
منها :

إن الحبيب من الأحباب مختلس ☆ لا يمنع الموت بواب ولا حرس

فكيف تفرح بالدنيا ولذتها * يا من يعدُّ عليه اللحظ والنفس
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً * وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا تأمن الموت في طرف ولا نفس * وإن تستترت بالحجاب والحرس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * ولا الذي كان منه العلم مقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به * عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف * فقبرك اليوم في الأجداث مندرس
ومنها غير ذلك :

قال أبو حامد : فهذه أبيات كتبت على القبور لتقصير سكّانها عن الاعتبار قبل
الموت والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعدُّ للحق
بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم
يوم واحد من أيام عمره الذي هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا
بحذافيرها لأنهم قد عرفوا قدر الأعمار وانكشف لهم حقائق الأمور وإنما حسرتهم
ليوم من العمر ليتدارك المقصّر فيه تقصيره فيتخلص عن العقاب ، وليستزيد الموفق
به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعهم فحسرتهم
على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت
مضىّ لها ، فوطن نفسك على التحسّر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار
إن لم تأخذ نصيبك من ساعاتك على سبيل الاستعداد فقد قال بعض الصالحين :
« رأيت أخاً لي في الله فيما يرى النائم فقلت : يا فلان عشت حميداً الحمد لله ربّ
العالمين قال : لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله ربّ العالمين أحب إليّ من الدنيا
وما فيها ، ثم قال ، ألم ترحيث كانوا يدفنوني فإن فلاناً قد قام فصلّى ركعتين لأن
أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

❦ (بيان أقوالهم عند موت الولد) ❦

حقّ على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله بعد تقدّمه عليه في
الموت منزلة ما لو كانا في سفر فسبّقه ولده إلى البلد الذي هو مستقرّه ووطنه فإنّه

لا يعظم عليه تأسفه لعلمه بأنه لاحق به على القرب و ليس بينهما إلا تقدّم وتأخّر، وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخّر، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يتعزّى به كلّ مصاب قال رسول الله ﷺ: «لأنّ اقدم سقط أحبّ إليّ من أن أخلف مائة فارس كلّهم يقاتل في سبيل الله^(١)» وإنّما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محلّ الولد من القلب.

أقول: وعن الصادق عليه السلام: «ولد يقدّمه الرّجل أفضل من سبعين ولداً يخلفهم بعده كلّهم قدر كبوا الخيل وجاهدوا في سبيل الله»^(٢).
وعنه عليه السلام: «من قدّم من المسلمين ولدين يحتسبهما عند الله حجاباً من النار باذن الله»^(٣).

وقال عليه السلام: «إنّ الله إذا أحبّ عبداً قبض أحبّ ولده إليه»^(٤).
وقال عليه السلام: «ثواب المؤمن من ولده إذا مات الجنة، صبر أولم يصبر»^(٥).
وقال عليه السلام: «إنّ الله ليحبّ من الرّجل يموت ولده وهو يحمد الله فيقول: يا ملائكتي عبدي أخذت نفسه وهو يحمدني»^(٦).

قال أبو حامد: وقال: زيد بن أسلم: «توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً ف قيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: ملء الأرض ذهباً قيل له: فإنّ لك من الأجر مثل ذلك. وقال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنّة من النار: فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان قال: أو اثنان»^(٧) «وليخلص الوالد الدّعاء لولده عند الموت فإنّه

(١) ما عثرت عليه الأعلى ما أخرجه ابن ماجه في السنن تحت رقم ١٦٠٧ هكذا
«لسقط اقدمه بين يدي أحبّ الى من فارس أخلفه خلفي».

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢١٨ تحت رقم ١.

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) الكافي ج ٣ ص ٢١٩ و ٢٢٠ تحت رقم ٥٦ و ٩٨.

(٧) أخرجه البخاري ج ٢ ص ٨٨ من حديث أبي سعيد الخدري ورواه عبدالله بن احمد والطبراني في الكبير وبويعلی ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٨.

أرجى دعاء وأقربه إلى الاستجابة .

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه من حقّي فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجدود وأكرم . ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني وهبت له ما قصر فيه من برّي فهب له ما قصر فيه من طاعتك .

ولما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ بعدما وضع في لحدّه فقال : يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ اللهم إن هذا ذرّ متّعني به ما متّعني ووفّيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي ، اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتني فقد وهبت له ذلك فهب له عذابه ولا تعذّب به ، فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه : ما علينا من بعدك خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك .

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلّة الحزن ، فقالت : يا عبدالله إني لفي حزن شديد ما يشرّكني فيه أحد ، قال : وكيف ؟ قالت : إن زوجي ذبح شاة في يوم الأضحى و كان له صبيّان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف أبي يذبح الشاة قال : نعم فأخذه وأضجعه ثم ذبحه فما شعرنا به إلا متشحطاً في دمه^(١) فلمّا ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه^(٢) ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدّة الحرّ قالت : فأفردني الدّهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغي أن يتذكّر عند موت الأولاد ليتسلّى به عند شدّة الجزع فما من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كلّ حال فهو الأكثر .

(١) التشحيط الاضطراب في الدم .

(٢) رهقه أى لحقه أودنا منه سواء أخذ أو لم يأخذ .

﴿ بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به ﴾

إعلم أن زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار ، وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن فيها (١) .

فقد روى علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكراً للآخرة غير أن لا تقولوا هجراً » (٢) .
وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنّع فلم يربا كياً أكثر من يومه (٣) .
وقال أبو ذر - رضي الله عنه - : قال رسول الله ﷺ : « زر القبور تذكّر بها الآخرة و اغسل الموتى فإن في معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك أن يحزنك فإنّ الحزين في ظلّ الله » (٤) قال ابن أبي مليكة : قال رسول الله ﷺ : « زوروا موتاكم فسلموا عليهم فإنّ لكم فيهم عبرة » (٥) .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه علي بن أبي طالب : « إنّ فاطمة بنت النبي كانت تزور قبر عمّها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده » .

أقول وفي الفقيه « إنّها علياً تأتّي قبور الشهداء كلّ غداة سبت فتأتي قبر حمزة فترحم عليه وتستغفر له » (٦) .

وروي عن محمد بن مسلم أنه قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : الموتى نزورهم ؟

(١) مسلم ج ٣ ص ٦٥ من حديث بريدة

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى دون قوله : « ولا تقولوا هجراً » ورواه بتمامه الطبراني

في الكبير والوسط بهذه الزيادة من حديث ابن عباس كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٣٧٥ وقال : هذا حديث صحيح على

شرط الشيخين .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ١٧٧ .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور مرسلًا وإسناده حسن . (المغنى)

(٦) المصدر باب التزوية والجزع تحت رقم ٣٦ .

فقال : نعم ، قلت : فيعلمون بنا إذا أتيناهم ؟ فقال : إي والله إنهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم ويستأنسون إليكم ، قال : فأأي شيء نقول إذا أتيناهم ؟ قال : قل : « اللهم جاف الأرض عن جنوبهم وصاعد إليك أرواحهم ولقنهم منك رضواناً واسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم وتونس به وحشتهم إنك على كل شيء قدير (١) » .

وقال الرضا عليه السلام : « ما من عبد زار قبر مؤمن فقراً عليه إننا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرّات إلا غفر الله له ولصاحب القبر (٢) » .

قال أبو حامد : وقال النبي صلى الله عليه وآله : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب عند الله باراً (٣) » .

وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الرجل ليموت والداه وهو عاقٌّ بهما فيدعو الله لهما من بعد موتهما فيكتبه الله من البارين (٤) » .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي (٥) » .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شافعاً وشهيداً يوم القيامة (٦) » .

وقال كعب : ما من فجر يطلع إلا وينزل سبعون ألفاً من الملائكة حتّى يحقّقوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلّون على النبي صلى الله عليه وآله حتّى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ذلك فصنعوا مثل ذلك حتّى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه .

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٣٩ و ٤٠ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٤) قال العراقى : رواه ابن ابى الدنيا فى القبور وهو مرسل صحيح الاسناد .

(٥) رواه البزار فى مسنده من حديث عبدالله بن ابراهيم الغفارى كما فى مجمع

الزوائد ج ٤ ص ٢ .

(٦) روى نحوه الطبرانى من حديث ابن عمر ، وصححه ابن السكن . (المغنى) .

أقول : ثم ذكر أبو حامد ما يتعلق بزيارة القبور من الآداب وغيرها مما لا نعتد عليه فلنعرض عنه ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصة فعن الصادق عليه السلام « أنه سئل كيف التسليم على أهل القبور ؟ فقال : نعم تقول : « السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين أنتم لنا فرط ونحن إن شاء الله بكم لاحقون »^(١) . وقد ورد في زيارة الميِّت أهله أخبار عن أهل البيت عليه السلام وهذا مما لم يذكره أبو حامد وكأنه لم يصل إليه منه شيء ، ففي الفقيه « سأل إسحاق بن عمار أبا الحسن الأول عليه السلام عن المؤمن يزور أهله ؟ فقال : نعم ، قال : في كم ؟ قال : على قدر فضائلهم منهم من يزور في كل يوم ، ومنهم من يزور في كل يومين ، ومنهم من يزور في كل ثلاثة أيام قال : رأيت في مجرى كلامه أنه يقول : أدناهم جمعة فقال له في أي ساعة ؟ قال : عند زوال الشمس أو قبيل ذلك فيبعث الله معه ملكاً يريه ما يسر به ويستتر عنه ما يكرهه فيرى سروراً ويرجع إلى قرّة عين^(٢) » . وروى حفص بن البخترى عن أبي عبد الله عليه السلام « أن الكافر يزور أهله فيرى ما يكرهه ويستتر عنه ما يجب^(٣) » .

قال أبو حامد : قال رسول الله ﷺ : « ما الميِّت في قبره إلا كالغريق المنعوّث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار^(٤) » . وقال بعضهم : مات أخ لي فرأيت في المنام فقلت له : ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلو لا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيصيدني شيء منه .

أقول : في الفقيه قال عمر بن يزيد : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أيصلي عن الميِّت ؟ قال : نعم حتّى أنه ليكون في ضيق فيوسع الله عليه ذلك الضيق ثم يؤتى

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٢٩ تحت رقم ٥٠

(٢) و(٣) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٤٢٠٤١ .

(٤) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس (المعنى)

فيقال له : خفف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك قال : فقلت له : فأشرك بين رجلين في ركعتين ؟ قال : نعم ، فقال عليه السلام : إن الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدي إليه ^(١) .

وقال عليه السلام : « من عمل من المسلمين عن ميت عملاً صالحاً أضعف له ونفع الله به الميت ^(٢) » .

قال أبو حامد : وعن هذا يستحب تلقي الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال : يا أبا سعيد : إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إذا مات أحدكم فسوؤتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يا فلان بن فلان - وإنه يسمع ولا يجيب - ثم ليقل يا فلان بن فلانة - الثانية - فإنه يستوي قاعداً ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة - الثالثة - فإنه يقول : أرشدنا رحمك الله - ولكن لا تسمعون - فيقول له : اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً فإن منكرأ ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول : انطلق بنا نقعد عند هذا ولقد لقين حجتته ويكون الله تعالى حجيجه دونهما ، فقال رجل : يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال : فلينسبه إلى حواء ^(٣) والمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار والممزرور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف ابن أبي بكر الهذلي قال : كانت عجوز في بني عبد قيس متعبدة فكانت إذا جاء الليل تحزمت ^(٤) ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٥٥٥٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير بسند مجهول كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٤٥ .

(٤) تحزم أى شد وسطه بحبل أو شبهه .

عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت : إنَّ القلب إذا قسا لم يليه إلا رسوم البلى وإنني لأتئ القبور فكأنني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنني أنظر إلى تلك الوجوه المتغيرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيرة ، وإلى تلك الألفان الدسمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ، ما أنكل مرارتها للأنفس ، وأشدَّ تلفها للأبدان . ويستحب أيضاً الثناء على الميِّت وأن لا يذكر إلا بالجميل ، قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه ^(١) » وقال ﷺ : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا ^(٢) » . وقال ﷺ : « لا تذكروا أمواتكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه ^(٣) » .

❖ (الباب السابع) ❖

❖ (في حقيقة الموت وما يلقاه الميِّت في القبر إلى نفخة الصور) ❖
بيان حقيقة الموت إعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وإن

(١) أخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٣ من السنن .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ١٥١ وأحمد في مسنده من حديث المغيرة .

(٣) أخرجه البخاري ج ٣ ص ١٢٣ من حديث عائشة وأحمد ج ٦ ص ١٨٠ من مسنده أيضاً .

(٤) قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي جيد مقتصرأ هكذا « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » . وذكره بالزياد صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني .

الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً ، وكل هذه الظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل الذي يشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغيير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامعة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من دون آلة وكذلك قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والكمد ، وتتغنم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده ، وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ولسدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فيكون الروح العالمة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها ، وكل الأعضاء آلات للروح وهي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغموم ولذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا تبطل منها الأفراح والغموم ، ولا يبطل منها قبولها الآلام واللذات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات وذلك لا يموت أي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون له آلة كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة ، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها ، حقيقة الإنسان نفسه وروحه هي باقية نعم تغيير حاله من جهتين إحداهما أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلماؤه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه

الأشياء فإن المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن المال والألم واحد في الحالتين وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويتقيّد بوجوده فيعظم تحسّره عليه بعد الموت ويتضاعف شقاؤه في مفارقتة ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه و عقاره حتّى إلى قميص كان يلبسه مثلاً و يفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذ خلّي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنّه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقّظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضرّه وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سرّ قلبه و كان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيّئته إلا ويتحسّر عليها تحسّراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من ألم تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، و تشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزّاد والبلغة فإن من طلب الزّاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقتة بقية الزّاد إذ لم يكن يريد الزّاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يودّ أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه فقد حصل له ما كان يودّه واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم بعد الدفن قد تردّ روحه إلى الجسد بأنواع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحرime اعتماداً على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه

جريدة قد دون فيها جميع فواحشه وجنباياته ذرة ذرة وخطوة خطوة ، والمملك قاهر
 • تسلط وغيور على حُرِّمه ومننقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع
 إليه في العصاة عليه فانظر إلى حال هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب
 الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسّر والتندّم ، فهذا حال الميت
 الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته ، نغوذ
 بالله منه فإنّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كلّ عذاب يحلّ بالجسد
 من الضرب والقطع وغيرهما ، فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهداً ولو-
 البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة ،
 نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف
 الحياة ومعرفة حقيقة الحياة بمعرفة حقيقة الرّوح في نفسها وإدراك ماهيّة ذاتها
 و لم يؤذن الرّسول ﷺ أن يتكلّم فيها ولأن يزيد على أن يقول «الرّوح من أمر
 ربّي» فليس لأحد من علماء الدّين أن يكشف عن سرّ الرّوح وإن اطلع عليه
 وإنّما المأذون فيه ذكر حال الرّوح بعد الموت ، ويدلّ على أن الموت ليس عبارة
 عن انعدام الرّوح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة أمّا الآيات فما ورد في
 الشهداء قال تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم
 يرزقون فرحين ^(١) » ولما قتل صناديد العرب يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال :
 « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً ؟
 فقل : يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال ﷺ : « الذي نفسي بيده إنهم
 لا سمع لهذا الكلام منكم إلّا أنّهم لا يقدرّون على الجواب ^(٢) » فهذا نصّ في بقاء
 روح الشقيّ و بقاء إدراكها ومعرفة نفسها والآية نصّ في بقاء أرواح الشهداء ، ولا يخلوا
 الميت عن سعادة أو شقاوة وقال ﷺ : « القبر إمّا حفرة من حفر السّيران أو
 روضة من رياض الجنّة ^(٣) » وهذا نصّ صريح في أن الموت معناه تغيير حال فقط

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٦ من حديث عمر بن الخطاب .

(٣) أخرجه الترمذی وغيره وتقدم في الخوف والرجاء .

وأن ما سيكون من شقاوة الميِّت وسعادته يتعجَّل عند الموت من غير تأخَّر وإِنما يتأخَّر بعض أنواع العذاب و الثواب دون أصله .

و روى أنس عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته ^(١) » وقال النبي ﷺ : « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ يُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(٢) » و ليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب و نعيم في الحال .

و قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « حَرَامٌ عَلَيَّ كُلِّ نَفْسٍ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هِيَ أُمُّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ^(٣) » و لهذا قيل : إِنَّمَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ حِينَ تَخْرُجُ نَفْسُهُ وَ رُوحُهُ مِثْلُ رَجُلٍ كَانَ فِي سَجْنٍ فَأُخْرِجَ مِنْهُ فَهُوَ يَنْفَسُ فِي الْأَرْضِ وَ يَتَقَلَّبُ فِيهَا وَ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ حَالُ مَنْ تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَ تَبَرَّأَ بِهَا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُنْسٌ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ وَ كَانَتْ شَوَاغِلُ الدُّنْيَا تَحْبِسُهُ عَنْ مَحَبُّوبِهِ وَ مَقَاسَاةِ الشَّهَوَاتِ تُوْذِيهِ فَكَانَ فِي الْمَوْتِ خُلَاصَةٌ مِنْ جَمِيعِ الْمُؤْذِيَّاتِ وَ انْفِرَادُهُ بِمَحَبُّوبِهِ الَّذِي كَانَ بِهِ أُنْسُهُ مِنْ غَيْرِ عَائِقٍ وَ لَا دَافِعٍ ، وَ مَا أَجْدَرُ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ مُنْتَهَى النِّعَمِ وَ اللَّذَاتِ وَ أَكْمَلُ اللَّذَاتِ لِلشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا نَفْسٌ مِمَّا أَقْدَمُوا عَلَى الْقِتَالِ إِلَّا قَاطِعِينَ التَّفَاتِهِمْ عَنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا مُشْتَاقِينَ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ رَاضِينَ بِالْقِتْلِ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ فَإِنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا فَقَدْ بَاعَهَا طَوْعاً بِالْآخِرَةِ وَ الْبَايِعَ لَا يَلْتَمِسُ قَلْبُهُ إِلَى الْمُبِيعِ وَ إِنْ نَظَرَ إِلَى الْآخِرَةِ فَقَدْ اشْتَرَاهَا وَ تَشَوَّقَ إِلَيْهَا فَمَا أَعْظَمَ فَرْحَهُ بِمَا اشْتَرَاهُ إِذَا رَأَاهُ وَ مَا أَقْلَّ التَّفَاتِ إِلَى مَا بَاعَهُ إِذَا فَارَقَهُ ، وَ تَجَرَّدَ الْقَلْبُ لِحُبِّ اللَّهِ قَدِيقًا فَنَقَى فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَ لَكِنْ لَا يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ عَلَيْهِ فَيَتَغَيَّرُ وَ الْقِتَالُ سَبَبُ الْمَوْتِ فَكَانَ سَبَباً لَا يَدْرِكُ الْمَوْتَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف . (المغنى)

(٢) أخرجه البخاري ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) لم أجده و تقدم ص ٢٦٠ نحوه عن النبي صلى الله عليه وآله و راجع المجلد

الثالث من بحار الانوار باب ما يباين المؤمن والكافر عند الموت .

على مثل هذه الحالة فلماذا أعظم فيه النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد و قال الله تعالى : « و لهم ما يشتهون ^(١) » فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة و أعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون ^(٢) » فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم و هذا النعيم يدركه الشهيد عند انقطاع نفسه من غير تأخير ، و هذا الأمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين ، و إن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه و كل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روي أن رسول الله ﷺ قال لجابر : ألا بشرك الله بالخير ، قال : إن الله أحيا أباك فأقعدته بين يديه فقال تمن عليّ عبدي ما شئت أعطيكه ، قال : يا رب ما عبدتك حقّ عبادتك أتمنّي عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيّك في سبيلك فأقتل فيك مرة أخرى قال له : إنه قد سبق منّي أنك إليها لا ترجع ^(٣) .

و اعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما يكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن و المضيق و يكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار و الأزهار و الطيور و الثمار فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم و قد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا و تركها لأهلها فان كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم إن يرجع إلى بطن أمه ^(٤) » فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم .

(٢) سبأ : ٥٤ .

(١) النحل : ١٦ .

(٣) رواه الجزري في اسد الغابة وابن أبي الدنيا في الموت . ونحوه ابن ماجه في

السنن تحت رقم ٢٨٠٠ .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث عمرو بن دينار مرسل و رجاله

ثقات كما في المعنى .

و قال ﷺ أيضاً : « إن مثل المؤمن في الدنيا كممثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء لم يحب أن يرجع إلى بطن أمه فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى مكانه » ^(١) و قيل لرسول الله ﷺ : « إن فلاناً قد مات فقال : مستريح أو مستراح منه » ^(٢) أشار بالمستريح إلى المؤمن و بالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه .

و قال النبي ﷺ : « لا تفضحوا أمواتكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » ^(٣) .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده ، عن الصادق عليه السلام قال : « تعرض الأعمال على رسول الله ﷺ أعمال العباد كل صباح أبرارها و فجارها فاحذروها و هو قول الله : « اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله » ^(٤) « و سكت » ^(٥) . و عنه عليه السلام قال : « ما لكم تسوون رسول الله ﷺ ؟ فقال رجل : كيف نسوؤه فقال : أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه ، فإذا رأى فيه معصية ساء ذلك فلا تسووا رسول الله و سرؤه » ^(٦) .

و بإسناده عن عبد الله بن أبان الزيات و كان مكيماً عند الرضا عليه السلام قال : قلت للرضا عليه السلام : « ادع الله لي و لأهل بيتي فقال : أو لست أفعل ؟ و الله إن أعمالكم لتعرض علي كل يوم و ليلة ؟ قال : فاستعظمت ذلك فقال لي : أما تقرأ كتاب الله « و قل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون » قال : هو والله علي ابن أبي طالب عليه السلام » ^(٧) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الموت كما في المغني .

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٥٤ بلفظة مر عليه بجنائز فقال ذلك .

(٣) ابن أبي الدنيا و المعاملي بإسناد ضعيف كما في المغني .

(٤) التوبة : ١٠٦ .

(٥) و (٦) و (٧) المصدر ج ١ ص ٢١٩ تحت رقم ١ و ٣ و ٤ .

قال أبو حامد قال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميِّت ليُعرف من يغسله و من يحمله و من يدفنه و من يدليه في قبره » (١) .
 و قال صالح المري : بلغني أن الأرواح تنالقي عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان مأواك في أيّ الجسدين كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يتوَكَّفون (٢) الأخبار فإذا أتاهم الميِّت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : لا فيقول : إننا لله و إننا إليه راجعون سئلك به غير سبيلنا .

و عن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرُّجُل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . و قال مجاهدان : الرُّجُل ليسرُّ بصلاح ولده في قبره .

و روى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال : « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرُّحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فإذا كان في كرب شديد و يسألونه ماذا فعل فلان ؟ و ماذا فعلت فلانة ، و هل تزوج فلان فإذا سأله عن رجل مات قبله و قال : مات قبلي قالوا : إننا لله و إننا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية » (٣) .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده الصحيح عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : « جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال : لا المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير و لكن في أبدان كابدانهم » (٤) و في رواية أخرى عنه عليه السلام « فإذا قبضه الله صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث رجل عن أبي سعيد بسند ضعيف كما في الجامع الصغير

(٢) توَكَّف - بتشديد الكاف - : توقف يقال : ما زلت أنو كفه حتى لقيته .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت و الطبراني في مسند الشاميين بإسناد

ضعيف و رواه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي أيوب بإسناد جيد . كما في المغنى .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ١ .

بتلك الصورة التي كانت في الدنيا ^(١) « وفي لفظ آخر » إنهم في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان ^(٢) .

وفي خبر آخر « إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة يتعارف ويتساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها قد أفلتت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حياً ارتجّوه ، وإن قالت لهم : قد هلك ؟ قالوا : قد هوى هوى ^(٣) » .

❦ (بيان كلام القبر للميت) ❦

و كلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أنني بيت القننة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي إذ كنت تمر بي فدأفاً فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إنني إذا أتحوّل عليه خضراً و يعود جسده نوراً و تصعد روحه إلى الله ، و القداد هو الذي يقدم رجلاً و يؤخّر أخرى كذلك فسره الراوي ^(٤) » .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « إن للقبر كلاماً في كل يوم يقول : أنا بيت الغربة أنا بيت الوحشة أنا بيت الدود أنا القبر أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ^(٥) » و فيه حديث آخر طويل .

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٤٥ تحت رقم ٦ .

(٢) روى نحوه البرقي في المعاسن ص ١٧٧ .

(٣) الكافي ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ٣ .

(٤) أخرجه أبويعلى والطبراني في الكبير باسناد فيه ضعيف كما في مجمع الزوائد

ج ٣ ص ٤٦ وأما القداد قال في النهاية الاثرية : « ان الارض تقول للميت ربما مشيت على فدادا » قيل أراد ذا أمل كثير وخيلاء وسمى دائم .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٢ .

﴿ بيان عذاب القبر ﴾

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ على جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً ثم قال : إن المؤمن إذا كان في قبيل من الآخرة بعث الله إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مدً بصره فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء ، وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل : اي رب عبدك فلان فيقول : ارجعوه فأرووه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته « منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية » وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتى يقال : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ ، قال : فينتهرانه انتهاراً شديداً^(١) وهي آخر فتنة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت ، وهو معنى قوله تعالى : « يثبت الله الَّذِينَ آمَنُوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة^(٢) » ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الرّيح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة من ربك وحنّات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير ، من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح والله ما علمت ان كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، قال : ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيفرش له فرش من الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول : اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي ، قال : و أما الكافر فإنه إذا كان في قبيل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد ومعهم ثياب من نار و سراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نبذ وقيل : اي رب عبدك فلان لم يقبله سماء ولا أرض

(١) نهر الرجل : زجره كاتنهره . (٢) ابراهيم : ٢٦ .

فيقول الله : ارجعوه فأروهم ما أعددت له من الشرِّ إنِّي وعدته « منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية ، فإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتى يقال له : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال : لادريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الرائحة قبيح الثياب فيقول : أبشر لسخط من الله وبعذاب أليم مقيم ، فيقول : بشرك الله بشراً من أنت فيقول : أنا عمك الخبيث والله إن كنت لسريعاً في معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شراً ، فيقول : فأنت فجزاك الله شراً ، ثم يقبض له أصم أعمى أبكم ، معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها عنقه ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين ، قال : ثم ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار ^(١) .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا و أول يوم من أيام الآخرة مثل له ماله و ولده و عمله فيلتنفث إلى ماله فيقول : و الله إنني كنت عليك حريضاً شحيحاً ، فما لي عندك ؟ فيقول : خذمني كفك ، قال : فيلتنفث إلى ولده فيقول : و الله إنني كنت لكم محبباً وإنني كنت لكم محامياً فما لي عندكم ؟ فيقولون : نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها ، قال : فيلتنفث إلى عمله فيقول : و الله إنني كنت فيك لزاهداً و إن كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك ؟ فيقول : أنا قرينك في قبرك و يوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربك قال : فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً و أحسنهم منظراً و أحسنهم رياشاً ^(٢) فقال : أبشر بروح و ريحان و جنة نعيم و مقدمك خير مقدم ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح المرتحل من الدنيا

(١) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٤٠ مع اختلاف والعاكم في المستدرك وقال صحيح

وراجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٦٧ أورده باختلاف كثير .

(٢) الرياش - بكسر الراء المهملة - : اللباس الفاخر .

إلى الجنة . وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا أدخل قبره أتاه ملكا .
 القبر يجر أن أشعارهما ويخدّان الأرض بأقدامهما ، أصواتهما كالرعد القاصف و
 أبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول
 الله ربّي و ديني الاسلام ونبيّي محمّد فيقولان له : ثبّتك الله فيما تحبّ و ترضى وهو
 قول الله عزّ وجلّ : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي
 الآخرة » (١) ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنة ، ثمّ يقولان
 له : نم قرير العين نوم الشباب الناعم فإنّ الله يقول : « أصحاب الجنة يومئذ خير
 مستقراً وأحسن مقيلاً » (٢) قال : وإذا كان لربّه عدواً فإنّه يأتيه أقبح من خلق
 الله زيباً ورؤياً وأنتنه ريحاً فيقول له : أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم (٣) وأنّه
 ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أدخل القبر ، أتاه ممتحنا القبر فألقى عنه
 أكفانه ثمّ يقولان له من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لأدري فيقولان :
 لادريت ولا هديت ، فيضربان يافوخه (٤) بمرزبة (٥) معهما ضربة ما خلق الله من دابة
 إلّا وتذعر لها ما خلا الثقلين (٥) ثمّ يفتحان له باباً إلى النار يقولان له : نم بشر
 حال ، فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزج (٦) حتّى أن دماغه ليخرج من بين

(١) إبراهيم : ٢٦ .

(٢) الفرقان : ٢٦ . وقوله : « مستقراً » أى مكاناً يستقر فيه . وقوله : « مقيلاً »

من القيلولة وهى عند العرب الاستراحة نصف النهار .

(٣) النزول : ما يعد للضيف النازل على الانسان من الطعام والشراب والحميم ما

يسقى منه أهل النار . والتصلية : التلويح على النار ، وفى مجمع البيان وتصلية جحيم ادخال
 نار عظيم .

(٤) « يافوخه » - بالياء المشاء التحتانية وآخره خاء معجمة - : الموضع الذى

يتحرك من رأس الطفل اذا كان قريب العهد من الولادة . والمرزبة - بتشديد الباء وتخفيفها - :
 عصا كبيرة من حديد تتخذ لتكسير المدر وقد تقدم .

(٥) تذعر أى تفرع . والثقلين : الجن والانس .

(٦) القنا - بفتح القاف - : جمع القناة وهى الرمح . والزج : العديدة التى فى

أسفل الرمح .

ظفره و لحمه ، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهو أمّها فتنهشه حتّى يبعثه الله من قبره (١) .

قال أبو حامد : قال النبي ﷺ : « للمؤمن في قبره روضة خضراء ويرحّب له في قبره سبعين ذراعاً و يضيء حتّى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرّون فيما ذا أنزلت » فإنّ له معيشة ضنكاً ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : عذاب الكافر في قبره يسلّط عليه تسعة وتسعون تنّيناً ، هل تدرّون ما التنّين تسع وتسعون حيّة لكلّ حيّة سبعة رؤوس يخذشونه و يلحسونه و ينفخون في جسمه إلى يوم القيامة (٢) .

و لا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد على الخصوص فإنّ أعداد هذه الحيّات و العقارب بقدر أعداد الأخلاق المذمومة من الكبر و الرّياء و الحسد و الغلّ و الحقد و ساير الصّفات فإنّ لها أصولاً معدودة ، ثمّ تنشعب منها فروع معدودة ، ثمّ تنقسم فروعها بأقسام و تلك الصّفات بأعيانها هي المهلكات و هي بأعيانها تنقلب عقارب و حيّات فالقويّ منها يلدغ لدغ التنّين و الضعيف تلدغ لدغ العقرب ، و ما بينهما يؤذّي إيذاء الحيّة ، و أرباب القلوب و البصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات و انشعاب فروعها إلّا أنّ مقدار عددها لا يوقف عليه إلّا بنور النبوة فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة و أسرار خفيّة و لكنّها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقلّ درجات الإيمان التّصديق والتّسليم ، فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة و نراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التّصديق على خلاف المشاهدة ، فاعلم أنّ لك ثلاثة مقامات في التّصديق بأمثال هذا أحدها و هو الأظهر و الأوضح و الأسلم أن تصدّق بأنّها موجودة و أنّها تلدغ الميّت و لكنّك لا تشاهد ذلك فإنّ هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتيّة و كلّ ما يتعلّق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصّحابة كيف كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل و ما كانوا يشاهدونه ، و يؤمنون بأنّه ﷺ

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٣١ تحت رقم ١ .

(٢) أخرجه أبو يعلى و فيه دراج وحديثه حسن كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٥ .

يشاهده فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحیح أصل الايمان بالملائكة و الوحي ، أهم عليك و إن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ﷺ ما لا تشاهده الأمة فكيف لاتجوز هذا في الميّت ، وكما أن الملك لا يشبه الأدميين و الحيوانات فالحيّات و العقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيّات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى . المقام الثاني أن تتذكّر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حيّة تلدغه وهو يتألّم بذلك حتّى تراه في نومه يصيح و يعرق جبينه و قد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه و يتأذّى به كما يتأذّى اليقظان و هو يشاهده و أنت ترى ظاهره ساكناً و لا ترى باطنه ولا ترى حواليه حيّة و لا عقرباً و الحيّة موجودة في حقّه و العذاب حاصل به و لكنّه في حقك غير مشاهد و إذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حيّة تتخيّل أو تشاهد . المقام الثالث أنك تعلم أن الحيّة بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها و هو السمّ ثمّ السمّ ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السمّ فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سمّ لكن العذاب قد نزل و لكن لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلّا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة فإنّه لو خلق في الإنسان لذّة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلّا بإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلًا و إن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآم لدغ الحيّات من غير وجود حيّات و انقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق فإنّه كان لذيداً فطرات حالة صار اللذيد بنفسه مؤلماً حتّى نزل بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنّى معه أنّه ليته لم يكن قد تنعمّ بالعشق و الوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميّت فإنّه قد سلّط العشق في الدّنيا على نفسه فصار يعشق ماله و عقاره و جاهه و ولده و أقاربه و معارفه ، و لو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه و يشتدّ عذابه ، و يتمنّى و يقول : ليته لم يكن لي

مالٌ قطُّ ولا جاء قطُّ فكنت لا أتأذى بفراقه ، فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنياوية كلها دفعة واحدة .

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد
فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فنؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله فإن حب غير الله يحجب عن لقاء الله والتمتع به فيمتوالى عليه ألم الفراق لجميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبداً لا يباد وذل الرَّد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو الذي يهذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى : «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» ثم إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ^(١) وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها ، وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصّوارف ، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبداً لا يباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن يلدغه عقرب أثر الصبر على لدغ العقرب فإن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ عقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه فليستعد لهذه المّدغات فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله ولده وأحبّاءه ومعارفه يأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويبيّس عن رجوع جميع ذلك إليه فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات لأننا قد بيّنا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لأنّه في الحياة يتسلّى عنها بأسباب يشغل بها حواسّه من مجالسة ومحادثة ويتسلّى برجاء العود إليه ويتسلّى برجاء العوض منه ، ولا سلوة بعد الموت إذ قد انسد عليه طرق التسلّي وحصل اليأس ، فإذا كلّ قميص له ومنديل وغيره مما كان قد أحبه بحيث كان يشق

عليه لو أخذ منه فإنّه يبقى متأسفاً عليه و معذّباً به ، فإن كان مخفّفاً في الدنيا سلم و هو المعنى بقولهم « نجا المخفّون » و إن كان مثقلاً عظم عذابه ، و كما أن حال من سرق منه دينار أخفّ من حال من سرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخفّ من حال صاحب الدرهمين ، وهو المعنى بقوله وَاللَّهُ يَكْفِيكَ : « صاحب الدرهم أخفّ حساباً من صاحب الدرهمين » ^(١) و ما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلّا و هو حسرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكثر و إن شئت فاستقل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلّا من الحسرة و إن استقلت فلست تخفّ إلّا ظهرك و إنّما تكثر الحيات و العقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة و فرحوا بها و اطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر و عقابه و في سائر أنواع عذابه ، رأى أبو سعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام فقال له : يا بني عظمي قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بني زدني قال : يا أبة لا تطيق ، قال : بلى ، قال : لا تجعل بينك وبين الله قميصاً ، قال : فما لبس قميصاً ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاثة ؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلّا الأوّل و أنكر ما بعده ، و منهم من أنكر الأوّل و أثبت الثاني ، و منهم من لم يثبت إلّا الثالث ، و إنّما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كلّ ذلك في حيز الإمكان و أن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته و جهله بالتساع قدرة الله سبحانه و عجائب تدبيره فينكر من أفعال الله ما لم يأنس به و لم يألفه و ذلك جهلٌ و قصورٌ بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة و التصديق بها واجب و ربّ عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع و ربّ عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب القبر قليله و كثيره هذا هو الحق فصدّق به تقليداً ، فيعزّ على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً ، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيف ما كان ، فإن

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وحبسه ليقطع يده و يجدع أنفه فأخذ طول الليل يتفكّر في أنّه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ، و أهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه و هذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أنّ العبد بعد الموت لا تخلو عن عذاب عظيم أو عن نعيم عظيم فينبغي أن يكون الاستعداد له ، فأما البحث عن تفصيل العقاب و الثواب ففضول محض و تضييع زمان .

﴿ بيان سؤال منكرو و نكير و صورتهم و ضغطة القبر و بقية ﴾

﴿ القول فى عذاب القبر ﴾

قال النبي ﷺ : « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكرو و للآخر نكير فيقولان له : ما كنت تقول في النبي ؟ فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله و رسوله أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن محمداً رسول الله ، فيقولان : إننا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك ، ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً و ينور له في قبره ، ثمّ يقال له : نم فيقول : نم فيقول : دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقال له : نم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك و إن كان منافقاً فقال : لأدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً و كنت أقوله ، فيقولان : إننا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك ، ثمّ يقال للأرض : النثمي عليه فتلتئم عليه حتّى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معدّاً حتّى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك (١) » .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام و قد مرّ ذكره و فيه عن الصادق عليه السلام قال : « يجيئ الملكان منكرو و نكير إلى الميت

(١) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ٢٩٣ . و قوله « تختلف أضلاعه » أى يقرب كل جانب من القبر الى الجانب الآخر فيضمه و يعصره . وقال الزبيدى فى الترغيب : العروس يطلق على الرجل وعلى المرأة مادام فى أعراسهما .

حين يدفن أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يخطآن الأرض^(١) بأنيا بهما ويطئان^(٢) في شعورهما فيسألان عن الميّت من ربك ؟ وما دينك ؟ قال : فإذا كان مؤمناً قال : الله ربّي و ديني الاسلام فيقولان له : ما تقول في هذا الرّجل الذي خرج بين ظهرا نيككم^(٣) ؟ فيقول : أعنّ رسول الله تسألاني ؟ فيقولان له : تشهد أنّه رسول الله ؟ فيقول : أشهد أنّه رسول الله ، فيقولان له : نم نومة لا حلم فيها و يفسح له في قبرة تسعة أذرع و يفتح له باب إلى الجنّة و يرى مقعده فيها ، وإذا كان الرّجل كافراً دخلا عليه و أقيم الشيطان بين يديه عيناه من نحاس فيقولان له : ممن ربك ؟ وما دينك ؟ وما تقول في هذا الرّجل الذي قد خرج من بين ظهرا نيككم فيقول : لا أدري ، فيخلمان بينه وبين الشيطان . ويسلّط عليه في قبره تسعة وتسعين تمّيناً لو أنّ تمّيناً^(٤) واحداً منها نفخ على الأرض ما أنبت شجرة أبداً ، و يفتح له باب إلى النار و يرى مقعده فيها^(٥) .

وعنه عليه السلام « لا يسأل في القبر إلّا من محض الايمان محضاً أو محض الكفر محضاً و الآخرون يلهون عنهم^(٦) » .

قال أبو حامد : وعن عطاء بن يسار قال : قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب

(١) في بعض نسخ المصدر [يغدان] أى يشقان الارض .

(٢) في بعض نسخ المصدر [يطئان] من الوطئ - كالرعد - بمعنى يضربان أرجلهم على الارض ضرباً شديداً .

(٣) ظهران - بفتح المعجمة وآخره النون - وفي حديث الائمة « نتقلب في الارض بين أظهركم » أى فى أوساطكم ومثله أقاموا بين ظهرا نيكهم و بين أظهرهم أى بينهم على سبيل الاستظهار والاستناد اليهم . (مجمع البحرين)

(٤) التّنين - كسكين - : حية عظيمة .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٧ .

(٦) « محض الايمان » على صيغة الفعل أى أخلص الايمان ويحتمل أن يكون بصيغة المصدر أى لا يسأل الا من الايمان والكفر ولعل الاول أظهر ؛ و الخبر فى الكافى ج ٣ ص ٢٣٥ تحت رقم ١ .

«يا عمر كيف بك إذا أنت مت؟ فانطلق بك قومك فقاوسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع و شبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكنفوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنونك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتاناً القبر منكراً ونكيراً، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان التراب بأنبياءهما فتمتلاك وترتراك^(١) كيف بك عند ذلك يا عمر؟ فقال: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: نعم. قال: إذا أ كفيكما^(٢)» وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان في حياته لا يتغير من عقله شيء، وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هوشي، باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء، ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ، ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت فإن ذلك الجزء لا يحلله الموت ولا يطرء عليه العدم.

أقول: ثم ذكر أبو حامد أخباراً في ضغطة القبر واكتناف الأعمال الصالحة بالمؤمن في قبره وإعانتها له ونسبهما إلى من لا يوثق به وإيته ونحن نطوي ما ذكره ونرويها من طريق الخاصة.

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «يسئل وهو مضغوط^(٣)». و سئل عليه السلام «أيفلت^(٤) من ضغطة القبر أحد؟ قال: نعوذ بالله منها ما أقل من يفلت من ضغطة القبر إن رقية لما قتلها عثمان وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبرها فرفع رأسه إلى السماء فدمعت عيناه وقال للناس: إنني ذكرت هذه وما لقيت فرققت لها فاستوهبتها من ضمة القبر قال: فقال: اللهم هب لي رقية من ضمة

(١) التلتلة والترترة: التحريك.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (المعنى).

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٥.

(٤) من الإفلات أى بخلص.

القبر فوهبها الله له ، قال : و إن رسول الله ﷺ خرج في جنازة سعد و قد شيعه سبعون ألف ملك فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء ، ثم قال : مثل سعد يضم قال الراوي قلت : جعلت فداك إننا نحدث أنه كان يستخف بالبول فقال معاذ الله إنما كان من زعارة (١) في خلقه على أهله (٢) .

و روى عمر بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « إنني سمعتك وأنت تقول كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم ؟ قال : صدقتك كلهم والله في الجنة ، قال : قلت : جعلت فداك إن الذنوب كثيرة كبار ؟ فقال أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعتي النبي المطاع أو وصي النبي ولكنني والله أتخوف عليكم في البرزخ ، قلت : وما البرزخ ؟ قال : القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة (٣) » .

و عن الباقر عليه السلام « إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه و الزكاة عن يساره و البر يظل عليه ويتنحى الصبر ناحية وإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مسائلته قال الصبر للصلاة و الزكاة : دونكما صاحبكما فإن عجزتما عنه فأنا دونه (٤) » .

❦ (الباب الثامن) ❦

(فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

إعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله و سنة رسوله و من مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة و انقسامهم إلى سعداء و أشقياء ، ولكن حال زيد و عمرو بعينه فلا ينكشف به أصلاً فإننا إن عوّلنا على إيمان زيد و عمرو فلا ندري على ماذا مات و كيف ختم له ، و إن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محلّه القلب و هو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره

(١) الزعارة - بتشديد الراء و تخفيفها - شراسة الخلق . والرجل شرس أى سبى الخلق .

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٦ .

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٣ .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٠ تحت رقم ١٣ ، رواه عن الصادق عليه السلام .

فلا حكم لظاهر الصّلاح دون التقوى الباطن ، قال الله تعالى : « إنّما يتقبل الله من المتّقين ^(١) » فلا يمكن معرفة حكم زيد و عمرو إلّا بمشاهدته و مساعدة ما يجري عليه ، و إذا مات فقد تحوّل من عالم الملك و الشهادة إلى عالم الغيب و الملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة و إنّما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كلّ إنسان و لكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته و أشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه و لمّا كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى عالم الملكوت و شاهدوا عجائبه و الموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم و أخبروا عنهم و لذلك رأى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ضغطة القبر في حقّ سعد بن معاذ و في حقّ زينب ابنته ^(٢) و كذلك حال أبي جابر لمّا استشهد إذ أخبر أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر و مثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء و الأولياء الذين تقرب درجتهم منهم و إنّما الممكن من أمثاله مشاهدة أخرى ضعيفة إلّا أنّها أيضاً مشاهدة نبوية و أعني بها المشاهدة في المنام و هو أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءاً من النبوة ^(٣) » و هو أيضاً انكشاف لا يحصل إلّا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلّا برؤيا الرّجل الصّالح الصادق و من كثر كذبه لم تصدق رؤياه و من كثر فساد و معاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام و لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً و هو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل و طهارة الظاهر بمنزلة التمتّة و التكملة لها و مهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكّة لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في النوم حتّى نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ^(٤) » و قلّ ما يخلو الإنسان عن منامات دلّت على

(١) المائدة : ٣٠ . (٢) كذا .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ وابن ماجه تحت رقم ٣٨٩٥ .

(٤) الفتح : ٢٧ .

أُمور فوجدتها صحيحة ، و الرؤيا و معرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى و بدائع فطرة الآدمي و هو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت و الخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب و عجائب العالم الملكوتي و القول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة و لكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، و هو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراعى فيها الصور و حقايق الأمور وأن كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور و مثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح و تارة بالكتاب المبين و تارة بإمام مبين كما ورد في القرآن فجميع ما يجري في العالم و ما سيجري مكتوب فيه و منقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين ، و لا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم و أن الكتاب من كاغذ أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق و كتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته و صفاته لا تشبه ذات الخلق و صفاتهم ، بل إن كنت تطلب له مثلاً يقرّ به إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح المحفوظ يضاهي ثبوت كلمات القرآن و حروفه في دماغ حافظ القرآن و قلبه فإنّه مسطور فيه حتى كأنّه حيث يقرأ ينظر إليه و لو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخطّ حرفاً و إن كان هناك خطّ يشاهد ولا حرف ينظر ، فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى و قضاه . و اللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصّور فلو وضع في مقابلة المرأة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرأة تتراعى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلوم و اللوح مرآة رسوم العلوم كلّها و العلوم كلّها موجودة فيه و اشتغال القلب بشهواته و مقتضى حواسه حجاب مرسل بينه و بين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت فإن هبت ريح حرّ كت هذا الحجاب و رفعته تلاً في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، و قد يثبت و يدوم و قد لا يدوم و هو الغالب و مادام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك

والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، و معنى النوم أن تر كد الحواس عليه فلا تورد على القلب فإذ اتخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع لسائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحرُّكه فما يقع في القلب يتبدَّرُه الخيال فيحيا كيه بمثال يقاربه وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يمتدَّ كَرُّ إلا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيَّل والمعاني ، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير ويكشف في ذلك مثال واحد وهو أن رجلاً قال لابن سيرين : رأيت كأنَّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرِّجال و فزوج النساء ؟ فقال : أنت مؤذَّن تؤذَّن قبل الصَّبح في رمضان فقال : صدقت ، فانظر أن روح الختم هو المانع ولا جلّه يراد الختم وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألف المانع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية . فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا التي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنَّه يشبهه من وجه ضعيف في أثر في كشف العظام عن عالم الغيب حتَّى صار للنائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتَّى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إمَّا محفوفة بالأنكال و المخازي والقضائح - نعوذ بالله من ذلك - وإمَّا محفوفة بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ^(١) » و يقال : « أفسحُ هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنتما تجزون ما كنتم تعملون ^(٢) »

و إليهم الإشارة بقوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »^(١) .
فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات
ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره ، فلو لم يكن للعقل هم ولاغم إلا الفكرة
في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذا يرتفع وماذا الذي ينكشف عنه الغطاء من
شقاوة لازمة أو سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر ، والعجب من
غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا
و ذرياتنا بل بأعضائنا و سمعنا و بصرنا مع أننا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً ولكن
أين من ينقث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيّد النبيّين « أحبب ما أحببت
فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت . فإنك مجزي به »^(٢) .
فلأجزم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل ، لم
يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ، وقد قال لامّته :
« إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله »^(٣) وإنما أمّته من اتّبعه وما اتّبعه إلا
من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فإنّه مادعاً إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف
إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد
سلكت سبيله الذي سلكه ، وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتّبعته ، وبقدر ما اتّبعه صرت
من أمّته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها ، والتحقّت
بالذين قال تعالى فيهم : « وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى »^(٤) ،
فلو خرجت من مكن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل - وكلنا ذلك الرّجل - لعلمت
أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تنحرك ولا
لا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثمّ تطمع في أن تكون غداً من أمّته وأتباعه ، ما أبعد
ظنك وما أبعد طمعك « أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » و
لنرجع إلى ما كنّا فيه و بصديده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) تقدم غير مرة و رواه الصدوق في الفقيه .

(٣) آل عمران : ٣١ . (٤) النازعات . ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ .

الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت المبدشّرات و ليس ذلك إلاّ المنامات .

﴿ بيان منامات تكشف عن احوال الموتى و الاعمال النافعة ﴾
 ﴿ في الاخرة ﴾

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ فقد قال ﷺ : « من رأى في المنام فقد رأى حقاً ، فانّ الشيطان لا يتمثل بي » (١) .

أقول: ثم ذكر أبو حامد جملة من منامات الناس للموتى منها ما تضمن بيان أحوالهم في الآخرة أو بيان ما ينتفع به من الأعمال فيها ، ومنها ما لم يتضمن شيئاً منهما بل هو مجرد قصة مناميّة أمّا الثاني فلا مدخل له فيما هو بصده أصلاً و أمّا الأوّل فلا وثوق بشي، منه لأنّ النبي ﷺ إنّما قال : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٢) و ليس كلّ رؤيا صالحة فإنّ الرؤيا إنّما تكون بحسب حال الرائي في اعتقاده و قدر معرفته بما يراه و بحسب خلقه و عمله و غذائه و بقدر صدقه و طهارته ظاهر أو باطناً ، فربما يكون المرائي معتقداً خلاف الحقّ في الله سبحانه أو في شيء من صفاته أو في رسوله أو في أمامه الذي يجب عليه اتّباعه ، أو يكون صاحب بدعة في الدّين ، أو يكون ممّن يكسر كذبه و فساده و معاصيه و أكله للحرام و غير ذلك ممّا يوجب ظلمة قلبه ، فكان ما يراه أضغاث أحلام كما مرّ في كلام أبي حامد أنّه لا وثوق بمنام من هذا حاله أو كان اعتقاده فيمن يراه في المنام على خلاف ما هو به فيراه بحسب ما يوافق اعتقاده فيه وهذا ممّا يقع كثيراً فلا وثوق بالرؤيا إلاّ إذا عرف براءة من رآها من جميع ذلك وقد ورد عن النبي ﷺ « كما تعيشون تنامون و كما تستيقظون تبعثون » (٣) ثمّ من نسب أبو حامد إليه الرؤيا ممّا يناسب ما هو بصده بين منافق من الصحابة و موال له و لأمثاله و رجال يعرفون بالبدع و الاعتقادات الفاسدة في الدّين و من لا يعرف

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ . (٢) تقدم آنفاً .

(٣) قاله ﷺ في يوم الازدار . وفي اعتقادات صدوق ص ٨٥ نحوه .

حاله وعقيدته ومن كان يعتقده فيمن يراه في المنام خلاف ما هو به فلا فائدة في إيراد شيء من ذلك فلنطوها طياً ، ثم ما ذكره من حديث النبي ﷺ لتمهيد ما أورده من قوله ﷺ : « من رأى في المنام فقد رأىني » فليس معناه أنه من رأى صورة إنسان في منامه فوقع في وهمه أو قيل له : إنه النبي ﷺ فقد رأى النبي أي صورة كانت بل معناه أنه من رآه بصورته التي كان عليها في الدنيا بحليته المباركة فقد رآه فإن الشيطان لا يتمثل بتلك الهيئة والحلية فرويته ﷺ في المنام وإنما تصح لمن رآه في حياته وعرفه بحليته التي كان عليها ، ثم رآه في المنام بتلك الحلية بعينها دون من لم يره وإنما سمع به ، لجواز أن يتمثل الشيطان بصورة غير صورته ثم أوقع في وهم هذا الرائي أنه هو ، وهذا واضح بحمد الله .

السطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميِّت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار و تفصيل ما بين يديه من الأحوال والأخطار وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أرض المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ، وصفة المسائلة عن الذنوب وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض ، وصفة جهنم وأحوالها وأنكالها ، وحياتها وعقاربها ، وصفة الجنة ، وأصناف نعيمها ، وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها ، وأنهارها وأشجارها ، ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم وشرابهم ، وصفة حور العين والولدان . وباب في سعة رحمة الله به نختم الكتاب إن شاء الله .

❖ (صفة نفخ الصور) ❖

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميِّت في سكرات الموت و خطر خوف العقابة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه ، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير والنكير والقطمير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم مجاوزة الصراط مع رقته وحدته ، ثم

انتظار النداء عند فصل القضاء، إمّا بالإسعاد وإمّا بالإشقاء فهذه أحوال وأحوال لا بدّ لك من معرفتها، ثمّ الإيمان بهاعلى سبيل الجزم والتصديق، ثمّ تطويل الفكر فيها لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدهاء أفئدتهم ويدلّ على ذلك شدة تشمّسهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنّم وزمهرير هامع ما يكتنفه من المصاعب والأحوال، نعم إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقوا به ألسنتهم ثمّ غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأنّ ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره: صدقت ثمّ مدّ يده إليه ليتناوله كان مصداقاً بلسانه ومكذباً بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ قال الله تعالى: «شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني، أمّا شتمه إياي فيقول: إن لي ولداً، وأمّا تكذيبه فقلوله لن يعيدني كما بداني^(١)» وإنّما فتور البواطن عن قوّة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلّة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور، ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له: إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصوّر العاقل المتكلّم المتصرّف لاشتدّ نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى: «أولم ير الإنسان أنّنا خلقناه من نطفة فأذا هو خصيم مبين^(٢)». وقال تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى^(٣) ألم يك نطفة من مني يمّنى^(٤)» ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله وحكمته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقوّة الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإنّ الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قويّ الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكّر والاعتبار ليتسلّب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالشمّس للعرض على الجبّار، وتفكّر أوّلاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ١٢٩ من حديث أبي هريرة .

(٢) القيامة: ٣٦ و ٣٧ .

(٣) يس: ٧٧ .

فإنما صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوههم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدة الصعقة شاخص العينين نحو النداء ، وقدثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاهم وقد أعجمهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عليهم من الغموم والهموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ^(١) » وقال : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ^(٢) » وقال تعالى : « فإذا نقر في الناقور ^(٣) فذلك يومئذ يوم عسير ^(٤) » وقال تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ^(٥) ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ^(٦) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ^(٧) ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ^(٨) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ^(٩) » فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله ، وهو بعض الملائكة ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ، وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ ^(١٠) » قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرافيل ، وأضع فاه على القرن كهيمة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر أن ينفخ النفخة الأولى « فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض » أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، ثم يأمر ملك

(١) الزمر : ٦٨ .

(٢) المؤمنون : ١٠٢ .

(٣) المدثر : ٨ و ٩ .

(٤) يس : ٤٨ - إلى - ٥٣ .

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٦١ بأدنى اختلاف ورواه أحمد والطبراني واللفظ

له و رجاله وثقوا على ضعف فيهم . كما في المجموع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٠ .

الموت أن يقبض روح جبرئيل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله : « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » أي قيام علي أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله ﷺ « حين نعت أمر صاحب الصور ^(١) : فأهوى به إلى فيه وقدم رجلاً وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة ^(٢) » فتفكر في الخلائق وذللهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه النفخة وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من المترفين والاغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذل أهل الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذرّ وعند ذلك يقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حيرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى : « وإذا الوحوش حشرت ^(٣) » ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى : « فوربّك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جنياً ^(٤) » فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

(١) في أكثر نسخ الاحياء هكذا « قال صلى الله عليه وآله : حين بعث بعث إلى صاحب الصور فأهوى الخ » وقال العراقي : لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق ، وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ ، وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة « أن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص يبصره إلى العرش منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » واسنادها جيد .

(٢) التكوير : ٦ .

(٣) مريم : ٦٨ .

﴿ صفة ارض المحشر وأهله ﴾

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ولا ترى عليها ربوة ^(١) يخنفي الإنسان وراءها ، ولا وهدة ^(٢) ينخفض عن العين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالرأجفة تتبعها الرأدفة ، والرأجفة هي النفخة الأولى ، والرأدفة هي الثانية ، وتحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ^(٣) ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص نقي ليس فيها معلم لأحد ^(٤) » قال الراوي : العفرة بياض ليس بالناصع ، والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ، ولا معلم أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم ، قال الله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ^(٥) » قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظي ^(٦) أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة فالسموات تذهب بشمسها وقمرها ونجومها ، فانظر يا مسكين في هول القيامة وشدته فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تنأثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس القمر والشمس وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق

(١) القاع : أرض سهلة مطمئة . والصفصف : المستوى من الأرض . و « لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً » أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً . والربوة : المرتفع من الأرض .

(٢) الوهدة - كالوردة - : المكان المطمئن .

(٣) الواجفة : المضطربة .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٢٧ . والبخاري ج ٨ ص ١٣٥ .

(٥) إبراهيم : ٤٨ .

(٦) عكاظ اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون بها في كل سنة فيقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون ، وأديم عكاظي منسوب إليها .

رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتهما و أرجاءها^(١) فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تتخالطها صفرة فصارت وردة كالدّهان^(٢) و صارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن^(٣) و اشتبك الناس كالفرش المبعوث وهم عراة حفاة مشاة ، قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة عزلاً^(٤) قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ راوية الحديث قلت : يا رسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ قال : قد شغل الناس عن ذلك ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^(٥) » .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده عن سيّد العابدين عليه السلام أنه قال : « حدّثنى أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدث الناس قال : إذا كان يوم القيامة بعث الله تعالى الناس من حفرهم عزلاً بهمأ جرداً سرداً في صعيد واحد ، يسوقهم النور و تجمعهم الظلمة^(٦) حتّى يقفوا على عقبة المحشر فيركب

(١) حافتا النهر : جانباها والارحاء الاطراف .

(٢) قوله « وردة » أى مثلها محمرة كالدّهان أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها .

(٣) العهن : الصوف المصبوغ .

(٤) فى النهاية النور - بالعين المعجمة والراء المهملة - جمع الاغرل وهو الاغلف . و سيأتى عن قريب عن الكافى بالعين المهملة والزاي المعجمة كما ضبطه جميع شراح الكافى .
(٥) رواه الطبرانى و رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٣ .

(٦) عزلاً : لا سلاح لهم - بضم العين وسكون الزاي - جمع اعزل وكذلك اخواته ، « بهما » أى ليس معهم شىء و قيل : يعنى أصحاب لا آفة بهم ولا عاةة وليس بشىء ، « جرداً » لا ثياب لهم ، « مردأ » ليس لهم لحية وهذه كلها كناية عن تجردهم عما يباينهم و يقطيهم و يخفى حقائقهم مما كان معهم فى الدنيا ، « يسوقهم النور » أى نور الايمان والشرع فانه سبب ترقيقهم طوراً بعد طور . وفى بعض النسخ [بالنار] أى نار التكليف فان التكليف بالنسبة الى بعض المكلفين نار وبلاضافة الى آخرين نور ، « يجمعهم الظلمة » أى ما يمنهم ←

بعضهم بعضاً و يزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم و يكثر عرقهم و تضيق لهم أُمورهم و تشتد ضجيجهم^(١) و ترتفع أصواتهم قال : و هو أوّل هول من أهوال يوم القيامة . قال : فيشرف الجبار تعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة^(٢) فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم يامعشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبار قال : فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم قال : فتتكسر أصواتهم عند ذلك و تخشع أبصارهم و تضطرب فرائصهم^(٣) و تفزع قلوبهم و ترفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الدّاع^(٤) قال : فعند ذلك يقول الكافر : « هذا يوم عسر^(٥) » قال : فيشرف الجبار تعالى ذكره الحكم العدل عليهم فيقول : أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور ، اليوم أحكم بينكم بعدلي و قسطي لا يظلم اليوم عندي أحد ، اليوم آخذ للضعيف من القوي بحقه و لصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات و السيئات و أثيب على الهبات^(٦) و لا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم و لأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها صاحبها و أثيبه عليها و آخذ له بها عند الحساب ، و تلازموا أيّها الخلائق واطلبوا مظالمكم عندهم ظلمكم بها في الدنيا وأنا شاهد لكم عليهم و كفى بي شهيداً .

قال : فيتعارفون ويتلازمون فلا يبقى أحد له عند أحد مظلمة أو حق إلا ألزمه

« من تمام النور والايقان فانه سبب تباينهم الموجب لكثرتهم التي يتفرع عليها الجمعية و يحتمل أن يكون المراد « كلما أضاء لهم مشوافيه وإذا أظلم عليهم قاموا » والمعنيان متقاربان . و هذا كلام المؤلف - رحمه الله - في الوافي .

(١) أي صياحهم و أصواتهم .

(٢) يمكن أن يكون اشراف الله تعالى كناية عن توجهه الى محاسبتهم فالاشراف في حقه مجاز وفي الملائكة حقيقة .

(٣) أي أوداج أعناقهم ، قال الفيروز آبادي : الفريس : أوداج العنق و الفريضة واحدته واللاحمة بين الجنب والكتف التي لا تزال ترعد .

(٤) أي يمدون أعناقهم لسماع صوته . مهطعين أي مسرعين . واهطع ؛ اذا مدعته .

(٥) القمر : ٨ . (٦) أي هبات المظالم و ابراء الذمم .

بها قال : فيمكنون ما شاء الله فيشتد حالهم و يكثرون عرقهم ^(١) و يشتد غمهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد فيتمنون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها ، قال : ويطلع الله على جهدهم ^(٢) فينادي مناد من عند الله تعالى يسمع آخرهم كما يسمع أولهم يا معشر الخلائق أنصتوا لداعي الله تعالى و اسمعوا أن الله تعالى يقول : أنا الوهاب إن أحببتهم أن تواهبوا فتواهبوا وإن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم ، قال : فيفرحون بذلك لشدة جهدهم و ضيق مسلكهم و تراجهم ، قال : فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلصوا مما هم فيه ويبقى بعضهم فيقول : يارب مظالمنا أعظم من أن نهبها قال : فينادي مناد من تلقاء العرش أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس قال : فيأمره الله أن يطلع ^(٣) من الفردوس قصرأ من فضة بما فيه من الأبنية و الخدم ، قال : فيطلعه عليهم في حفاة القصر الوصائف والخدم ^(٤) قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يا معشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر ، قال : فيرفعون رؤوسهم و كلهم يتمناه ، قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يا معشر الخلائق هذا لكل من عفا عن مؤمن ، قال : فيعفون كلهم إلا القليل ، قال : فيقول الله تعالى : لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالم و لا يجوز إلى ناري اليوم ظالم و لأحد من المسلمين عنده مظلمة حتّى يأخذها منه عند الحساب أيّها الخلائق استعدوا للحساب ، قال : ثمّ يخلى ، سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرّد بعضهم بعضاً ^(٥) حتّى ينتهوا إلى العرصة والجبارتعالى

(١) لما رأوا من شغل ذمهم بالمظالم وترددهم في ابراء خصمائهم من مظالمهم أو أخذهم بها لجهلهم .

(٢) يعنى انهم يطلعون و قنند على اطلاع الله على مشقتهم والا فان الله سبحانه لم يزل مطلعاً على السرائر والعلن .

(٣) من باب الافعال أى يظهره لهم .

(٤) «حفاة القصر» أى جوانبه . والوصائف والخدم من باب عطف أحد المترادفين

على الآخر والخدم أعم من الاناث .

(٥) الكرد : الطرد والدفع .

على العرش ^(١) قد نشرت الدواوين و نصبت الموازين وأحضر النبيون و الشهداء و هم الأئمة يشهد كل إمام على أهل عالمه بأنه قد قام فيهم بأمر الله تعالى ودعاهم إلى سبيل الله قال (الرؤاوي) فقال : له رجل من قریش یا ابن رسول الله إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر مظلمة أي شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار قال : فقال له عاي بن الحسين عليه السلام : يطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ماله على الكافر فيعذب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة ، قال : فقال له القرشي فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم كيف تؤخذ مظلمته من المسلم ؟ قال : يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حق المظلوم فتناد على حسنات المظلوم ، قال : فقال له القرشي : فإن لم يكن للظالم حسنات ، قال : إن لم يكن للظالم حسنات فإن كان للمظلوم سيئات يؤخذ من سيئات المظلوم فتناد على سيئات الظالم ^(٢) . قال أبو حامد : فأعظم بيوم يكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك من النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم و وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة : قال ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً و مشاة و على وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » ^(٣) وفي طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به فلو لم يشاهد الإنسان الحيّة وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لا نكر تصوير المشي على غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فإنا لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها ، فاحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوراً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء وأعظم بهذه الحالة فإنها عظيمة .

(١) أي مستولى على العرش يأتي أمره من قبل العرش .

(٢) الكافي ج ٨ ص ١٠٤ . (٣) رواه البغوي في المصابيح ج ٢ ص ٢٠٧ .

﴿صفة العرق﴾

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حين ازدحامهم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشیطان ووحش وسبع و طیر وقد أشرفت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها^(١) وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقباب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرَّبون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضحى لحر شمس قد صهرته بحرَّها واشتدَّ كربه وغمَّه من وهجها ثم تدافعت الخلائق يدفع بعضها بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه من شدة الخجلة من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحرها وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم إلى حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه »^(٢).

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ آذانهم » كذا رواها البخاري ومسلم في الصحيح^(٣) وفي حديث آخر « قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء »

(١) هذا لا يلائم قوله تعالى : « إذا الشمس كورت » وقوله تعالى : « وخسف القمر وجمع الشمس والقمر » وقول أبي حاتم أنفاً « وطمس القمر والشمس وأظلمت الأرض لخمودسراجها .. الخ » نعم ورد في الروايات أن القيامة حرها شديد لكن أحكام القيامة وشراطها غير شرائط الدنيا ولا يقاس حرارة الآخرة ونورها بنور الدنيا وحرارتها ومن قاسهما فمن قلة فهمه وعدم تدبره في آيات الله .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٨ ومسلم ج ٨ ص ١٥٧ وأحمد ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣٨ وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٥٨ وفيه زيادة .

فيلجمهم العرق من شدة الكرب»^(١) وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبته، ومنهم من يبلغ خصرته، ومنهم من يبلغ فاه - فأشار بيده فألجمها فاه - ومنهم من يغطي عرقه، وضرب بيده على رأسه هكذا»^(٢).

أقول: وقد مر من طريق الخاصة «أنه يكثر عرقهم» ويأتي أيضاً «أن العرق يلجمهم».

قال أبو حامد: فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر و شدة كربهم وأن فيهم من ينادي ويقول: ربّ أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار فكلّ ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق، و اعلم أن كل عرق لم يخرج به التعب في سبيل الله من حجّ و جهاد و صيام و قيام و تردّد في قضاء حاجة مسلم و تحمّل مشقة في أمر معروف ونهي عن منكر فيستخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمّل مصاعب الطاعات أهون أمراً و أقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانّه يوم عظيم شديد طويل مدته .

❖ (صفة طول يوم القيامة) ❖

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم متفطرة قلوبهم ، لا يتكلّمون ولا ينظر في أمورهم قال كعب و قتادة : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين »^(٣) قالوا : يقومون مقدار ثلاثمائة عام . و قال عبد الله بن عمر : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، ثم قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر

(١) أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود . و نحوه ابن أبي الدنيا و الطبراني عنه أيضاً كما في الترغيب ج ٤ ص ٣٩١ في حديث طويل .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ ص ١٥٧ من حديث عقبة .

(٣) المطففين : ٦ .

إليكم» (١).

أقول: و من طريق الخاصة ما روّيناه عن الصادق عليه السلام في حديث له « فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة » ثمّ تلا « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٢).

و عنه عليه السلام « مثل الناس يوم القيامة إذا قاموا لربّ العالمين مثل السهم في الغرب ليس له من الأرض إلّا موضع قدمه كالسهم في الكنانة لا يقدر أن يزول ههنا ولا ههنا » (٣).

قال أبو حامد: فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتّى يخفّ عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر ، و اعلم أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنّه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما سئل عن طول ذلك اليوم ، فقال : « والذي نفسي بيده إنّه ليخفف على المؤمن حتّى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا » (٤) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك و الاستعداد بيدك فاعمل في أيّام قصار لأيّام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره و استحققر عمرك لأبل عمر الدنيا و هو سبعة آلاف سنة فإنّك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتتخلّص من يوم واحد مقداره خمسون ألف سنة لكان ربحك كثيراً و تعبك يسيراً .

﴿صفة يوم القيامة ودواهيها واساميه﴾

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه القريب

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٥٧٢ و قال : صحيح .

(٢) رواه البغيد في أماليه والشيخ في مجالسه ص ٢٢ من رواية حفص بن غياث عن

الصادق عليه السلام . و روى مثله الكليني في الروضة ص ١٤٣ .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٨ ص ١٤٣ تحت رقم ١١٠ .

(٤) رواه أحمد و أبو يعلى واسناده حسن من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع

الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٧ .

أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، و الكواكب من هولاء قد انتشرت ، والنجوم الزواهر قد انكدت ، و الشمس قد كوَّرت و الجبال قد سيَّرت و العِشَّار قد عطَّلت (١) و الوحوش قد حشرت ، و البحار قد سَجَّرت ، و النِّفوس قد زوَّجت ، و الجحيم قد سعَّرت ، و الجنَّة قد أزلقت ، و الجبال قد نسفت ، و الأرض قد مدَّت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها و أخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر النَّاسُ أَشْتَاتاً ليرُوا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض و الجبال فدكَّنا دكَّةً واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، و انشَقَّت السَّماءُ فهي يومئذ واهية و الملك على أرجائها ، و يحمل عرش ربِّك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير فيه الجبال و ترى الأرض هامدة ، يوم ترجُ فيه الأرض رجاً ، و تبسُّ الجبال بساً فكانت هباءً منبثاً ، يوم يكون النَّاسُ كالفرأش المبثوث ، و تكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كلُّ مرضعة عما أرضعت ، و تضع كلُّ ذات حمل حملها ، و ترى النَّاسُ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات و برزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فنترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً و لأمناً ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرُّ السَّحاب ، يوم تنشقُّ فيه السَّماء فتكون وردة كالدَّهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع العاصي فيه من الكلام و لا يسئل فيه أحدٌ عن الاحترام ، بل يؤخذ بالنواصي و الأقدام ، يوم تجد كلُّ نفس ما علمت من خير محضراً و ما علمت من سوء تودُّ لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً ، يوم يعلم فيه كلُّ نفس ما أُحضرت و يشهد ما قدَّمت و أخَّرت ، يوم تخرس فيه الألسن و تنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيِّد المرسلين إذ قيل له : أراك قد شبت يا رسول الله ، فقال : « شيبتني سورة هود و الواقعة و المرسلات و عمَّ يتساءلون و إذا الشمس كورت (٢) » .

(١) العشار النوق اللاني أتى على حملهن عشرة أشهر ، و عدلت أى فلا يكون

من يحملها .

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم و صححه و قد تقدم .

فيا أيُّها القاري، الغافل إنَّما حظَّك من قراءتك أن تجمع القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكراً فيما تقرأه لكنت جديراً بأن تنشقَّ مہارتك بما شاب من هوله شعر سيّد البشر، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حُرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود تكرير الأسماء والألقاب، بل الغرض تنبيه الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سرٌّ، وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها فهي يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المسائلة، ويوم المسابقة، ويوم المنافسة، ويوم المناقشة، ويوم الزلزلة، ويوم الدُّمعة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الرُّجفة، ويوم الرُّدفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم الطلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المطاب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القسار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرُّجفة، ويوم الرُّجّة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم الجزع، ويوم المنتهى، ويوم المأوي، ويوم الميقات، ويوم المعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم انتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم الوعيد، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلى السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً،

و يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، و يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ، و يوم يسحبون في النار على وجوههم ، و يوم تقلّب وجوههم في النار ، و يوم لا يجزي والد عن ولده شيئاً ، و يوم يفرّ المرء من أخيه ، و يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، و يوم لا مردّ له من الله ، و يوم هم بارزون ، و يوم هم على النار يفتنون ، و يوم لا ينفع مال ولا بنون ، و يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة ، و لهم سوء الدار ، و يوم تردّ فيه المعاذير ، و تبلى السرائر ، و تظهر الضمائر ، و تكشف الأستار ، و يوم تخشع فيه الأبصار ، و تسكن الأصوات ، و يقلّ فيه الالتفات ، و تبرز الخفيات ، و تظهر الخطيئات و الخبيثات ، و يوم يساق العباد و معهم الشهداء و يشيب الصغير و يسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين و نشرت الدّواوين و برزت الجحيم و أغلقت بالرحمة زفرت النار و يؤس الكفّار و سعرت النيران و تغيّرت الألوان و خرس اللسان و نطقت جوارح الإنسان ، فيا أيّها الإنسان ما عزّك بربّك الكريم حيث أغلقت الأبواب و أرحيت الستور و استترت عن الخلائق بمقارفة الفجور فماذا تفعل و قد شهدت عليك جوارحك فالويل كلّ الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله تعالى إلينا سيّد المرسلين و ينزل عليه الكتاب المبين و يخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدّين ثمّ يعرفنا غفلتنا ويقول : « اقترّب للناس حسابهم و هم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلاّ استمعوه و هم يلعبون لاهية قلوبهم »^(١) ثمّ يعرفنا قرب القيامة و يقول : « اقتربت الساعة و انشقّ القمر »^(٢) و يقول : « إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً »^(٣) « و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً »^(٤) ثمّ يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبّر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم و أساميه و لا نستعدّ للتخلّص من دواهيّه فنعوذ بالله من هذه الغفلة فنحن هالكون إن لم يتداركنا الله بواسع الرحمة .

❖ (صفة المسألة) ❖

ثمّ تفكّر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجّه عليك من السّؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والتّغير والتّقطير فبينما أنت في كرب القيامة

(١) الروم : ١ . (٢) القمر : ٢ . (٣) المعارج : ٦ . (٤) الاحزاب : ٦٣ .

وعرقها وشدة عظامها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماوات بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ملكاً ما بين شفري عينيهِ مسيرة خمسمائة عام ^(١) » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم ، مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذون ، فهذا حال المقرئين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفرع فيقولون : للملائكة أفيكم ربنا وذلك لظلم موكبهم وشدة هيبتهم فتفرع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون. فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هوفينا ولكن آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخشوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقنن عليهم بعلم وما كنا غائبين ^(٢) » « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ^(٣) » فيبدأ بالأنبياء وذلك قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ^(٤) » فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم : ماذا أجبتم ؟ وقد أرسلتم إلى الخلائق و كانوا قد علموا ، فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوهم الله تعالى فيدعى نوح فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لاؤمته : هل بلغتكم ؟ فيقولون : ما آتانا من نذير. ويؤتى

(١) قال المزاني : لم أره بهذا اللفظ .

(٢) الاعراف : ٥ و ٦ . (٣) الحجر : ٩٣ و ٩٤ .

(٤) المائدة : ١٠٩ .

بعيسى ﷺ فيقول الله تعالى له : « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ^(١) » فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين فياالعظم يوم يقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ، ثم تقبل الملائكة فتنادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض و عند ذلك ترتعد الفرائص و تضطرب الجوارح و تبتهت العقول ، و يتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار و لاتعرض قبائح أعمالهم على الجبار و لا يكشف سترهم على ملائ الخلائق ، و قبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش و أشرقت الأرض بنور ربها و وضع الكتاب ، و أيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، و ظن كل واحد أنه المراد دون أحد سواه و أنه المقصود بالأخذ و السؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه عند ذلك : يا جبرئيل أئتنني بالنار فجاءه جبرئيل و قال لها : يا جهنم أجيبني خالقك وملكك ، فيصادفها جبرئيل على تعيظها و غضبها ، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت و فارت و زفرت إلى الخلائق و شهقت و سمع الخلائق تغيظها و زفيرها و انتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى و خالف أمره ، فاخطر ببالك و أحضر في قلبك حالة قلوب العباد و قد امتلأت فزعاً و رعباً فتساقطوا جثياً على الركب و ولوا مدبرين « يوم ترى كل أمة جاثية » و سقط بعضهم على الوجوه منكبين و ينادي الظالمون و العصاة بالويل و الشبور ، و ينادي الصديقون نفسي نفسي ، فبيناهم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فيضاعف خوفهم و تخاذلت قواهم و ظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقطت الخلائق لوجوههم و شخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفي ، و انهضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين ، و ذهلت العقول من السعداء و الأشقياء أجمعين ، و بعد ذلك يقبل الله تعالى على الرسل و يقول : « ماذا أجبتكم » .

أقول : و من طريق الخاصة في هذا الباب ما رواه علي بن إبراهيم بإسناد عن أبي جعفر الباقر ﷺ في قوله عز وجل : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » ^(٢)

قال : « إذا كان يوم القيامة وحشر الناس للحساب فيمرون بأهوال يوم القيامة فينتهون إلى العرصة ، ويشرف الجبار عليهم حتى يجهدوا جهداً شديداً قال : يقفون بفناء العرصة ويشرف الجبار عليهم وهو على عرشه فأول من يدعى ببناء يسمع الخلائق أجمعين أن يهتف باسم محمد بن عبدالله النبي القرشي العربي قال : فيقدم حتى يقف على يمين العرش ، قال : ثم يدعى بصاحبكم فيقدم حتى يقف على يسار رسول الله ﷺ ، ثم يدعى بأمة محمد ﷺ فيقفون عن يسار علي ﷺ ، ثم يدعى بكل نبي وأمة معه من أول النبيين إلى آخرهم وأممهم معهم فيقفون عن يسار العرش قال : ثم أول من يدعى للمساءلة القلم قال : فيتقدم فيقف بين يدي الله في صورة الآدميين فيقول الله : هل سطرت في اللوح ما ألهمتك وأمرتك به من الوحي ؟ فيقول القلم : نعم يا رب قد علمت أنني قد سطرت في اللوح ما أمرتني وألهمتني به من وحيك فيقول : الله فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول : يا رب هل اطلع على مكنون سرك خلق غيرك ؟ قال : فيقول له : أفلجت حجبتك ، قال : ثم يدعى باللوح فتقدم في صورة الآدميين حتى يقف مع القلم فيقول له : هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحي ؟ فيقول اللوح : نعم يا رب وبلغته إسرافيل فيدعى بإسرافيل فيتقدم مع القلم واللوح في صورة الآدميين فيقول الله : هل بلغك اللوح ما سطر فيه القلم من وحي ؟ فيقول : نعم يا رب وبلغته جبرئيل ، فيدعى بجبرئيل فتقدم حتى يقف مع إسرافيل فيقول الله له : هل بلغك إسرافيل ما بلغ ؟ فيقول : نعم يا رب وبلغته جميع أنبيائك وأنفذت إليهم جميع ما انتهى إلي من أمرك وأديت رسالتك إلى نبي نبي ورسول رسول وبلغتهم كل وحيك وحكمتك وكتبك ، إن آخر من بلغته رسالتك ووحيك وحكمتك وعلمك وكتابك وكلامك محمد بن عبدالله العربي القرشي الحرمي حبيبك ، قال أبو جعفر ﷺ : فأول من يدعى من ولد آدم للمساءلة محمد بن عبدالله ﷺ فيدنيه الله حتى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذ منه فيقول الله : يا محمد هل بلغك جبرئيل ما أوحيت إليك وأرسلته به إليك من كتابي وحكمتي وعلمي ؟ وهل أوحى ذلك إليك ؟

فيقول رسول الله ﷺ : نعم يا ربّ قد بلغني جبرئيل جميع ما أوحيته إليّ ، و أرسلته به من كتابك و حكمك و علمك و أوحاه إليّ ، فيقول الله لمحمد : هل بلغت أمّتك ما بلغك جبرئيل من كتابي و حكمتي و علمي ؟ فيقول رسول الله ﷺ : نعم يا ربّ قد بلغت أمّتي جميع ما أوحيت إليّ من كتابك و حكمك و علمك و جاهدت في سبيلك ، فيقول الله لمحمد : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول محمّد : يا ربّ أنت الشاهد لي بتبليغ الرّسالة و ملائكتك و الأبرار من أمّتي و كفى بك شهيداً ، فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة ، ثمّ يدعى بأمة محمّد فيسئلون هل بلغكم محمّد رسالتي و كتابي و حكمتي و علمي و علمكم ذلك ؟ فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة و الحكمة و العلم ، فيقول الله لمحمد : فهل استخلفت في أمّتك من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي و علمي و يفسّر لهم كتابي و يبيّن لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجة لي و خليفة في الأرض ؟ فيقول محمّد : نعم يا ربّ قد خلفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي و وزيري و وصيّي و خير أمّتي و نصبته لهم علماً في حياتي و دعوتهم إلى طاعته و جعلته خليفتي في أمّتي إماماً يقتدي به الأمة بعدي إلى يوم القيامة ، فيدعى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام فيقال له : هل أوصى إليك محمّد و استخلفك في أمّته و نصبك علماً لا أمّته في حياته ؟ فهل قمت فيهم من بعده مقامه ؟ فيقول له عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد أوصى إليّ محمّد و خلفني في أمّته و نصبني لهم علماً في حياته ؟ فلمّا قبضت محمّد إليك جددتني أمّته و مكروا بي و استضعفوني و كادوا يقتلونني و قدّموا قدّامي من آخرت و أخرّوا من قدّمت و لم يسمعوا منّي و لم يطيعوا أمري ، فقالتهم في سبيلك حتى قتلوني ، فيقال لعليّ عليه السلام : هل خلفت من بعدك في أمّة محمّد حجة و خليفة في الأرض يدعو عبادي إلى ديني و إلى سبيلي ؟ فيقول عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد خلفت فيهم الحسن ابني و ابن بنت نبيّك ، فيدعى بالحسن بن عليّ فيسأل عمّا سأل عنه عليّ بن أبي طالب ، قال : ثمّ يدعى بإمام إمام و بأهل عالمه فيجيبون بحجّتهم فيقبل الله عندهم و يزيّن حجّتهم ، قال : ثمّ يقول الله : و اليوم

ينفع الصادقين صدقهم» قال : ثم انقطع حديث أبي جعفر عليه وعلى آبائه السلام^(١).
قال أبو حامد : فإذا رأوا ما قد اقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوجة من زوجها وبقي كل واحد منتظراً لأمره ثم يؤتى بواحد واحد فيسأله الله شفاعاً عن قليل عمله وكثيره و عن سرّه و علانيته و عن جميع جوارحه و أعضائه .

فتوهّم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضدك و أنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاعاً فيقول لك : ألم أُنعم عليك بالشباب فقيماً ذا أبلية ؟ ألم أمهل لك في العمر فقيماً ذا أفئدة ؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته ، و فيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حيائك وخجلتك وهو يعدد عليك إنعامه و معاصيك و أيادييه و مساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك ، قال أنس : كنّا يوماً مع رسول الله ﷺ فضحك ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك؟ قلنا الله و رسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربّه يقول : يا ربّ ألم تجزني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فأنبيّ لأحبين على نفسي إلا شاهدأ منّي ، فيقول : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »^(٢) و بالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ويقال لأركانّه : انطقي قال : فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لكنّ و سحراً فعنكنّ كنت اُناضل^(٣) . فنعوذ بالله من الافتضاح على ملائـ الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره ، و قد قال رسول الله ﷺ : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة »^(٤) فهذا إنّما يرجي لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حقّ نفسه تقصيرهم و لم يحرك لسانه بذكر مساوي الناس و لم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهو جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، و هب أنّه قد ستره عن غيرك أليس

(١) تفسير على بن ابراهيم القمي ص ١٧٨ الى ١٨٠ . (٢) الاسراء : ١٤ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه وابن أبي الدنيا في التوبة واللفظ له وابن أبي حاتم و

البيهقي في الاسماء والصفات من حديث أنس . (٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

قد قرع سمعك النداء إلى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ
بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطربٌ ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة
ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة
تنخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما يقاد الفرس المجنوب ، وقد رفعت
الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك في أيدي الموكّلين بك على هذه الصفة انتهوا
بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم ويناديك الله سبحانه بعظيم كلامه : يا ابن آدم
أدن منّي فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ،
وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فذكرتها
وكم من طاعة غفأت عن آفاتنا فانكشف لك عن مساوينا ، فكم لك من خجلة و
حيرة ، وكم لك من حصر وعي فليت شعري بأيّ قدم تقف بين يديه وبأيّ لسان تجيب
وبأيّ قلب تعقل ما تقول ؟ ثم تفكر في عظيم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً إذ
يقول : يا عبدي أما استحييت منّي فبارزني بالقبيح ؟ واستحييت من خلقي فأظهرت
لهم الجليل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادي استخففت بنظري إليك فلم تكثر
واستعظمت نظر غيري ألم أنعم عليك ؟ فماذا غرك بي ؟ أظننت أنني لأراك وأنتك
لا تلقاني ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس
بينه وبينه حجاب ولا ترجمان (١) » وقال رسول الله ﷺ : « ليقفن أحدكم بين
يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له : ألم أنعم عليك ؟ ألم أوتك
مالاً ؟ فيقول : بلى فيقول : ألم أرسل عليك رسولا ؟ فيقول : بلى ، ثم ينظر عن يمينه
فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتبّع أحدكم النار ولو
بشقّ تمرّة فإن لم يجد فبكلمة طيبة (٢) » .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو
أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول : يا ابن آدم ما غرك بي ؟ يا ابن آدم ما عملت
فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك
(١) و(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٨٦ من حديث عدي بن حاتم بلفظ « الا سيكلمه » .

و أنت تنظر بهما إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على أذنك وأنت تسمع بهما ؟ و هكذا حتّى عدّ سائر الأعضاء . و قال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة بين يدي الله عز وجل حتّى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه ، و عن عمله ماذا عمل به ، و عن جسده فيما أبلاه ، و عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك و بخطرِكَ فإنَّكَ بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا و أنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك و فرحك و يغبطك الألوّن و الآخرون و بين أن يقال للملائكة : خذوا هذا العبد السيّء فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه ، و عند ذلك لو بكت عليك السماوات و الأرض لكان ذلك جديراً بعظيم مصيبتك و شدّة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله و على ما بعث آخرتك من دنيا دنيّة لم تبق معك ؟ !

❖ (صفة الميزان) ❖

ثمّ لا تغفل عن الفكر في الميزان و تطاير الكتب إلى الأيمان و الشمالك ، فإنّ النّاس بعد السّؤال ثلاث فرق فرقه ليس لهم حسنة فيخرج من النّار عنق أسود فيلنقطهم لقط الطير الحبّ و ينطوي عليهم ويلقيهم في النّار فتبتلعهم النّار و ينادي عليهم بشقاوة لا سعادة بعدها ، و قسم آخر لاسيئة لهم فينادي منادليهم الحامدون لله على كلّ حال فيقومون و يسرحون إلى الجنّة ، ثمّ يفعل ذلك بأهل قيام اللّيل ، ثمّ بمن لم يشغله تجارة و لا بيع عن ذكر الله تعالى و ينادي عليهم بسعادة لا شقاوة بعدها ، و يبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً و قد يخفى عليهم و لا يخفى على الله أنّ الغالب حسناتهم أو سيّئاتهم ولكن يا بى الله إلّا أن يعرفهم حقيقة ذلك ليبين فضلهم عند العفو و عدله عند العقاب ، فتطائر الصحف و الكتب منطوية على الحسنات و السيّئات و ينصب الميزان و تشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ، ثمّ إلى لسان الميزان أيّميل إلى جانب السيّئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق ، قال رسول الله ﷺ في يوم القيامة : « إنّّه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول : قم يا آدم فابعث بعث النّار ، فيقول :

وكم بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون [في النار و واحد في الجنة] فلمّا سمع الصحابة بذلك ألبسوا حتّى ما أوضحوا بضاحكة فلمّا رأى نبي الله ﷺ الذي جهد أصحابه قال: اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بحده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا أكثرناه مع من هلك من بني آدم و بني إبليس قالوا: و ماهما يارسول الله قال: يأجوج ومأجوج، قال: فسرّي عن القوم، فقال: اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بحده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة^(١).

﴿صفة الخصماء ورد المظالم﴾

فقد عرفت هول الميزان وخطره فإنّ الأعين شاخصة إلى لسان الميزان «فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفّت موازينه فأهه هاوية و ما أدريك ماهية نار حامية» و أعلم أنّه لا ينجو عن خطر الميزان و الحساب إلا من حاسب في الدنيا نفسه و وزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما ورد «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا» وإنّما حسابه لنفسه أن يتوب عن كلّ معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله . ويردّ المظالم حبة بعد حبة و يستحلّ كلّ من تعرّض له بلسانه و يده و سوء ظنّه بقلبه و يطيب قلوبهم حتّى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل ردّ المظالم أحاطت به خصماؤه فهذا يأخذ بيده، و هذا يقبض على ناصيته، و هذا يتعلّق بتلبيبه، هذا يقول ظلمتني و هذا يقول شتمتني، و هذا يقول: قد استهزأت بي، و هذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، و هذا يقول: جاورتني فأسات جوارني، و هذا يقول عاملتني فغششتني، و هذا يقول: بايعتني فغبتني وأخفيت عني عيب سلعتك، و هذا يقول: كذبت في سعر متاعك، و هذا يقول رأيتني محتاجاً و كنت غنياً فما أطعمتني، و هذا يقول: وجدتني مظلوماً و كنت قادراً على دفع الظلم عني فداعنت الظالم وما راعيتني، فبينما أنت كذلك و

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري .

قد أنشب الخصماء فيك مخالبتهم فأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهور متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغية أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجا، إلى سيدك و مولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم» فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار وتذكر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رسوله حيث قال : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (١) فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ، وما أشد حسرتك في ذلك إذا وقف بك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظاهر عذراً فعند ذلك يؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك و تنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم فقد روي عن رسول الله ﷺ :

« هل تدرون من المفلس ؟ قال : المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من امتني من يأتي يوم القيامة بصلاة و زكاة و صيام ، و يأتي قد شتم هذا ، و قذف هذا ، و أكل مال هذا ، و سفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار (٢) » .

أقول : وقد مر في صفة أهل المحشر حديث طويل من طريق الخاصة في الخصماء ورد المظالم و بيان ذلك مفصلاً .

قال أبو حامد : فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس تسلم لك حسنة من آفات الرّيا، و مكائد الشيطان فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرك خصماؤك و أخذوها و لو أنك حاسبت نفسك و أنت مواظب على صيام النهار

(١) ابراهيم : ٤٢ و ٤٣ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٨ وقد تقدم غير مرة .

وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات فكيف ترجوا الخلاص من المظالم في يوم يقتصر فيه للجماة من القرناء فقد روي عن أبي ذر^(١) « أن النبي ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال ، يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان ؟ قلت : لا قال ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة^(٢) » وروي في قوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمّم أمثالكم^(٣) » أنه يحشر الخلق يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله عز وجل أن يأخذ للجماة من القرناء ، ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً « فكيف أنت يا مسكين في قوم ترى صحيفة خالية من حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال لك قد نقلت إلى صحيفة خصمائك و ترى صحيفة مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك و اشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم و شتمتهم و قصدتهم بالسوء و ظلمتهم في المباينة و المجاورة و المخاطبة و المناظرة و المذاكرة و المدارس و سائر أصناف المعاملة ، قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قديس أن تعبد إلا صنم بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات و هي الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجيئ يوم القيامة بأعمال الجبال من الطاعات فيرى أنها ستنجس ، فما يزال عبد يجيء فيقول : يا رب إن فلاناً ظلمني بمظلمة فيقال : امح من حسناته ، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له من حسناته شيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بقلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فاحتطبوا فلم يلبثوا أن أو قدوا نارهم وصعدوا ما أرادوا وكذلك الذنوب^(٣) » .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٦٢ .

(٢) الانعام : ٣٨ .

(٣) أخرجه أبو يعلى وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد

ج ١٠ ص ١٨٩ .

و من اجتمعت عليه مظالم و قد تاب عنها و عسر عليه استجلال أرباب المظالم فليستكثر من حسناته ليوم القصاص و ليستر ببعض الحسنات بينه و بين الله بكمال الا خلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقر به ذلك إلى الله فينال به لطفه الذي أدخره لأحبائه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم .

أقول: ثم أورد أبو حامد حديثاً عن أنس يغني عن ذكره ما قد مناه من طريق الخاصة ثم قال : فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحتك عن المظالم أو تلطف بك حتى عفى عنك و أيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من فصل القضاء و قد خلعت عليك خلعة الرضا و وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء و بنعيم لا يدور بحواشية الفناء ، و عند ذلك طار قلبك سروراً و فرحاً و ابيض وجهك و استنار أشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهتهم نفسك يتحرك بين الخلايق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك ، و نضرة النعيم تعرف في وجهك و برد الرضا يتلأل من جبينك و خلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك و يغبطونك في حسنك و جمالك و الملائكة يمشون بين يديك و من خلفك و ينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان قد رضي الله عنه و أرضاه و قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً فترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا برباك و مدامتلك و تصنعك و تزيينك ، فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي و النية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به و إن تكن الأخرى و العياذ بالله بأن خرج من صحتك جريمة كنت تحسبها هيئنة وهي عند الله عظيم فمقتك لأجلها و قال : عليك لعنتي يا عبد السوء لا تقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا و يسود وجهك ثم تغضب عليك الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك ينثال إليك الزبانية و قد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها و زعارتها ^(١) و صورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملا

(١) انثال اليه الناس من كل وجه أى انصبوا . والزعارة : الشراسة وهي سوء الخلق .

الخلائق و هم ينظرون إلى اسوداد وجهك و إلى ظهور خزيك و أنت تنادي بالويل و الثبور و هم يقولون لك : « لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً » و تنادي الملائكة و يقولون : هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه و مخازيه و لعنه بقبائح مساويه ، فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، و ربّما يكون ذلك بذنب أذنبته خيفة من عباد الله أو طلباً للمكانة في قلوبهم أو خوفاً من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرّض لسخط الله و عقابه الأليم و السياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك و أنت بعد لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

﴿ صفة الصراط ﴾

ثم تفكّر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى : « يوم نحشر المتّقين إلى الرحمن و فداً » و نسوق المجرمين إلى جهنّم ورداً^(١) و في قوله تعالى : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » وقفوهم إنهم مسؤولون^(٢) ، فالناس بعد هذه الأحوال يساقون إلى الصراط و هو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنّم أحدٌ من السيف و أدقُّ من الشعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة و نجا ، و من عدل عن الاستقامة في هذا و أثقل ظهره بالأوزار و عصي ، عثر في أوّل قدم من الصراط و تردى ، فتفكّر الآن فيما يحلّ من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط و دقته ثم وقع بصرك على سواد جهنّم من تحته ثم قرع سمعك شهبق النار و تغيّظها و قد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك و اضطراب قلبك و تزلزل قدمك و ثقل ظهرك بالأوزار الممانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى قدميك فأحسست بحدّته و اضطرت إلى أن ترفع القدم الثاني و الخلايق بين يديك يزّلون و يتعثّرون و تتناولهم زبانية النار بالخطاطيف و الكلابيب و أنت تنظر إليهم كيف يتنكّسون فيتسفل إلى جهة النار رؤوسهم و

(٢) الصفات : ٢٣ و ٢٤ .

(١) مريم : ٨٥ و ٨٦ .

تعلو أرجلهم ، فيأله من منظر ما أفضعه و مرتقى ما أصعبه و مجاز ما أضيقه ، فانظر إلى حالك و أنت تزحف عليه ^(١) و تصعد إليه و أنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً و شمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النار و الرسول ﷺ يقول : يا ربِّ سلم سلم ، و الزعقات ^(٢) بالويل و الثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من يزل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك و لم ينفعك ندمك ، فناديت بالويل و قلت : هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قد مت لحيتي ، يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، يا ليتني كنت تراباً ، يا ليتني كنت نسياً منسياً ، يا ليت أمي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران ، و العياذ بالله و ينادي المنادي اخسئوا فيها و لا تكلمون فلا يبقى سبيل إلى الصياح و الأنين و التنفّس و الاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك و هذه الأخطار بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفّار في دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمناً و عنه غافلاً و بالاستعداد له متهاوناً ، فما أعظم جرأتك و طغيانك ، و ماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله بطاعته و ترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط و ارتياح ^(٣) قلبك من خطرِكَ في الجواز و إن سلمت فناهيك به هولاً و فزعاً و رعباً قال رسول الله ﷺ : « ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز بأمرته من الرُّسل و لا يتكلم يومئذ إلا الرُّسل و دعوى الرُّسل يومئذ اللهم سلم سلم ، و في جهنم كالليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنّها مثل شوك السعدان غير أنّه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله تعالى يخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله و منهم من يخرذل ^(٥) ثمّ ينجو ^(٤) » .

و قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : يمرُّ الناس على جسر

(١) زحف إليه أى مشى . (٢) الزعقة : الصيحة . (٣) الارتياح : الاضطراب .

(٤) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٤٧ من حديث أبي هريرة فى حديث طويل .

(٥) المخردل : المرمى المصروع .

جهنّم و عليه حسك و كلاليب و خطاطيف يخطف الناس يميناً و شمالاً و على جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلّم سلّم ، فمن الناس من يمرّ عليه كالبرق ، و منهم من يمرّ كالريح ، و منهم من يمرّ كالفرس المجري ، و منهم من يسعى سعياً ، و منهم من يمشي مشياً ، و منهم من يحبو حبواً ، و منهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون و لا يحيون ، و أمّا أناس يؤخذون بذنوب و خطايا فيحترقون فيكونون فحماً ، ثم يؤذن في الشفاعة - و ذكر إلى آخر الحديث - .^(١)

و عن ابن مسعود أنه رضي الله عنه قال : « يجتمع الله الأولين و الآخرين في صعيد واحد لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء - و ذكر الحديث إلى ذكر السجود - قال : ثم يقول : ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيه نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، و منهم من يعطى نوره مثل النخلة يمينه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتّى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره علي إبهام قدمه فيضيء مرة و يطفأ مرة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفىء قام - ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم - فمنهم من يمرّ كطرف البصر ، و منهم من يمرّ كالبرق ، و منهم من يمرّ كالسحاب ، و منهم من يمرّ كانهض الكوكب ، و منهم من يمرّ كشدّ الفرس ، و منهم من يمرّ كشدّ الرجل حتّى أن الذي أعطى نوره علي إبهام قدمه يحبو علي وجهه و يديه و رجليه يجرّ يداً و يعلّق يداً و يجرّ رجلاً و يعلّق رجلاً و يصيب جوانبه النار ، قال : فلا يزال كذلك حتّى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله فقد أعطاني الله ما لم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل » .^(٢)

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه الكليني و الصدوق رحمهما الله عن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٥٨٤ . و رواه مسلم باختلاف في لفظه

ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٥٩٠ في حديث طويل .

أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « لما نزلت هذه الآية « وجي، يومئذ بجهنم ^(١) »، سئل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا جمع الأولين والآخرين أتني بجهنم تقاد بألف زمام آخذ بكل زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد لها هدة وتغيظ وزفير وأنها لتزفر الزفرة فلولا أن الله أخرهم للحساب لأهلك الجميع ثم يخرج منها عنق يخييط بالخلائق البر منهم والفاجر فما خلق الله عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلا ينادي يا رب نفسي نفسي وأنت تقول : يا رب أمتي أمتي ثم يوضع عليها صراط أدق من حد السيف عليه ثلاث قناطر أما واحدة فعلية الأمانة والرحم وأما الأخرى فعلية الصلاة وأما الثالثة ، فعلية عدل رب العالمين لا إله غيره فيكلفون الممر عليه فيحبسهم الرحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة وإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين عز وجل وهو قوله تبارك وتعالى : « إن ربك لبالمرصاد ^(٢) » والناس على الصراط فمتعلق وقدم تستمسك وقدم تزل ، والملائكة حولهم ينادون : يا حلیم اغفر واصفح وعد بفضلك وسلم سلم ، والناس يتهافتون فيها كالقراش فإذا نجاناج برحمة الله عز وجل نظر إليها فقال : الحمد لله الذي نجاني منك بعد إياس بمنته وفضله إن ربنا لغفور شكور ^(٣) . »

وروى الصدوق عن الصادق عليه السلام قال : « الناس يمرّون على الصراط طبقات والصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمر حبواً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً ^(٤) . »

وبإسناده عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام : « يا علي إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط فلا يجوز على الصراط إلا من كانت معه برائة بولايتك ^(٥) . »

(٢) النجر : ١٤ .

(١) الفجر : ٢٣ .

(٣) الصدوق في أماليه وعلي بن ابراهيم في تفسيره ص ٧٢٤ . (٤) أمالي الصدوق

ص ١٠٧ . (٥) معاني الاخبار ص ٣٥ تحت رقم ٦ وفي المصدر فلم يجوز .

قال أبو حامد : فهذه أهوال الصراط وعظائمه و طول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال القيامة من طال فكره فيها في الدنيا فان الله لا يجمع على عبد خوفين ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة و لست أعني بالخوف رقة كرقية النساء تدمع عينك و يرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب و تعود إلى لهوك و لعبك ، فمما ذلك من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه و من رجاشئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله و يحثك على طاعته و أبعد من رقة النساء خوف الحمقى الذين إذا سمعوا الأهوال سبق ألسنتهم إلى الاستعاذة فقال أحدهم : أمتعيز بالله ، نعوذ بالله سألهم سلم ، وهم مع ذلك مصرّون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فان الشيطان يضحك من استعاذتهم كما تضحك أنت على من يقصده سبع ضار في صحراء و وراءه حصن حصين فاذا رأى أنياب السبع و صولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين و أمتعيز بشدة بنيانه و إحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه و هو قاعد في مكانه ، فأنتى يغني ذلك عن السبع ؟ و كذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً ، و معنى صدقه أن لا يكون لك مقصود سوى الله و لا معبود سواه و من اتخذ إلهه هواه فهو بعيد عن الصدق في توحيده و أمره مخطر في نفسه ، فان عجزت عن ذلك كله فكن محباً لرسول الله ﷺ حريصاً على تعظيم سنته و متشوقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته و متبركاً بأدعيتهم ، فعساك تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

❖ (صفة الشفاعة) ❖

إعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل منهم شفاعة الأنبياء و الصديقين بل شفاعة العلماء و الصالحين و كل من له عند الله تعالى جاه بحسن معاملته فان له شفاعة في أهله و قرابته و أصدقائه و معارفه فكن حريصاً على أن تكسب لنفسك عند الله رتبة الشفاعة و ذلك بأن لاتحقر آدمياً أصلاً فان الله تعالى خبياً ولايته في عباده فلعل الذي تزدره ينك هو ولي الله

ولا تستصغر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر طاعة أصلاً فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعاته فلعل رضا الله فيها ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراها ، وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة قال الله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى ^(١) » روى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ^(٢) » وقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ^(٣) » ثم رفع يديه وقال : أمّتي أمّتي ثم بكى فقال الله عز وجل : يا جبرئيل اذهب إلى محمد فسله ما يسئلك ، فأتاه فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال : يا جبرئيل اذهب إلى محمد فقل له : إننا نرضيك في أمّتك ولا نسوؤك فيهم ^(٤) .

وقال ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وتراها طهوراً فأيتما رجل من أمّتي أدركته الصلوة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامّة ^(٥) » .

وقال ﷺ : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر ^(٦) » .

وقال ﷺ : « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أوّل من تنشق الأرض عنه ، وأنا أوّل شافع وأنا أوّل مشفّع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ^(٧) » .

(١) الضحى : ٥ . (٢) إبراهيم : ٣٦ .

(٣) المائدة : ١١٨ .

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٢ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، و لعله سقط

من النسخ ذكر عبدالله .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣١٤ من حديث ابي بن كعب عن أبيه .

(٧) أخرجه أحمد في المسند ج ٣ ص ١٤٤ من حديث أنس .

وقال عليه السلام : « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبي دعوتي شفاعاً لا ممتي يوم القيامة ^(١) » .

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « ينسب للأَنْبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه فأنما أنا بين يدي ربي متنبهاً مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول : يا رب أمتي ، فيقول الله تعالى : يا محمد وماذا تريد أن أصنع بأمتك فأقول : يا رب عجل حسابهم ، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً كما برجال قد بعث بهم إلى النار ، وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يا محمد ما تركز للنار لغضب ربك في أمتك من بقية ^(٢) » .

وقال عليه السلام : « إنني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر و مدر ^(٣) » .

أقول : ثم ذكر أبو حامد حديث الشفاعة بطوله عن أبي هريرة بما فيه مما فيه ونحن نذكر بدله ما ورد من طريق الخاصة وهو ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره بسند موثق عن الصادق عليه السلام : « إنّه سئل عن شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة قال : يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا عند ربك فيقول : إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح فيردّهم إلى من يليه ويردّهم كل نبي إلى من يليه حتى ينتهون إلى عيسى فيقول : عليكم بمحمد رسول الله ﷺ فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول : انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول : ارفع رأسك و اشفع تشفع وسل تعط ، ذلك قوله عز وجل : « عسى أن يبعثك

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٣ من حديث أنس .

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البناني وهو ضعيف كما في المغنى .

(٣) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه أحمد بن عمرو صاحب على المدني ويعرف بالقلوري مجهول كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٧٩ .

ربك مقاماً محموداً^(١) .

و روى الصدوق بإسناده عن الرضا عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ من لم يؤمن بحوضي فلا أوردّه الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي ، ثم قال : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل^(٢) . »

قال أبو حامد : فهذه شفاعرة رسول الله ﷺ ولا حاد أمتّه من العلماء و الصالحين شفاعرة أيضاً حتّى قال رسول الله ﷺ : « يدخل الجنة بشفاعرة رجل من أمتي أكثر من ربيعة و مضر^(٣) . »

و قال عليه السلام : « يقال للرجل : قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للمقبيلة و لأهل بيت و للرجل و للرجل و للرجل على قدر عمله^(٤) . »

أقول : ثم ذكر أبو حامد في شفاعرة المؤمنين حديثاً عن أنس و نحن نذكر من طريق الخاصة و هو ما روّاه عن الصادق عليه السلام قال : « يؤتى بعبد يوم القيامة ليست له حسنة فقال له أذكر و تذكر هل لك حسنة ؟ قال : فيذكر فيقول : يارب مالي حسنة إلا أن عبدك فلان المؤمن مرّبي فطلب منّي ماء يتوضأ به فيصلي به فأعطيته قال : فيدعى ذلك العبد المؤمن فيذكر ذلك فيقول : نعم يا رب مررت به فطلبته منه ماء فأعطاني و توضأت و صلّيت قال : فيقول الله : ادخلوا عبيدي الجنة^(٥) . »

﴿ صفة الحوض ﴾

إعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها نبيّنا ﷺ و قد اشتملت الأخبار

(١) المصدر ٣٨٧ ، والآية في سورة الاسراء : ٧٩ .

(٢) العيون ص ٧٨ و الامالي ص ٥ .

(٣) أخرجه أحمد و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ و رواه الشيخ

الطوسي في أماليه ص ٦٣ بنحوه .

(٤) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ .

(٥) رواه الحسين بن سعيد الاهوازي في كتابه كما في البحار كتاب العدل والمعاد .

على وصفه و نحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه و في الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً قيل : لما نزلت سورة الكوثر قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : إنه نهر و عنده ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ، عليه حوض ، ترد أهتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم (١) » .

وقيل : كان رسول الله ﷺ يقول : « ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة و صنعاء أو مثل ما بين المدينة و عمان (٢) » .

و روي أنه لما نزل قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر (٣) » قال رسول الله ﷺ : « هو نهر في الجنة حافته من ذهب شرابه أشد بياضاً من اللبن و أحلى من العسل و أطيب ريحاً من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ و المرجان (٤) » .

و قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن و أحلى من العسل و أكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أوّل الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين » (٥) و في رواية أبي ذر « أنه يسكب فيه ميزابان من الجنة » (٦) .

أقول : و من طريق الخاصة عن أهل البيت عليهم السلام « إن الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي منه أوليائه و يزود عنه أعداءه » (٧) . و من طريق العامة مما روه في صحاحهم عن النبي ﷺ أنه قال : « ليردن الناس من أصحابي علي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي أصحابي - وفي رواية أصحابي أصحابي - فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » و زاد في أخرى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة و أحمد و مسلم و أبو داود و النسائي و ابن جرير و ابن منذر

و ابن مردويه و البيهقي في سننه من حديث أنس كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٤٠١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٦ ص ٧١ . (٣) الكوثر : ١ .

(٤) أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بنحوه .

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٧٠ و ٢٧٣ . (٦) مسلم ج ٧ ص ٦٩ .

(٧) أمالي الصدوق ص ١٦٨ .

« وارتدوا على أديبارهم القهقري ^(١) » .

« و سئل الصادق عليه السلام عن قول الرُّجل للرجل جزاك الله خيراً ما يعني به؟ فقال عليه السلام : « إن خيراً أنهر في الجنة مخرجه من الكوثر و الكوثر مخرجه من ساق العرش عليه منازل الأوصياء و شيعتهم ، على حافتي النهر جوارى نابتات كلما قلعت واحدة نبئت أخرى سمى بذلك النهر ، و ذلك قوله عز وجل : « فيهن خيراتٌ حسان ^(٢) » فإذا قال الرُّجل لصاحبه : « جزاك الله خيراً » فأنما يعني بذلك تلك المنازل التي قد أعدّها الله تعالى لصفوته و خيرته من خلقه ^(٣) » .

قال أبو حامد : و عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل نبي حوضاً و إنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة و إنني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة ^(٤) » . فهذا رجاء رسول الله ﷺ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين و ليحذر بأن يكون متمنياً و مغترّاً و هو يظن أنه راج فإن الرّاجي للحصاد من قد بثّ البذر و نقى الأرض و سقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات و دفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأما من ترك الحراثة و الزّراعة و تنقية الأرض و سقيها و أخذ يرجو من فضل الله تعالى أن ينبت له الحبّ و الفاكهة فهذا مغترّ و متمنّ و ليس من الرّاجين في شيء و هكذا رجاء أكثر الخلق و هو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور و الغفلة فإنّ الإغترار بالله أعظم من الإغترار بالدنيا قال الله تعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ^(٥) » .

﴿ القول في صفة جهنم و أهوالها و أنكالها ﴾

أيّها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على

(١) راجع صحيح مسلم ج ٦ ص ٦٨ و صحيح البخارى ج ٩ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) الرحمن : ٧٠ .

(٣) معانى الاخبار للصدوق ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٧٠ و قال : غريب و قد روى الاشعث بن عبد الملك

هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله مرسل و لم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

(٥) لقمان : ٣٣ .

الانقضاء و الزوال دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه و اصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : « و إن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا و نذر الظالمين فيها جثياً^(١) » فأنت من الورد على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه بالتشمير لأعمالها ، وتأمل في حال الخلائق و قد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبيناهم في كربها وأهوالها واقفين ينتظرون حقيقة إنبائها و تشفيح شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات الشعب و أظلمت عليهم نار ذات لهب و سمعوا لها زفيراً و جرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب و جئت الأهم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المنقلب ، و خرج المنادي من الزبانية قائلاً : أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل ، فيبادرونه بمقامع من حديد و يستقبلونه بعظائم التهديد و يسوقونه إلى العذاب الشديد و ينكسونه في قعر الجحيم و يقولون : له ذق إنك أنت العزيز الكريم ، فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء : مظلمة المسالك ، مبهمة الممالك ، يخلد فيها الأسير ، و يؤبد فيها السعير ، فشرابهم فيها الحميم ، و مستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، و الهاوية تجمعهم ، أمانهم فيها الهلاك ، و ما لهم منها فكك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي ، و اسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ، و يصيحون في نواحيها و أطرافها ، يا مالك قد حق علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منّا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود ، و تقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاحسبوا فيها و لا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نبيتم عنه عائدون ، فعند ذلك يقنطون ، و على ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبّون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيماهم ، و النار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النار ، طامهم نار ، و شرابهم نار ، و

لباسهم نار ، و مهادهم نار ، فهم بين مقطّعات النيران و سراويل القطران ، و ضرب المقامع ، و ثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضائقها ، و يتحطّمون في دركاتّها ، و يضطربون بين غواشيتها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، و يهتفون بالويل و العويل و الشبور ، و مهما دعوا بالشبور صبّ من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم و الجلود ، و لهم مقامع من حديد ، تنشم بها هامّهم ، فيتفجّر الصديد من أفواههم ، و تنقطّع من العطش أكبادهم ، و تسيل على الخدود أحداقهم ، و يسقط من الوجنات لحومها ، و يمتعط من الأطراف شعورها^(١) بل جلودها و كلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها ، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق و علائق العصب وهي تنشّ في لفتح تلك النيران^(٢) و هم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم و قد اسودّت وجوههم أشدّ سواداً من اللحم^(٣) و أعميت أبصارهم ، و أبكمت ألسنتهم ، و قصمت ظهورهم ، و كسرت عظامهم ، و جدعت آذانهم ، و مزقت جلودهم ، و غلّت أيديهم إلى أعناقهم ، و جمع بين نواصيهم و أقدامهم ، و هم يمشون على النار بوجوههم و يطؤون حسك الحديد بأحداقهم ، فلم ييب النار سار في بواطن أجزائهم ، و حيات الهاوية و عقاربها متشبّهة بطواهر أعضائهم ، هذه جملة أحوالهم فانظر الآن في تفصيل أهوالهم و تفكّر أو لا في أودية جهنّم و شعابها ، فقد قال النبي ﷺ : « إن في جهنّم سبعين ألف واد ، في كلّ واد سبعون ألف شعب ، في كلّ شعب سبعون ألف ثعبان ، و سبعون ألف عقرب ، لا يذنب الكافر و المنافق حتّى يواقع ذلك كلّهُ »^(٤) .

و قال عليّ عليه السلام : قال رسول الله ﷺ : « تعوّذوا بالله من جبّ الحزن أو وادي الحزن ، قيل : يا رسول الله : و ما وادي الحزن أو جبّ الحزن ؟ قال : واد

(١) تمعط و امتعط شعره أى تساقط من داء و نحوه .

(٢) النشيش : صوت الماء إذا غلى و لفتح النار : احراقها .

(٣) اللحم : الفجم و يقال له بالفارسية (ذغال) .

(٤) قال العراقي : لم أجده هكذا بجملة .

في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعون مرة أعدّه الله تعالى للمقرء المرائين^(١) «
فهذه سعة جهنم وانشعب أوديتها ، وهي بحسب أودية الدنيا وشهواتها وعدداً بوابها
بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد ، بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ، ثم
سقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فانظر الآن
في عمق الهاوية فإنه لحدّ لعمقها كما لحدّ لعمق شهوات الدنيا ، فكما لا
ينتهى أرب من الدنيا إلّا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلّا إلى هاوية
أعمق منها .

قيل : « كنّا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ :
أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : هذا جبرأئيل أرسل في جهنم منذ سبعين
عاماً الآن حين انتهى إلى قعرها^(٢) » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فإن الآخرة
أكبر درجات وأكبر تفصيلاً فكما أن إكباب الناس على الدنيا متفاوت فمن
منهمك مستكبر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حدّ محدود فكذلك تناول النار
لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في
النار كيفما كان بل لكل واحد منهم حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبيه إلّا أن
أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه قال
رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي
دماغه من حرارة نعليه^(٣) » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدّد
عليه ، ومهما شككت في شدة عذاب النار فقرّب أصبعك من النار وقس به ذلك ،
(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٥٦ وابن عدى من حديث أبى هريرة ورواه البيهقي
باسناد حسن كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٦٨ .

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ١٥٠ وراجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٧٠ .
(٣) ورواه البغوى في المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبى هريرة بأدنى اختلاف في
اللفظ ورواه أحمد والبخاري ورواه الإمام المصحيح كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٨٧ .
وأخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٥٨١ وقال صحيح ، ورواه مسلم ج ١ ص ١٣٥
واللفظ له .

ثم أعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها ، وهيئات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه وعن هذا عُبِّرَ في بعض الأخبار حيث قيل : «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة سبعين مرة حتى أطاقتها أهل الدنيا»^(١) بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال : «أمر الله تعالى أن أوقد على النار ألف عام حتى احترت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»^(٢) ، وقال ﷺ : «اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدونه في الصيف من حرّها وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها»^(٣) ، ثم انظر بعد هذا في متن الصيد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقوا فيه فهو الغساق .

قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : «لو أن دلواً من غساق جهنم أُلقي في الدنيا لانت أهل الأرض»^(٤) فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً» ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى : «ثم إنكم أيها الضالّون المكذّبون لا تكون من شجر من زقوم فمالمون منها البطون فشاربون عليه من الحميم» فشاربون شرب الهميم^(٥) .

(١) سيأتي عن قريب من طريق الخاصة تمام الحديث .

(٢) رواه الترمذی ج ١٠ ص ٥٨ والبيهقي والاصفهانى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبى هريرة والترمذی ج ١٠ ص ٦٠ من حديثه أيضاً .

(٤) أخرجه الترمذی ج ١٠ ص ٥٣ وقال : انما نرفه من حديث رشدين سعد وفيه مقال .

(٥) الواقعة : ٥١ الى ٥٥ .

وقال تعالى : « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم » طلعتها كأنه رؤس الشياطين » فانهم لا يكون منها فمالتون منها البطون » ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ^(١) » وقال تعالى : « تصلى ناراً حامية » تسقى من عين آنية ^(٢) » وقال تعالى : « إن لدنيا أنكلاً وجحيماً » وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ^(٣) » وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك ^(٤) » .

قال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ارغبوا فيما رغبكم الله ، واحذروا مما حذركم الله ، وخافوا ما خوكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها لطيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها لخبثتها عليكم ^(٥) » .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « يلقي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يسغون الغصص في الدنيا فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكالليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم ^(٦) أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيقولون : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا : بلى قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال قال : فيقولون : ادعوا مالكم فيدعون فيقولون : يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيئهم أنكم ما كنتم » . قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ، قال : فيقول :

(١) الصافات : ٦٤ الى ٦٨ .

(٢) الفاشية : ٤ و ٥ . (٣) الزمل : ١٢ و ١٣ .

(٤) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٥٤ و قال : صحيح .

(٥) رواه البيهقي كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٥٣ . (٦) كذا .

بعضهم لبعض ادعوا ربكم فلا أحدٌ خيرٌ من ربكم فيقولون : « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » قال : فيجيئهم « اخسئوا فيها ولا تكلمون » قال : فعند ذلك يؤسوا من كلّ خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل ^(١) .

وقال أبو أمامة : قال رسول الله ﷺ : في قوله : « ويسقى من ماء صديد » يتجرّعه ولا يكاد يسيغه » قال : « يقرّب إليه فيتكرّهُه : فإذا ادني منه شوى وجهه وقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتّى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى : « وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم » ^(٢) وقال تعالى : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » ^(٣) .

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سموها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها وقد سلّطت على أهلها واغريت بهم فهي لا تقترب عن النهش والدغ ساعة واحدة .

وعن رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهazمه يعني أشداه فيقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم - الآية » ^(٤) .

وقال الرسول ﷺ : « إنّ في النار لحياتٌ مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً ، وإنّ فيها لعقارب كالبلغال المو كفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً ، وهذه العقارب والحيات إنّما تسلّط على من

(١) رواه الترمذى ج ١٠ ص ٥٥ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥١ ، والحاكم في المستدرک وقال : صحيح على شرط

مسلم . والاية فى سورة ابراهيم : ١٦ و ١٧ .

(٣) الكهف : ٢٩ .

(٤) محمد : ١٥ .

(٥) آل عمران : ١٨٠ والخبر رواه البخارى ج ٢ ص ١٢٦ من حديث أبى هريرة .

سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه
الحيات فلم تمتثل له ^(١) ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإن
الله يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عقابهم بسببه فيحسبون بلفح النار
و لدغ العقارب و الحيات من جميع أجزائهم دفعة واحدة على التوالي ، و عن
رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث ^(٢) » . و
قال ﷺ : « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه ^(٣) » .
و قال ﷺ : « إن الكافر ليحجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس ^(٤) »
و مع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فيجدد جلودهم و لحومهم ، و قيل
في قوله : « كلما نضج جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها » قال : تأكلهم النار في
كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم : عودوا فيعودون كما كانوا .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه الصدوق رحمه الله بإسناده عن الباقر
عليه السلام قال : « إن أهل النار يتعاونون كما يتعاونى الكلاب و الذئاب مما يلقون من
أليم العذاب ما ظنك بقوم لا يقضي عليهم فيموتوا و لا يخفف عنهم من عذابها عطاش
فيها ، جياع ، كليله أبصارهم ، صم بكم عمي مسودة وجوههم خاسئين فيها نادمين
مغضوب عليهم فلا يرحمون و من العذاب لا يخفف عنهم و في النار يسجرون . و من
الحميم يشربون ، و من الزقوم يأكلون ، و بكلايب النار يحطمون ، و بالمقامع
يضربون و الملائكة الغلاظ الشداد لا يرحمون ، فهم في النار يسحبون على وجوههم
و مع الشياطين يقرنون و في الأنكال و الأغلال يصفدون ، إن دعوا لم يستجب لهم ،
و إن سألوا حاجة لم يقض لهم هذه حال من دخل النار ^(٥) » .

(١) رواه أحمد والطبراني من طريق أبي لهية عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن
جزء ، ورواه ابن حبان في صحيحه و أيضاً الحاكم . وقال : صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث أبي هريرة .

(٣) روى نحوه الترمذي .

(٤) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٤٩ وفيه « ليسحب لسانه فرسخ أو فرسخين » .

(٥) الامالي ص ٣٢٢ و ٣٢٣ .

و باسناده عن الصادق عليه السلام قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ جاء جبرئيل عليه السلام وهو كئيبٌ حزين متغيّر اللون فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل مالي أراك باكياً حزيناً فقال : يا محمد فكيف لا أكون كذلك ، وإنما وضعت منافخ جهنم اليوم فقال رسول الله : وما هذا فيخ جهنم يا جبرئيل فقال : إن الله تعالى أمر بالنار فاوقد عليها ألف عام حتى احترت ثم أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتى اسودت وهي سوداء مظلمة ، فلو أن حلقة من السلسلة التي لها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها ولو أن قطرة من الزقوم والمضريع قطرت في شراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها ، قال : فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل ، فبعث الله إليهما ملكاً فقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً فأعذّبكما عليه (١) . »

و عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله « إن ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ولقد اطفئت سبعين مرة بالماء ولو لذلك لما استطاع آدمي أن يطفئها إذا التهب وأنه ليؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار ، ما يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى بر كبتيه فزعاً من صرخها (٢) . »

و عن الصادق عليه السلام قال : « إن في جهنم لواد للمتكبرين يقال له سقرشكا إلى الله شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم (٣) . »
و عنه عليه السلام « إن في النار لحيات مثل أعناق البخت - الحديث (٤) » كما ذكره أبو حامد .

(١) رواء أيضاً علي بن ابراهيم في تفسيره ص ٤٣٧ ، ورواه الطبراني في الاوسط .

(٢) كتاب الحسين بن سعيد الاهوازي كما في البحار ج ٣ ص ٣٧٦ و رواء علي بن

ابراهيم في تفسيره عن الصادق بن عوف .

(٣) نواب الاعمال ص ٢١٥ .

(٤) نبوي أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ ص ١٩١ من حديث عبد الله بن العمار بن جزء .

قال : ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والنبور فإن ذلك يسلط عليهم في أول لفائف النار .
قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ^(١) » .

وعن رسول الله ﷺ « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى ترى في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت ^(٢) » و مادام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والنبور فلمهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضاً من ذلك .

قال محمد بن كعب القرظي : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربع فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها بدأ يقولون « ربنا ائتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » فيقول الله تعالى مجيباً لهم « ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ^(٣) » ثم يقولون : « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ^(٤) » فيجيبهم الله تعالى : « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ^(٥) » فيقولون : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ^(٦) » فيجيبهم الله تعالى « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ^(٧) » ثم يقولون : « ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين † ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ^(٨) » فيجيبهم الله تعالى « اخسئوا فيها ولا تكلمون ^(٩) » فلا يتكلمون

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٤ من حديث أنس وفي تفسير علي بن ابراهيم ٣٤٤ .

(٣) المؤمن : ١٢ . (٤) السجدة : ١٢ .

(٥) ابراهيم : ٤٤ . (٦) فاطر : ٣٧ .

(٧) فاطر : ٣٨ . (٨) المؤمنون : ١٠٧ و ٨ .

(٩) المؤمنون : ١٠٩ .

بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب .

قال مالك بن أنس : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ^(١) » قال : صبروا مائة سنة ، ثم جزعوا مائة سنة أخرى ثم قالوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » .

وقال عليه السلام : « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة خلودوا بلاموت ويا أهل النار خلودوا بلاموت ^(٢) » .

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لانهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله وفوت رضاء مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيتاماً قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرمة منغصة فيقولون في أنفسهم : واحسرتا كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا بالصبر أيتاماً فلالل و لو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيتامه وبقينا الآن في جوار الرحمن مننعين بالرضا والرضوان ، فيا الحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ولكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرينا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول تعالى : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتكم بارز تموني بالعظام ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤن الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني

(١) إبراهيم : ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

و تركتم للناس و لم تتركوا لي فالיום اذيقكم العذاب الاليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم (١) .

و قال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح و وجه صبيح و لسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح ، فانظر يا مسكين في هذه الأحوال و اعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها و خلق لها أهلاً لا يزيدون و لا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى و فرغ منه ، قال الله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة (٢) » ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة و لكن ما قضي الأمر يوم القيامة بل في أزل الآزال و لكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك و تلهو و تشتغل بمحققات الدنيا و لست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك ، فإن قلت : ليت شعري ماذا موردي و إلى ماذا مآلي و مرجعي ، و بما الذي سبق به القضاء في حقّي ؟

فلك علامة تستأنس بها و تصدق رجائك بسببها و هي أن تنظر إلى أحوالك و أعمالك فإن كلاً ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشرفاً نك مبعداً عن النار و إن كنت لا تقصد خيراً إلّا و تحيط بك العوائق فتدفعه و لا تقصد شراً إلّا و يتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات و دلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم » و إن الفجار لفي جحيم (٣) « فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرّك من الدارين .

❖ القول في صفة الجنة و أصناف نعيمها ❖

اعلم أن تلك الدار التي عرفت غمومها و همومها و ضرورها يقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها و سرورها فإن من بعد من أحديهما استقرّ للاحالة في الأخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، و استثر الرّجاء بطول الفكر في

(١) قال العراقي : روينا في الأربعين لابی هبة عن أنس ، و أبو هبة إبراهيم بن

هبة هالك .

(٢) الانفطار . ١٣ و ١٤ .

(٣) مريم : ٣٩ .

النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، و سق نفسك بسوط الخوف و قدّمها بزمام
الرّجاء إلى الصّراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم و تسلم من العذاب الأليم ،
فتفكّر في أهل الجنّة و في وجوههم نضرة النّعيم ، يسقون من رحيق مختموم ، ختامه
مسك ، جالسين على منابر من الياقوت الأحمر في خيام اللؤلؤ الرّطب الأبيض ،
فيها بسط من العبقري الأخضر ، متسكّنين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار
مطرّدة بالخمر و العسل ، محفوفة بالغلمان و الولدان ، مزينة بالبحور العين من
الخيرات الحسان كأنّهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثنّ قبلهم إانس و لاجان ، يمشين
في درجات الجنان إذا اختالت إحداهنّ في مشيتها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان
عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحيّر فيه الأبصار مكلّلات بالتيجان المرصّعة
باللؤلؤ و المرجان شكّلات غنجات عطرآت آمنات من الهرم و البؤس ، مقصورات
في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثمّ يطاف
عليهم و عليهنّ بأكواب و أباريق و كأس من معين ، بيضاء لذّة للشاربين ، و يطوف
عليهم خدام و ولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، في مقام أمين
و جنّات و عيون ، في جنّات و نهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيه
إلى وجه الملك الكريم ، و قد أشرقت في وجوههم نضرة النّعيم ، لا يرهقهم قتر و
لا ذلّة بل عباد مكرمون ، و بأنواع التحف من ربّهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتبهت
أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها و لا يحزنون ، و هم من ريب آمنون آمنون ،
فهم فيها يتنعمون و يأكلون من أطعمتها و يشربون من أنهارها لبناً و خمرأ و عسلاً ،
في أنهار أراضيها فضّة و حصاؤها مرجان ، و على أرض ترابها مسك أذفر و نباتها
زعفران ، و يمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كنبان الكافور ، و
يؤتون بأكواب و بأيّ أكواب من فضّة مرصّعة بالدّرّ و الياقوت و المرجان ، كوب
فيه من الرّحيق المختموم و ممزوج بماء السلسيل العذب ، كوب يشرق نوره من
صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه لرقمته و صفائه لم يصنعه آدمي فيقتصر في تسوية
صنعه و تحسين صياغته ، في كفّ خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن

من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته و حسن أصدائه و طرته و ملاحظة أحواله ،
 فيأعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها و يوقن بأنه لابدّ ذاهب إليها ولا يموت أهلها و
 لا تحلّ الفجائع بمن نزل بفنائها و لا ينظر الأحداث بعين التعيير إلى أهلها كيف
 يأنس بدار قد أذن الله في خرابها و يتهمناً بعيش دونها ، والله لو لم يكن فيها إلا
 سلامة الأبدان مع الأمن من الموت و الجوع و العطش و سائر أصناف الحدثان لكان
 جدير أبان يهجر الدنيا بسببها و أن لا يؤثر عليها ما التصرّم و التنغيص من ضرورته
 و كيف و أهلها ملوك آمنون في أنواع السرور ممتعون ، لهم فيها كل ما يشتهون
 و هم في كلّ يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون و ينالون
 بالنظر من اللذة ما لا يلتفتون معه إلى سائر نعيم الجنان و لا ينظرون إليه و هم
 على الدوام بين أصناف هذه النعيم يترددون و هم من زوالها آمنون قال رسول
 الله ﷺ : « ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم فيها أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، و
 إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، و إن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، و إن
 لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عزّ و جلّ » و فودوا أن تلکم الجنة
 أو رثتموها بما كنتم تعملون ^(١) » و مهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقراء القرآن
 فليس وراء بيان الله تعالى بيان و أقرء من قوله تعالى : « و لمن خاف مقام ربه
 جنتان ^(٢) » إلى آخر سورة الرحمن . و اقرء سورة الواقعة و غيرها من السور ، و
 إن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت
 على جملتها و تأمل أولاً عدد الجنان قال رسول الله ﷺ في قوله : « و لمن خاف
 مقام ربه جنتان » قال : « جنتان من فضة آبيتهم و ما فيهما ، و جنتان من ذهب
 آبيتهم و ما فيهما ، و ما بين القوم و بين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على
 وجهه في جنة عدن ^(٣) » .

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٨ من حديث أبي سعيد الخدري . والاية في سورة

الاعراف : ٤٢ . (٢) الرحمن : ٤٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٨١ من حديث عبدالله بن قيس عن أبيه .

ثمَّ انظر إلى أبواب الجنة فإنّها كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أنّ أبواب النار كثيرة بحسب أصول المعاصي ، قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلّها و للجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلّاة دعي من باب الصلّاة ، ومن كان من أهل الصّيام دعي من باب الصّيام وهو الرّيان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد (١) » .

و عن عاصم بن ضمرة ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه ذكر النار فعظم أمرها وذكر شيئاً لأحفظه ثمّ قال : « و سيق الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنة زمراً حتّى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة تخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحديهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ، ثمّ عمدوا إلى الأخرى فتطهّروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يتغيّر أشعارهم بعدها أبداً ، ولا تشعث رؤوسهم كأنّما دهنوا بالدهان ، ثمّ انتهوا إلى الجنة فقبل لهم : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ثمّ يلقاهم الولدان : يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب ، يقدم عليهم من غيبة يقولون له : أبشر بما أعدّ الله لك من الكرامة ، كذا قال : فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا فتقول : و أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته وهو بأثري فيستخفّها الفرج حتّى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جنبد اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من كلّ لون ، ثمّ يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ، ولولا أنّ الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ثمّ يطأطي ، رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة و نمارق مصفوفة و زرابي مبلوثة ، ثمّ اتّسكا فقال : « الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله » ثمّ ينادي مناد يا أهل الجنة تحيون

ولا تموتون أبداً و تقيمون فلا تظعنون أبداً ، وتصحبون فلا تمرضون أبداً^(١) . فقال رسول الله ﷺ : « آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك^(٢) » .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة و اختلاف درجات العلوّ فيها ، فإن الآخرة أكبر درجات و أكبر تفصيلاً ، و كما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة و المسارعة والمنافسة فيها فقال : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم و الجنة عرضها كعرض السماء والأرض^(٣) » وقال : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم^(٤) » وقال : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^(٥) » و العجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوّ بناء ثقل ذلك عليك و ضاق به ذرعك و تنغص بسبب الحسد عيشك ، و أحسن أحوالك أن تستقرّ في الجنة و أنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها فقد قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليمتروا أهل الغرف من فوقهم كما تمتروا الكواكب الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى و الذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله و صدّقوا المرسلين^(٦) » و قال أيضاً : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء^(٧) » .

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد و عبد الرزاق و ابن أبي شيبة و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن الدنيا في صفة الجنة و البيهقي في البعث و الضياء المقدسي في المختارة كما في الدر المنثور ج ٥ ص ٣٤٣ . وفيه قوله : « فلم يتغير أشعارهم » « فلن تغير أبشارهم » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٣٠ من حديث أنس .

(٣) الحديد : ٢١ . (٤) آل عمران : ١٣٣ .

(٥) المطففين : ٢٦ . (٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٥ .

(٧) أخرجه الترمذي و حسنّه و ابن ماجه تحت رقم ٩٦ من حديث أبي سعيد .

و قال : جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال لنا رسول الله ﷺ : « إِنْ أَحَدُكُمْ
بَغَرَ فِي الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّنَا أَنْتَ وَآمَنَّا ، قَالَ : إِنْ فِي الْجَنَّةِ
غُرْفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ ، يَرَى ظَاهِرَهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنَهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنْ
النَّعِيمِ وَاللَّذَاتِ وَالسُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، قَالَ :
قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَنْ هَذِهِ الْغُرْفُ ؟ قَالَ : لِمَنْ أَفْشَا الْإِسْلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ،
وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامُ ، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَطْبِقُ ذَلِكَ قَالَ : الْمُتَّبِعِي
تَطْبِيقَ ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَا السَّلَامَ
وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يَشْبَعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَمَنْ صَامَ شَهْرَ
رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَ
صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامُ - يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَ
الْمَجُوسَ - (١) . »

وَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ (٢) »
قَالَ : قُصُورٌ مِنْ لَوْلُؤٍ فِي كُلِّ قَصْرِ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ ، فِي كُلِّ دَارٍ
سَبْعُونَ بَيْتًا مِنْ زَمْرَدٍ أَخْضَرَ ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَرِيرٌ ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا
مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً ،
عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مَعَ الطَّعَامِ ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةٌ (٣) ، وَيُعْطَى
الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ - يَعْنِي مِنَ الْقُوَّةِ - مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعُ (٤) . »

﴿ صِفَةُ حَائِطِ الْجَنَّةِ وَأَرْضِهَا وَأَنْهَارِهَا وَأَشْجَارِهَا ﴾

تَأَمَّلْ فِي صُورَةِ الْجَنَّةِ ، وَتَفَكَّرْ فِي غَبْطَةِ سَكَّانِهَا بِهَا وَفِي حُسْرَةِ مَنْ حَرَمَهَا
لِقَنَاعَتِهِ بِالْدُّنْيَا عَوْضًا عَنْهَا فَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « إِنْ حَائِطَ الْجَنَّةِ ابْنَةُ مِنْ ذَهَبٍ

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ كَمَا فِي التَّرْغِيبِ ج ٤ ص ٥١١ .

(٢) الصَّف : ١٢ . (٣) الْوَصِيفَةُ : الْخَادِمَةُ .

(٤) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِنَحْوِهِ كَمَا فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ج ٤ ص ٥١٧ .

ولبنة من فضة ترابها زعفران وطينها مسك (١) .

وسئل عليه السلام عن تربة الجنة فقال : « درمكة بيضاء مسك خالص (٢) » و
عن رسول الله ﷺ « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها
في الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا (٣) »
« أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك (٤) » « ولو كان أدنى
أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحلبه الله عز وجل به في
الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً (٥) » .

وعن رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام
لا يقطعها (٦) » اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : « وظل ممدود (٧) » .

وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : « إن الله عز وجل
ينفعنا بالأعراب في مسائلهم » أقبل أعرابي فقال : يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن
شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله
ﷺ : ماهي ؟ قال : هي السدر فإن لها شوكة فقال له : قال الله تعالى : « وسدر

(١) رواه البزار من حديث أبي سعيد الخدري . وابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة
موقوفاً كما في المغنى والترغيب .

(٢) رواه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم عن ذلك فذكره . ورواه أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وآله لليهود : « اني سائلهم عن تربة الجنة وهي درمكة بيضاء فسألهم فقال : خبزة
يا بالقاسم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخبز من الدرمة ورجاله رجال الصبيح
غير مجالد وثقه غير واحد . والدرمة هو الدقيق الحواري ويقال : الدرمة .

(٣) أخرجه الطبراني في الاوسط باسناد حسن كما في المغنى .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه كما في الترغيب ج ٤ ص ٥١٧ من حديث أبي هريرة .

(٥) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث أبي هريرة باسناد حسن كما في المغنى .

(٦) الى هنا أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ من حديث أبي هريرة .

(٧) الواقعة : ٢٨ . وتام الخبر رواه البخاري ، والترمذي ج ١٠ ص ٣ من حديث

أبي سعيد .

مخضود» ويخضع الله شوكه فجعل مكان كل شوك ثمرة ، ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنتين و سبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر ^(١) .

قال جرير بن عبدالله : نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام : انطلق بهذا النطع ^(٢) فأظلم به فانطلق فأظلم ، فلما استيقظ إذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدري ، قال : ظلم الناس بينهم ، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صغره ، فقال : يا جرير لو طلبت في الجنة مثل هذا لم تجده ، قلت : يا أبا عبدالله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلىها النمر ^(٣) .

❖ (صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم) ❖

قال الله تعالى : « يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَابَاسِمَ فِيهَا حَرِيرٍ » ^(٤) . والآيات في تفصيل ذلك كثيرة : وأما تفصيله في الأخبار فقد روي أن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبؤس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ^(٥) .

وقال رجل : يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم فقال رسول الله ﷺ : هم تضحكون من جاهل سأل عما أئتم قال ﷺ : « بل ينسج عنها ثمر الجنة مرتين » ^(٦) . وعن رسول الله ﷺ « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر

(١) أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في البعث أيضاً كما في الدر المنثور ج ٦ ص ١٥٦ .

(٢) هو المتخذ من الاديم ، أى الجلد . أى قربه له ليستظل به من الشمس فيكون كالظلة .

(٣) رواه البيهقي بإسناد حسن كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٥٢٢ .

(٤) الحج : ٢٣ .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ و ١٤٨ والبخارى في حديثين من حديث أبي هريرة .

(٦) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٠٣ من حديث عبدالله بن عمر بن العاصي .

ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوَّطون ، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ، و رشحهم المسك و لكل واحد منهم زوجتان مخ ساقيهما يرى من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباعض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً ^(١) » و في رواية « على كل زوجة سبعون حلّة ^(٢) » .

و قال **الترمذي** : في قوله تعالى : « يحلّون فيها من أساور من ذهب ^(٣) » قال : إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب ^(٤) .

و قال **الترمذي** : « الخيمة درّة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن في كلّ زاوية منها أهل لا يراه الآخرون ^(٥) » رواه البخاري في الصحيح .

قال ابن عباس : الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

و قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله في قوله تعالى : « وفرش مرفوعة ^(٦) » قال : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٧) .

﴿ صفة طعام أهل الجنة ﴾

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الفواكه و الطيور السمان و المنّ و السلوى و العسل و اللبن و أصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى : « كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل و اتوا به متشابهاً ^(٨) »

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٧ . و رواه البخاري ج ٤ ص ١٤٢ و الترمذي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٩ من حديث أبي سعيد الخدري .

(٣) الفاطر : ٣٣ .

(٤) رواه أحمد والطبراني واسنادهما حسن كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤١٩ .

(٥) الصحيح ج ٤ ص ١٤٢ و رواه مسلم ج ٨ ص ١٤٨ من حديث موسى بن قيس عن أبيه .

(٦) الواقعة : ٣٤ .

(٧) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١١ وابن أبي الدنيا كما في الترغيب .

(٨) البقرة : ٢٥ .

و ذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة و قد قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ : « كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء خبر من أحبار اليهود فذكر أسولة إلى أن قال : فمن أول الناس إجازة ؟ - يمني على الصراط - فقال : فقراء المهاجرين قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ فقال : زيادة كبد الحوت ، قال : فما غذاؤهم على أثرها قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلاً ، فقال : صدقت (١) . »
و قال زيد بن أرقم : « جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ و قال : يا أبا القاسم ألسنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ و قال لأصحابه : إن أقر لي بهذا خصمته فقال ﷺ : بلى و الذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب و الجماع ، فقال اليهودي فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، فقال رسول الله ﷺ : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمير (٢) . »

و قال ابن مسعود : « قال رسول الله ﷺ : إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً (٣) . »
و قال حذيفة قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة طيراً أمثال البخت (٤) . »

❖ (صفة الجور العين والولدان) ❖

قد تكرر في القرآن أوصافهم و وردت الأخبار بزيادة شرح فيه روى أن رسول الله ﷺ قال : « غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٧٣ من حديث ثوبان بزيادة في أوله و زيادة في آخره .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى بإسناد صحيح و رواه أحمد في مسنده ج ٤ ص ٣٦٧ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا و البزار و البيهقي كما في الترغيب ج ٤ ص ٥٢٧ .

(٤) قال العراقي . غريب من حديث حذيفة و لأحمد من حديث أنس « ان طير الجنة

كامثال البخت ترمى في شجر الجنة الحديث » المسند ج ٣ ص ٢٢١ .

نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضأت وملأت ما بينهما رائحة . ولنضيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها ^(١) يعني الخمار .

وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : في قوله تعالى : « كَانَتْ مِنْ أَلْفِ نِسَاءٍ مِنْ دُونِهَا لَمْ يَكُن لَهَا فُجُورَةٌ وَكَانَتْ مِنْ دُونِهَا حَسَنَةٌ » قال : ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضي ما بين المشرق والمغرب ، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ^(٢) .

وقال مجاهد في قوله تعالى : « أزواج مطهرة » ^(٣) قال : يعني من الحيض والغائط والبول والبزاق والنخامة والنجاسة والمنسي والولد .

وقال الأوزاعي : « في شغل فاكهون » ^(٤) قال : شغلهم افتضاض الأكل .

وقيل : يا رسول الله : « أيباض أهل الجنة ؟ » قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم ^(٥) ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء ، وأربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا » ^(٦) .

وقال النبي ﷺ : « إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ٢٠ من حديث أنس . والنضيف : الخمار .

(٢) الرحمن : ٥٨ .

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه بنحوه والبيهقي بإسناد ابن حبان واللفظ له كما

في الترغيب ج ١٠ ص ٥٣٤ . (٤) البقرة : ٢٥ .

(٥) يس : ٥٥ .

(٦) قال العراقي : رواه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس هكذا « يعطى الرجل من أهل الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فليل أو يطبق ذلك قال : يعطى قوة مائة » انتهى وروى البزار من حديث أنس « قال صلى الله عليه وآله : « يزوج العبد في الجنة سبعين زوجة فليل أو يطبقها » قال : يعطى قوة مائة . مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤١٧ .

(٧) قال العراقي : رواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وكتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال : مائة حوراء ولم يذكر فيه عناق له وأسناد ضعيف .

الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةَ دَخَلَ فِيهَا ^(١) .
وإنَّ فِيهَا لِمُجْتَمِعاً لِلْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعْ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقْلَنَ
نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبَأُ ، وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ ،
فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّالَهُ ^(٢) .

وَقَالَ أَبُو أَمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ
إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثَنَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ تَغْتَيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ يَسْمَعُهُ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ ^(٣) » .

❖ (بيان جمل متفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار) ❖

رَوَى أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : « أَهْلُ مَشْرِقِ الْجَنَّةِ ؟
إِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرُ لَهَا ، هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَوَّأُ ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وَقَصْرٌ مُشِيدٌ وَ
نَهْرٌ مُطَرَّدٌ ، وَفَاكِهِةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ فِي حَبْرَةٍ ، وَنِعْمَةٌ فِي مَقَامِ آمِينَ
أَبَدًا ، وَنَضْرَةٌ فِي دَارِ عَالِيَةِ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، قَالُوا : نَحْنُ الْمَشْمُورُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ :
قُولُوا : إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ ذَكَرَ الْجِهَادَ وَحُضَّ عَلَيْهِ ^(٤) » .

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « هَلْ فِي الْجَنَّةِ خَيْلٌ فَأَنْتَ تَعْجِبُنِي ،
قَالَ : إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ أَتَيْتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءٍ فَيَطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ
وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ آخَرُ : إِنَّ الْإِبِلَ يَعْجِبُنِي فَهَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ إِبِلٍ ؟ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ
إِنْ أَدَخَلْتَ الْجَنَّةَ فَلَاكُ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ ^(٥) » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ

(١) أخرجه الترمذی ج ١٠ ص ١٨ .

(٢) رواه الترمذی ج ١٠ ص ٣٧ وقال : غريب . ورواه البيهقی أيضاً .

(٣) رواه الطبرانی والبيهقی كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٥٣٧ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٢ بأدنى اختلاف .

(٥) أخرجه الترمذی ج ١٠ ص ١٣ بنحوه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف

كما في المعنى وقال الترمذی : وهذا أصح .

الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة (١) .
وقال عليه السلام : « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان
فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان فيتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا
فيقول : يا أخي أتذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا (٢) .
وقال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء
ثلاث و ثلاثين . على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع (٣) .
وقال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون
ألف خادم و ثنتان و سبعون زوجة ، وينصب له قبة من أولؤ و زبرجد و ياقوت كما
بين الجابية إلى صنعاء . « و إن عليهم النيجان و إن أدنى لؤلؤة منها لنضي ، ما بين
المشرق و المغرب (٤) » .

وقال عليه السلام : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كخلف البعير
المقضب وإذا طيرها كالبحب ، و إذا فيها جارية فقلت : يا جارية لمن أنت ؟ ف قالت :
لزيد بن حارثة . و إذا في الجنة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر قلب
بشر (٥) . و قال كعب الأحبار : خلق الله تعالى آدم بيده ، و كتب التوراة بيده ، و
غرس أشجار الجنة بيده ، ثم قال لها : تكلمي ، ف قالت : قد أفلح المؤمنون .
فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ، ثم نقلناها تفصيلاً ، و قال يحيى بن معاذ :

- (١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٨ و الترمذى ج ١٠ ص ٣٥ بنحوه .
- (٢) رواه البزار و رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار و الربيع بن صبيح و هما
ضعيفان و قد وثقا كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤٢١ .
- (٣) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٤ من حديث معاذ بن قوله « بيض جعاد » و دون
قوله « على خلق آدم - إلى آخره - » و في صحيح مسلم ج ٨ ص ١٤١ من حديث أبي هريرة
« فكل من يدخل الجنة على صورة آدم و طوله ستون ذراعاً » .
- (٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٥ من حديث أبي سعيد الخدري في حديثين .
- (٥) رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدى عن أبي سعيد و روى نحوه
على بن ابراهيم في تفسيره ص ٣٧٤ .

ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد و ترك الدنيا مهر الآخرة . وقال أيضاً : في طلب الدنيا ذل السّفوس وفي طلب الجنة عز السّفوس فباعجيا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى .

أقول : ومن طريق الخاصة ما رواه شيخنا الصدوق - رحمه الله - بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال : « إن للجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطها المسك الأذفر ، وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر ، وأبوابها مختلفة باب الرحمة من ياقوته حمراء ، وأما الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوته حمراء لالحلق له ، وأما باب الشكر فإنه من ياقوته بيضاء لها مصراعان مسيرة ما بينهما خمسمائة عام ، له ضجيج وحين يقول : اللهم جئني بأهل ينطقه ذوالجلال والاكرام ، وأما باب البلاء من ياقوته صفراء مصراع واحد ما أقل من يدخل منه ، فأما الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصالحون ، وهم أهل الزهد والورع الرّاعبون إلى الله عز وجل المستأنسون به ، فإذا دخلوا الجنة يسرون على نهرين في مصاف في سفن الياقوت مجاذيفها اللؤلؤ^(١) فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديد الخضرة يسرون على حافتي ذلك النهر واسم ذلك النهر جنة عدن هي وسط الجنان وسورها ياقوت أحمر حصباؤها اللؤلؤ^(٢) . »

و بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصدّيقون وباب يدخل منه الشهداء والصالحون وخمسة أبواب يدخل منها شيعةنا ومحبتونا فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول : رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد أجبت دعوتك وشفعت في شيعتك ، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني

(١) المجذاف : ما يجذف به السفينة ، وفي بعض النسخ من المصدر - بالبدال المهملة -

وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بهما القوارب .

(٢) رواه الصدوق في التقيّة باب الاذان والاقامة وفي الامالي ص ١٢٨ في حديث

طويل لغصه شيخنا الفيض مهتما .

و نصرني و حارب من حاربنني بفعل أو قول ، في سبعين ألفاً من جيرانه و أقربائه ،
و باب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله و لم يكن في قلبه مثقال
ذرة من بغضنا أهل البيت (١) .

و عن مولانا الباقر (عليه السلام) : « أحسنوا الظن بالله و اعلموا أن الجنة ثمانية
أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعمئة سنة (٢) » .

و روى ثقة الاسلام محمد بن يعقوب - رحمه الله - في الكافي بإسناده عن أبي جعفر
الباقر (عليه السلام) قال : « إن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل : « يوم نحشر
المتقين إلى الرحمن وفداً (٣) » فقال : يا علي إن الوفا لا يكونون إلا ركباناً
أو لك رجال اتقوا الله فأحبهم الله تعالى و اختصهم و رضي أعمالهم فسمّاهم المتقين
ثم قال له : يا علي أما والذي فلق الحبة و برأ النسيمة إنهم ليخرجون من قبورهم
و أن الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الغر عليها رحال الذهب مكللة بالدر و
الياقوت و جلالها الاستبرق و السندس ، و خطمها جدل الأرجوان ، تطير بهم إلى
المحشر مع كل رجل منهم ألف ملك من قدّامه و عن يمينه و عن شماله يزفونه
زفاً حتى ينتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم ، و على باب الجنة شجرة إن الورقة
منها يستظل تحتها ألف رجل من الناس ، و عن يمين الشجرة عين مطهرة مزكية
فيسقون منها شربة فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر ، و
ذلك قول الله تعالى : و سقيهم ربهم شراباً طهوراً (٤) « من تلك العين المطهرة ،
قال : ثم ينصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها و هي عين
الحياة فلا يموتون أبداً ، قال : ثم يوقف بهم قدّام العرش و قد سلموا من الآفات
و الأسقام و الحر و البرد أبداً ، قال : فيقول الجبار جل ذكره للملائكة الذين
معه : احشروا أوليائي إلى الجنة و لا توقوهم مع الخلائق ، فقد سبق رضائي
عنهم ، و وجبت رحمتي لهم ، و كيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات و السيئات

(١) و (٢) الخصال ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٤) الانسان : ٢١ .

(٣) مريم : ٨٥ .

قال : فتسوقهم الملائكة إلى الجنة فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم ضرب الملائكة الحلقة ضربة فتصر صريراً يبلغ صوت صريرها كل حوراء أعدّها الله تعالى لأوليائه في الجنان ، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة فيقول بعضهم لبعض : قد جاءنا أولياء الله فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنة ، ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين فيقلن مرحباً بكم فما كان أشدّ شوقنا إليكم ويقول : لهنّ أولياء الله مثل ذلك ، فقال علي عليه السلام : يا رسول الله أخبرنا عن قول الله تعالى : « غف من فوقها غرف مبنية ^(١) » بماذا بنيت يا رسول الله ؟ فقال : يا علي تلك غرف بناها الله تعالى لأوليائه بالدرّ والياقوت والزّبرجد ، سقوفها الذهب محبوكة بالفضّة ، لكل غرفة منها ألف باب من ذهب على كل باب منها ملك موكل به فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة ، وحشوها المسك والكافور والعنبر ، وذلك قول الله تعالى : « وفرش مرفوعة ^(٢) » إذا دخل المؤمن إلى منازل في الجنة ووضع على رأسه تاج الملك والكرامة اللبس حلل الذهب والفضّة والياقوت والدرّ منظوم في الإكليل تحت التاج ، قال : واللبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة و ضروب مختلفة منسوجة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت الأحمر فذلك قوله تعالى : « يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً و لباسهم فيها حرير ^(٣) » فإذا جلس المؤمن على سرير اهتزّ سرير فرحاً ، فإذا استقرّ لوليّ الله منازل في الجنان استأذن عليه الملك الموكل بجنانه لينهّنه بكرامة الله تعالى إياه فيقول له : خدّ أم المؤمن من الوصفاء والوصائف : مكانك فإنّ وليّ الله قد اتسكأ على أريكته وزوجته الحوراء تهبّى له فاصبر لوليّ الله ، قال : فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة وحولها وصائفها ، وعليها سبعون حلّة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزّبرجد وهي من مسك وعنبر وعلى رأسها تاج الكرامة وعليها نعلان من ذهب مكللتان بالياقوت واللؤلؤ ، شراكها ياقوت أحمر ،

(٢) الواقعة : ٣٤ .

(١) الزمر : ٢٠ .

(٣) الحج : ٢٣ .

فإذا دنت من وليّ الله فهم أنّ يقوم إليها شوقاً فتقول له : يا وليّ الله ليس هذا يوم تعب ولا نصب فلا تقم أنا لك وأنت لي قال : فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدنيا لا يملها ولا تملّه ، قال : فإذا فتر بعض الفتور من غير ملالة نظر إلى عنقها فإذا عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر وسطها لوح صفحته درّة مكتوب فيها أنت يا وليّ الله حبيبي وأنا الحوراء حبيبتيك إليك تناهت نفسي وإليّ تناهت نفسك ثمّ يبعث الله إليه ألف ملك يهتئونه بالجنة ويزوّجونهم بالحوراء ، قال : فينتهون إلى أوّل باب من جنانه فيقولون للملك الموكل بأبواب جنانه : استأذن لنا على وليّ الله فإنّ الله بعثنا إليه نهتئهم فيقول لهم الملك : حتّى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم ، قال : فيدخل الملك إلى الحاجب وبينهم وبين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي إلى أوّل باب فيقول للحاجب : إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العالمين ليهتئوا وليّ الله وقد سألوني أن أذن لهم عليه فيقول الحاجب : إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على وليّ الله وهو مع زوجته الحوراء ، قال : وبين الحاجب وبين وليّ الله جنتان قال : فيدخل الحاجب إلى القيم فيقول له : إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العرّة يهتئون وليّ الله فاستأذن لهم فيتقدّم القيم إلى الخدم فيقول لهم : إنّ رسل الجبار على باب العرصة وهم ألف ملك أرسلهم يهتئون وليّ الله فأعلموه بمكانهم قال : فيعلمونه فيؤذن للملائكة فيدخلون على وليّ الله وهو في الغرفة ولها ألف باب وعلى كلّ باب من أبوابها ملك موكل به ، فإذا أذن للملائكة بالدخول على وليّ الله فتح كلّ ملك باباً الموكل به قال : فيدخل القيم كلّ ملك من باب من أبواب الغرفة قال : فيبلغونه رسالة الجبار جلّ وعزّ وذلك قول الله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب - (من أبواب الغرفة) - سلام عليكم - إلى آخر الآية ^(١) » قال : وذلك قوله تعالى : « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ^(٢) » يعني بذلك وليّ الله وما هو فيه من الكرامة والتعظيم والملك العظيم الكبير ، إنّ الملائكة من رسل الله تعالى يستأذنون عليه فلا

يدخلون عليه إلا بأذن فذلك الملك العظيم قال : و الأنهار تجري من تحت مساكدهم وذلك قول الله تعالى : « تجري من تحتهم الأنهار ^(١) » و الثمار دانية منهم و هو قوله عز وجل : « ودانية عليهم ظلالها و ذلت قطوفها تذليلاً » ^(٢) من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهي من الثمار بفيه و هو متكئ و إن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله : يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي قال : وليس من مؤمن في الجنة إلا و له جنان كثيرة معروشات و غير معروشات و أنهار من خمر و أنهار من ماء و أنهار من لبن و أنهار من عسل ، فإذا دعا ولي الله بغذائه أتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمى شهوته قال : ثم تتخلى مع إخوانه و يزور بعضهم بعضاً و يتنعمون في جناتهم في ظل ممدور في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس و أطيب من ذلك لكل مؤمن سبعون زوجة حورا ، و أربع نسوة من الآدميين و المؤمن ساعة مع الحورا و ساعة مع الآدمية و ساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعضهم إلى بعض و إن المؤمن ليغشاها شعاع نور و هو على أريكته و يقول لخدأه : ما هذا الشعاع اللامع لعل الجبار لحظني فيقول له خدأه : قد وُس قد وُس جل جلال الله ، بل هذه حورا من نساءك ممن لم تدخل بها بعد ، قد أشرفت عليك من خيمتها شوقاً إليك و قد تعرضت لك و أحببت لقاءك ، فلمّا أن رأتك متكئاً على سريرتك تبسمت نحوك شوقاً إليك فالشعاع الذي رأيت و الدور الذي غشيك هو من بياض ثغرها و صفائه و نقائه و رقته ، قال : فيقول ولي الله : ائذنوا لها فتنزل إلي فيبتدر إليها ألف و صيف و ألف و صيفة يبشرونها بذلك فتنزل إليهم من خيمتها و عليها سبعون حلة منسوجة بالذهب و الفضة مكللة بالدُرّ و الياقوت و الزُّبرجد صبغهن المسك و العنبر ، بألوان مختلفة يرى منخ ساقها من وراء سبعين حلة طولها سبعون ذراعاً ، و عرض ما بين منكبيها عشرة أذرع فإذا دنت من ولي الله أقبلت الخدأ بمصحات الذهب و الفضة فيها الدُرّ و الياقوت و الزُّبرجد فينثرونه عليها ثم يعانقها و تعانقه فلا يمل و لا تمل .

قال الراوي : ثم قال أبو جعفر عليه السلام : « أما الجنان المذكورة في الكتاب فأنهن الجنة عدن و الجنة الفردوس و الجنة نعيم و الجنة المأوى قال : و إن الله تعالى جنانا محفوفة بهذه الجنان و إن المؤمن ليكون له من الجنان ما أحب و اشتهى يتنعم فيهن كيف يشاء و إذا أراد المؤمن شيئاً أو اشتهى إنمّا دعواه به إذا أراد أن يقول : سبحانك اللهم ، فإذا قالها : تبادرت إليه الخدم بما اشتهى من غير أن يكون طلبه منهم ، أو أمر به و ذلك قول الله عز و جل : « دعويهم فيها سبحانك اللهم و تحييتهم فيها سلام ^(١) » يعني الخدم قال : « و آخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين ^(٢) » يعني بذلك عند ما يقضون من لذاتهم من الجماع و الطعام و الشراب يحمدون الله تعالى عند فراغهم ، و أمّا قوله : « أولئك لهم رزق معلوم ^(٣) » قال : يعلمه الخدم فياتون به أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه ، و أمّا قوله تعالى : « فواكه وهم مكرمون ^(٤) » قال : فإنهم لا يشتهون شيئاً في الجنة إلا أكرموا به ^(٥) .

وروى الصدوق رحمه الله عن الصادق عليه السلام : « أنه سئل عن قول الله عز و جل : « لهم فيها أزواج مطهرة ^(٦) » قال : الأزواج المطهرة اللاتي لا يحضن ولا يحدثن ^(٧) . و باسناده عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار رسول الله ﷺ فليس من مؤمن إلا و في داره غصن من أغصانها لا ينوي في قلبه شيئاً إلا أنه ذلك الغصن به ، ولو أن راكباً مجدّاً سار في ظلها مائة عام لم يخرج منها ، ولو أن غراباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتى يبيض هراً ^(٨) . و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : تسنيم أشرف شراب أهل الجنة يشربه محمد وآل محمد صرفاً و يمزج لأصحاب اليمين و سائر أهل الجنة ^(٩) .

(٣) الصفات : ٤١ .

(١) و (٢) يونس : ١٠ .

(٥) الروضة ص ٩٥ الى ١٠٠ .

(٤) الصفات : ٤٢ .

(٧) رواه الصدوق في الفقيه .

(٦) النساء : ٥٧ .

(٨) رواه الصدوق في الامالي ص ١٣٣ وفي النخال ج ٢ ص ٨٢ ورواه أيضاً العياشي

في تفسيره .

(٩) رواه القمي في تفسيره سورة التطهيف قوله تعالى : « عينا يشرب بها المقربون »

وقوله تعالى : « و مزاجه من تسنيم » .

﴿باب في سعة رحمة الله﴾

نختم به الكتاب على سبيل النفال بذلك فقد كان رسول الله ﷺ يحب النفال (١) وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله ﷺ في النفال و نرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٢) .

وقال تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » (٣) .
وقال تعالى : « و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » (٤) و نحن نستغفر الله تعالى من كل ما زل به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا و في سائر كتبنا و نستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، و نستغفره مما أذعنناه و أظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، و نستغفره من كل علم و عمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، و نستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ، ثم قصرنا في الوفاء به ، و نستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، و نستغفره من كل تصريح و تعريض بنقصان ناقص و تقصير مقصّر كنّا متصفيين به ، و نستغفره من كل خطرة دعطنا إلى تصنع و تكلف تزييننا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمنا ، أو علم أقدناه أو استفدناه ، و نرجع بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا و لمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن يكرمنا الله بالمغفرة والرحمة و التجاوز عن جميع السيئات ظاهراً و باطناً فإن الكرم عظيم و الرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله و كرمه ، فقد قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه مسلم ج ٧ ص ٣٣ من حديث أنس .

(٢) النساء : ٤٨ . (٣) الزمر : ٥٣ .

(٤) النساء : ١١٠ .

« إنَّ اللهَ تعالى مائةَ رحمةٍ أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ و الأنسِ و الطَّيرِ و البهائمِ و الهوامِّ فيها يتعاطفون و بها يتراحمون و آخرُ تسعاً و تسعينَ رحمةً يرحم اللهَ بها عباده يومَ القيامةِ (١) » .

وروي : « أنَّه إذا كان يومَ القيامةِ أخرجَ اللهَ تعالى كتاباً من تحت العرشِ فيه إنَّ رحمتي سبقتَ غضبي و أنا أرحمُ الرَّاحمينَ فيخرجُ من النَّارِ مثلاً أهلَ الجنةِ (٢) » .

و قال رسولُ الله ﷺ : « يتجلَّى اللهَ تعالى لنا يومَ القيامةِ ضاحكاً فيقول : أبشروا يا معشرَ المسلمينَ فإنَّه ليسَ منكمُ أحدٌ إلَّا وقد جعلتُ مكانه في النَّارِ يهودياً أو نصرانياً (٣) » .

و قد قال رسولُ الله ﷺ : « يشفعُ اللهَ تعالى آدمُ يومَ القيامةِ من جميعِ ذرِّيَّتهِ في مائةِ ألفِ ألفٍ و عشرةِ آلافِ ألفٍ (٤) » .

وقال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ هلْ أحببتمْ لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربَّنَا ، فيقول : لم ؟ فيقولون : رجونا عفوك و مغفرتك ، فيقول : قد أوجبتُ لكم مغفرتي (٥) » .

و قال رسولُ الله ﷺ : « يقولُ اللهَ يومَ القيامةِ : أخرجوا من النَّارِ من ذكرني يوماً أو خافني في مقامٍ (٦) » .

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث سلمان وأبي هريرة ، ورواه الطبراني من حديث عباد بن صامت .

(٢) رواه البخاري و مسلم ج ٨ ص ٩٥ دون قوله « و أنا أرحمُ الرَّاحمينَ الخ » حديث يومَ القيامة .

(٣) أخرج مسلم ج ٨ ص ١٠٥ ذيله و روى صدره الطبراني في حديث آخر من حديث أبي موسى . (٤) رواه الطبراني في الاوسط من حديث أنس و فيه يزيد الرقاشي و هو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨١ .

(٥) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٣٨ من حديث معاذ بن جبل . والطبراني بسندين أحدهما حسن كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٨ .

(٦) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٦١ من حديث أنس و قال حسن صحيح .

وقال عليه السلام : « إذا اجتمع أهل النار في النار و من شاء الله معهم من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى فيقولون : ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار ؟ فيقولون : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا : يا ليتنا كنّا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ربما يؤذ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ^(١) » .

وقال عليه السلام : « الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها ^(٢) » .

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئاته يوم القيامة فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ، ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

وروي أن الله عز وجل قال لموسى على نبيّنا وآله وعليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه .

وقال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى لهما : « ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد » ويأمر بصرفهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما ، فيقول الذي عد إلى النار : قد ذقت من وبال المعصية ما لم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ، ويقول الذي تلكأ : حسن ظني بك كان يشعرنني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنة .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، عن أبي موسى الأشعري كما في الدر المنثور ج ٤ ص ٩٢ . والآية في سورة الحجر : ٢ .

(٢) متفق عليه و رواه الطبراني من حديث عبد الله بن أبي أوفى كما في جميع الزوائد

و قال رسول الله ﷺ : ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد و هبته لكم و بقيت التبعات فتواهبوها و ادخلوا الجنة برحمتي ، (١) .

و يروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ « و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فقال الأعرابي : والله ما أنقذكم منها و هو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه .

و قال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت و هو في مرض موته فبكيت ؟ فقال : مهلاً لم تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً و سوف أ حدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي سمعت رسول الله ﷺ : « يقول : من شهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله حرّمه الله على النار » (٢) .

و عن رسول الله ﷺ إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فيذشر عليه تسعة و تسعين سجلاً لكلّ سجلّ منها مثل مدّ البصر ، ثمّ يقول له : أنتكر من هذا شيئاً أظلمتكم ملائكتي الحافظون ؟ فيقول : لا ياربّ فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا ربّ فيقول : بلي إن لك عندنا حسنة فإنّه لا ظلم عليكم اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله ، فيقول : يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجالات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجالات في كفة و البطاقة في كفة ، و طاشت السجالات و ثقلت البطاقة فلا يتقل مع الله شيء ، (٣) .

(١) قال العراقي : روينا في سباعات أبي الاسعد الفشيري من حديث أنس و فيه الحسين بن داود البليخي قال الخطيب : ليس بثقة . أقول راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٥ .
(٢) رواء مسلم ج ١ ص ٤٢ من حديث عبادة بن صامت و أيضاً برواية الصنابحي غير هذا اللفظ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٠٠ « دون قوله فلا يتقل مع الله شيء » .

و قال ﷺ : في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط : « إن الله تعالى يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار قال : فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به . ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : يا ربنا لم نذر فيها خيراً (فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم) « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » قال : فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون و شفع المؤمنون و لم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا محمداً فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة يقال له : نهر الحياة فيخرجون منه كما تخرج الحبة في حميل السيل الأترونها تكون مماليي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر و ما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا : يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون : هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قد موه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتم فيها فهو لكم فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى : إن لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً . رواه البخاري و مسلم في صحيحيهما (١).

و روى البخاري أيضاً عن ابن عباس قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : عرضت على الأمام يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد و النبي معه الرجل هط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن يكون أممي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ثم قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سد الأفق فقيل

(١) مسلم ج ١ ص ١١٥ ، البخاري ج ٩ ص ١٥٩ من حديث أبي سعيد الخدري .

لي: انظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً أفقيل لي: هؤلاء أممك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك أصحابه فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنّا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال: أنت منهم، ثم قام آخر فقال: مثل قول عكاشة، فقال النبي ﷺ: سبقك بها عكاشة^(١).

و عن عمرو بن حزم الأنصاري قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلينا إلا للصلاة المكتوبة، ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله قد احتبست عنا حتى ظنننا أنه قد حدث حدث، قال: لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أممي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم وإنني سألت ربي في هذه الثلاثة الأيام المزيد فوجدت ربي واجداً ماجداً كريماً فأعطاني مع كل واحد من سبعين ألفاً سبعين ألفاً، قال: قلت: يا رب وتبلغ أممي هذا قال: أكمل لك العدد من الأعراب^(٢).

و قال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «عرض لي جبرئيل في جانب الحرية فقال: بشر أممك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، فقلت: يا جبرئيل وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن سرق وإن زنى، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر^(٣)».

قال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ يوماً «و لمن خاف مقام ربه جنتان^(٤)» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «و لمن خاف مقام ربه جنتان» فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «و لمن خاف مقام ربه جنتان»

(١) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٤٠.

(٢) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (المعنى).

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥، ورواه أيضاً البخاري في الصحيح.

(٤) الرحمن:

فقلت : و إن زنى و إن سرق و إن رغب أنف أبي الدرداء (١) .
و قال ﷺ : إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل
ف قيل له : هذا فداؤك من النار (٢) .

و روى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنه حدث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه ،
عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه
النار يهودياً أو نصرانياً فاستحلفه عمر بن عبدالعزيز بالله الذي لا إله إلا هو
ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ فحلف له (٣) .

و روي أنه وقف صبي في بعض المغازي يصاح عليه فيمن يزيد في يوم صائف
شديد الحر و أبصرته امرأة في خبأ القوم فأقبلت تشتد و أقبل أصحابها خلفها حتى
أخذت الصبي و ألصقته إلى بطنها ، ثم ألقت ظهرها على حر البطحاء و جعلته على
بطنها لتقيه الحر و قالت : ابني ابني ، فبكى الناس وتر كوا ما هم فيه ، فأقبل رسول
الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرهم فقال : أعجبتم
من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ : فإن الله تعالى أرحم بكم جميعاً من هذه
بابنها ، فنفرق المسلمون على أفضل السرور و أعظم البشارة (٤) .

فهذه الأحاديث و ما أوردناه في كتاب الرجاء تبشّرنا بسعة رحمة الله تعالى
ففرجوا الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقّه وأن يتفضل علينا كما هو أهله بمنه وسعة
جوده و رحمته .

تم كتاب ذكر الموت و ما بعده من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء و هو
الكتاب العاشر من الربع الرابع الذي في المنجيات و بتمامه تم كتاب المحجّة
بكتبه الأربعين جميعاً و الحمد لله رب العالمين .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الاصول والنسائي والبراز
وأبو يعلى وابن جرير وابن حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه كما في الدر المنثور
ج ٦ ص ١٤٦ . (٢) رواه مسلم ج ٨ ص ١٠٤ بنحوه من حديث أبي موسى و قد تقدم .

(٣) الصحيح ج ٨ ص ١٠٥ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٩ بنحوه ومسلم ج ٨ ص ٩٧ وقد تقدم .

فهرست ما فى هذا المجلد

الموضوع

الصفحة

كتاب المحبة و الشوق و الرضا و الانس

شواهد الشرع فى حبّ العبد لله تعالى .	٤
حقيقة المحبة و أسبابها و تحقيق محبة العبد لله تعالى .	٨
بيان أن المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده .	١٦
بيان أن أجل اللذات و أعلاها معرفة الله تعالى و النظر إلى وجهه الكريم و أنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة .	٢٧
السبب فى زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا .	٣٤
الأسباب المقوية لحبّ الله تعالى .	٤٣
السبب فى تفاوت الناس فى الحبّ .	٥٠
السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله عزّ و جلّ .	٥١
معنى الشوق إلى الله عزّ و جلّ .	٥٥
محبة الله عزّ و جلّ للعبد و معناها .	٦٣
القول فى علامات محبة العبد لله عزّ و جلّ .	٦٨
معنى الانس بالله عزّ و جلّ .	٧٩
معنى الانبساط و الإدلال الذى تثمره غلبة الانس .	٨١
القول فى معنى الرضا بقضاء الله و حقيقته و ماورد فى فضيلته .	٨٦
بيان فضيلة الرضا .	٨٦

الموضوع	الصفحة
حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى .	٩٠
الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا .	٩٤
الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي و مذهبها لا يقدح في الرضا .	٩٩
كتاب النية والصدق والاخلاص	
الباب الأول بيان فضيلة النية وحقيقة النية .	١٠٣
بيان حقيقة النية .	١٠٦
سر قوله ﷺ «نية المؤمن خير من عمله» .	١٠٩
تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية .	١١٣
النية غير داخلية تحت الاختيار .	١٢١
الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته .	١٢٥
بيان حقيقة الخلوص .	١٢٨
درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص .	١٣٣
حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به .	١٣٦
الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته .	١٤٠
حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه .	١٤١
كتاب المراقبة والمحاسبة	
المقام الأول من المراقبة والمشاركة .	١٥١
المراقبة الثانية المراقبة .	١٥٥
حقيقة المراقبة ودرجاتها .	١٥٦
النظر الثاني المراقبة عند الشروع في العمل .	١٦٢
المراقبة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل .	١٦٥
حقيقة المحاسبة بعد العمل .	١٦٧

الموضوع	الصفحة
المرباطة الرابعة معاقبة النفس على تقصيرها .	١٦٨
المرباطة الخامسة المجاهدة .	١٦٩
المرباطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها .	١٨٠
كتاب التفكير	
فضيلة التفكير .	١٩٣
حقيقة الفكر و ثمرته .	١٩٦
بيان مجاري الفكر .	٢٠٠
كيفية التفكير في خلق الله عز وجل .	٢١٢
كتاب ذكر الموت و ما بعده	
الباب الأوّل في فضل ذكر الموت و الترغيب فيه .	٢٣٨
بيان فضل ذكر الموت كيف ما كان .	٢٣٩
بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت .	٢٤٣
الباب الثاني في طول الأمل .	٢٤٤
بيان السبب في طول الأمل وعلاجه .	٢٤٦
بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره .	٢٤٨
بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير .	٢٥٠
الباب الثالث في سكرات الموت و شدّته وما يستحب من الأحوال عند الموت .	٢٥٢
بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت .	٢٦٢
بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها .	٢٦٥
الباب الرابع في وفاة رسول الله ﷺ .	٢٦٨

الصفحة	الموضوع
٢٨١	الباب الخامس في كلام المختصرين من الصالحين .
٢٨٢	الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز و المقابر و حكم زيارة القبور .
٢٨٤	أحوال القبر وأقاويلهم على القبور .
٢٨٦	بيان أقاويلهم عند موت الولد .
٢٩٣	الباب السابع في حقيقة الموت و ما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور .
٣٠١	بيان كلام القبر للميت .
٣٠٢	بيان عذاب القبر .
٣٠٩	سؤال منكر و نكير و عذاب القبر .
٣١٢	الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .
٣١٧	منامات تكشف عن أحوال الموتى .
٣١٨	صفة نفخ الصور .
٣٢٢	صفة أرض المحشر وأهله .
٣٢٧	صفة العرق .
٣٢٨	صفة طول يوم القيامة .
٣٢٩	صفة يوم القيامة و دواهيه وأساميه .
٣٣٢	صفة المسائلة .
٣٣٩	صفة الميزان .
٣٤٠	صفة الخصماء ورد المظالم .
٣٤٤	صفة الصراط .
٣٤٨	صفة الشفاعة .

الموضوع	الصفحة
صفة الحوض .	٢٥١
القول في صفة جهنم و أهوالها و أنكالها .	٣٥٣
القول في صفة الجنة و أصناف نعيمها .	٣٦٤
أبواب الجنة .	٣٦٧
غرف الجنة .	٣٦٨
صفة حائط الجنة و أرضها .	٣٦٩
صفة لباس أهل الجنة و فرشهم و سررهم و أرائكهم و خيامهم .	٣٧١
صفة طعام أهل الجنة .	٣٧٢
صفة الحور العين والولدان .	٣٧٣
بيان جبل متفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار .	٣٧٥
باب في سعة رحمة الله .	٣٨٣

﴿ مصادر التعليق والتصحيح ﴾

- ١ - الاتقان للسيوطي .
- ٢ - الاحتجاج للطبرسي .
- ٣ - احياء علوم الدين للغزالي .
- ٤ - الاختصاص للشيخ المفيد الطبعة الاولى .
- ٥ - الارشاد > ط ١٣٧٧ .
- ٦ - آداب المتعلمين للمحقق الطوسي .
- ٧ - الاستبصار للشيخ الطوسي ط النجف .
- ٨ - الاستغاثة لاحمد بن موسى القمي .
- ٩ - الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة .
- ١٠ - اسد الغابة لابن اثير الجزري .
- ١١ - أسرار الصلاة للشهيد الثاني .
- ١٢ - الاصابة لابن حجر العسقلاني ط ١٣٥٩
- ١٣ - اعتقادات الصدوق هامش باب حاديمشر .
- ١٤ - اعلام الوري بأعلام الهدى للطبرسي ط ١٣٧٩ .
- ١٥ - الامالي للشيخ الصدوق .
- ١٦ - الامالي للشيخ الطوسي .
- ١٧ - الامالي للشيخ المفيد .
- ١٨ - الامامة والسياسة لابن قتيبة ط ١٣٧٧ .
- ١٩ - الانساب للبلاذري .
- ٢٠ - بحار الانوار للمجلسي .
- ٢١ - بمائر الدرجات للصغار الطبع الحجري
- ٢٢ - البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني ط الحلب .
- ٢٣ - التاج الجامع الاصول .
- ٢٤ - تاريخ الخطيب طبع مصر .
- ٢٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي .
- ٢٦ - تاريخ الامم والملوك للطبري .
- ٢٧ - تاريخ النهي .
- ٢٨ - تحف العقول لابن شعبة ط ١٣٧٦ .
- ٢٩ - التذكرة لسبط ابن جوزي الطبع الحجري
- ٣٠ - الترغيب والترهيب للنذري ط ١٣٧٣ .
- ٣١ - تفسير علي بن ابراهيم القمي ط ١٣١٣ .
- ٣٢ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي .
- ٣٣ - التوحيد للصدوق ط ١٣٢١ .
- ٣٤ - تفسير الانوار للبيضاوي .
- ٣٥ - التهذيب للشيخ الطوسي ط ١٣١٧ .
- ٣٦ - تيسير الوصول لابن الديبع الدمشقي .
- ٣٧ - نواب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
- ٣٨ - جامع الاخبار .
- ٣٩ - جامع الرواة للارديلي .
- ٤٠ - الجامع الصغير للسيوطي .
- ٤١ - الجعفریات والاشعثيات الطبع الحجري .
- ٤٢ - حلية الاولياء لابي نعيم .
- ٤٣ - النخصال للصدوق الطبعة الاولى .
- ٤٤ - الخصائص للنسائي طبع النجف .
- ٤٥ - الغرائج والجرائح .
- ٤٦ - الدر المنثور للسيوطي .

- ٤٧ - دلائل النبوة لابي نعيم .
 ٤٨ - رجال النجاشي .
 ٤٩ - الرجال للكشي .
 ٥٠ - الرسالة المعراجية لابن مينا .
 ٥١ - روضات الجنات للخوانساري الطبعة الثانية .
 ٥٢ - روضة الواعظين للفتال النيشابوري .
 ٥٣ - السرائر لابن ادريس .
 ٥٤ - سر العالمين .
 ٥٥ - سفينة البحار للمحدث القمي .
 ٥٦ - السنن الكبرى لابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي .
 ٥٧ - السنن لابي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي .
 ٥٨ - السنن لابي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني .
 ٥٩ - السنن لابي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الدارمي .
 ٦٠ - المنن لسليمان بن الاشعث السجستاني .
 ٦١ - السيرة النبوية لابن هشام .
 ٦٢ - الشافي للسيد الشريف المرتضى .
 ٦٣ - شرح احياء العلوم للزيدي .
 ٦٤ - شرح النهج لابن أبي الحديد .
 ٦٥ - شرح النهج لابن ميثم البحراني .
 ٦٦ - الشامل للترمذي .
 ٦٧ - الصحاح للجوهري .
 ٦٧ - الصحيح لابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .
 ٦٩ - الصحيح لابن عيسى محمد بن عيسى الترمذي الطبعة الاولى .
 ٧٠ - الصحيح لمحمد بن اسماعيل البخاري طبع محمد علي صبيح .
 ٧١ - صحيفة الرضا عليه السلام .
 ٧٢ - الصواعق المحرقة للهيتمي .
 ٧٣ - طبقات لابن سعد طبع ليدن .
 ٧٤ - الطرائف لابن طاووس .
 ٧٥ - عدة الداعي لابن فهد الحلبي .
 ٧٦ - عقاب الاعمال للصدوق ط ١٣٧٥ .
 ٧٧ - علل الشرائع للصدوق ط ١٣١١ .
 ٧٨ - علم اليقين للمؤلف (الفيض) .
 ٧٩ - عيون اخبار الرضا عليه السلام للصدوق .
 ٨٠ - عيون الاخبار لابن قتيبة .
 ٨١ - الغدير للعلامة الاميني طبع طهران .
 ٨٢ - الغيبة للنعمانى .
 ٨٣ - الفقيه (من لا يحضره الفقيه) ط ١٣٧٦ .
 ٨٤ - فهرست للشيخ الطوسي .
 ٨٥ - قاموس المحيط للفيروز آبادي .
 ٨٦ - قرب الاسناد للحميري الطبع العجري .
 ٨٧ - الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه للسيد جواد المصطفوي .
 ٨٨ - الكافي للكليني (ره) الطبع الحروفي الحديث الذي عليه تعاليقنا .
 ٨٩ - الكافي الشاف للمسقلاني بهامش تفسير الكشاف .
 ٩٠ - الكشاف للزمخشري .
 ٩١ - كشف المحجة لابن طاووس .

- ٩٢ - كشف الغمة لعلی بن عیسی الاربلی .
 ٩٣ - کمال الدین للشیخ الصدوق .
 ٩٤ - کنز العمال لعلی متقی .
 ٩٥ - کنز الفوائد للکراچکی .
 ٩٦ - کنوز الحقائق لعبد الرؤوف المناوی .
 ٩٧ - الکنى واللقاب للمحدث القمی .
 ٩٨ - المجازات النبویة للشریف الرضی .
 ٩٩ - مجمع البیان للطبرسی .
 ١٠٠ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمی .
 ١٠١ - المحاسن لاحمد بن محمد بن خالد البرقی .
 ١٠٢ - المحلى لابن حزم .
 ١٠٣ - المختصر (مختصر بیان العلم) لاحمد
 عمر المحمضانی البيروتی طبع مصر .
 ١٠٤ - مرآة العقول للمجلسی .
 ١٠٥ - مرصع الاطلاع لعبد المؤمن
 البغدادی .
 ١٠٦ - مروج الذهب للمسعودی الطبعة
 الثالثة .
 ١٠٧ - المستدرک لابن البیج الحاكم
 النیشابوری .
 ١٠٨ - مستدرک الوسائل للنوری .
 ١٠٩ - المسند لابی عوانة .
 ١١٠ - المسند لابی عبدالله أحمد بن حنبل .
 ١١١ - المسند لابی داود الطیالسی .
 ١١٢ - مشکاة المصابیح لولی الدین محمد
 ابن عبدالله الخطیب التبریزی .
 ١١٣ - مصابیح السنة لابی محمد الحسین
 ابن مسعود الفراء البغوی .
 ١١٤ - مصباح الشریعة .
 ١١٥ - مصباح المنیر للمفیومی .
 ١١٦ - مطالب السؤل لابن طلحة .
 ١١٧ - معالم التنزیل للبغوی .
 ١١٨ - معانی الاخبار للصدوق ط ١٣٧٩ .
 ١١٩ - المعارف للدينوری .
 ١٢٠ - المغنی عن الاسفار للعراقی برمز (م) .
 ١٢١ - مفتاح الفلاح للشيخ البهائي طبع مصر .
 ١٢٢ - مفردات القرآن للراغب .
 ١٢٣ - مقائیس اللغة لاحمد بن فارس .
 ١٢٤ - مكارم الاخلاق للطبرسی ط ١٣٧٦ .
 ١٢٥ - المناقب للخوارزمی .
 ١٢٦ - منتخب كنز العمال بهامش المسند .
 ١٢٧ - منية المريد للشهيد الثاني .
 ١٢٨ - المواهب اللدنية للقسطلاني .
 ١٢٩ - الموضوعات لمولى على القارى .
 ١٣٠ - النوادر في جمع الاحاديث للفيض .
 ١٣١ - النهاية لابن الاثير الجزري .
 ١٣٢ - نهج البلاغة .
 ١٣٣ - نيل الاوطار للشوكاني .
 ١٣٤ - نظم در السمتين للزرندي .
 ١٣٥ - وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي .
 ١٣٦ - الوافي لولانا الفيض .
 ١٣٧ - الهداية للصدوق .

هذه المصادر هي التي نقلت عنها بلا واسطة وبقي غيرها من المصادر المنقولة عنها

مع الواسطة وهي كثيرة كما هو المشاهد في الكتاب .

شكر جميل

الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر ، نشكره ونحمده على عظيم إحسانه ، و نير برهانه ، و نوامي فضله وامتنانه .

أما بعد فقد أبرأ الله تعالى ذمتي وعهدتي عن هذا الخطب الفادح مع كثرة أشغالي ، وخفف كاهلي عن أعباء هذا الحمل الذي بهظني وملك أعنة نفسي أربع سنين فأدني وقطع مطاي ، وذلك أمر أوجب على نفسي في مهمة تحقيق الكتاب ، و ركبت الصعب باختيار مني دون أي قهر أو جبر ، ولات حين مناص .

فله الحمد على ما يسر لي أهبت ، وأتاح لي الفرصة حتى جئت على آخره ورضت في هذا السفر الطويل شعابه وأوديته ، وخضت غماره ، و اقتحمت عقباته ، و استخرجت كنوز أخباره ، و أشرت إلى مصادره و مآخذه ، و أوضحت ما شق على الذهن من عباراته ، و أفصحت عما دق من إشارات ، ولم أرُ إلا كثار و الاطناب فيما علقت عليه إلا ما دعت ضرورة البيان إليه ، راجياً من المولى سبحانه القبول فإنه خير منعم و مسئول .

وفي الختام نمدُّ كف الضراعة بذلّ وخشوع إلى من يجيب دعوة المضطرين أن يفرّج عنا غمرات الكروب ، وما أصبحنا فيه من الفتن والهناث والكوارث التي قلب المؤمن فيها يذوب ، فإلى الله المشتكى وعليه المعول في الشدة والرخاء .

علي أكبر الغفاري ١٣٨٤ هـ

